السَّـــلفية ..

مـنهج إســلامي؟

بقلــم

عمرو الشاعر

كلمة الغلاف الخلفي

مع تهاوي الطواغيت الجاثمة على صدور العرب، فُتح باب الحرية على مصراعيه، وأصبح المجال متاحاً أمام الجميع، وخرج "المارد الإسلامي" من قمقمه، وظهر للجميع أنه سيكون له اليد الطولى في تشكيل المجتمعات العربية في الفترة القادمة.

ومن أبرز التيارات الإسلامية التي برزت، -وقدمت نفسها كبديلٍ وحل!- وأثارت قدراً كبيراً من الجدل والتساؤلات والتخوف-في المجتمع المصري تحديداً- التيار السلفي، والذي تغيرت مواقفه كثيراً بعد الثورات العربية عن مثيلاتها قبلها، لذا نتوقف مع هذا التيار مُعرِّفين به وبأصوله وبمؤسسيها وبمُنظريه وبمشائخه، متوقعين لتحركاته وأفعاله ودوره في المجتمع في الفترة القادمة، كما نعرض بالنقد لمنطلقات "الفكر السلفي"، والتي جعلته يتبنى هذه المواقف والآراء المنتقَدة عليه، لنبين هل تتوافق مع المنهج القرآني الإسلامي وهل من الممكن أن تخرج مجتمعاً إنسانياً سليماً، كما نعرض لنماذج منتقاة من آراء الفكر السلفي، لنبين أن مشكلته ليست في التمسك الحرفي أو التفسير الظاهري للنصوص، وإنما في طريقة تعامل أتباعه معها.

تقـديم

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الغفار الرحيم، الجواد الوهاب الكريم، الفتاح العليم، الرزاق ذي القوة المتين، سبحانه حي لا يموت، بيده الخلق والأمر وإليه المرجع والمآب، يقبل توب من تاب وأناب، هو العفو الغفور ناصر من بُغي عليه، بأن يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو السميع البصير. هو مالك الملك، يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير. أحمده سبحانه جل وعلا وتقدس وتنزه عن ندٍ أو شبيه أو مثال أو صاحبة أو ولد أو عوز أو حاجة، أحمده حمد المؤمنين المصدقين الخاضعين الراضين المتقربين المتذللين الراغبين رضوانه، المعلنين رضاهم عنه به تمام الرضا ويقينهم به حق اليقين، والسائلين رضاه وفتوحه ... ثم أما بعد:

ما أجمله شعور وما أطيبه إحساس أن يغمرك برد اليقين عندما ترى آية من آيات الله تتحقق أمام ناظريك، آية كنت تنظرها منذ قرابة العشرين عاما، ثم هي تتحقق وتتوالى تترا أمام عينك في أقل من عام واحد، فتتساقط الطواغيت واحداً تلو الآخر، تلك التي كانت تمنع الناس من العودة إلى دينها وأصلها أفواجاً، بتغييبهم في بحار التمويه والتمويع، والتذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وترى ملامح الصحوة الإسلامية تزداد وضوحاً ورسوخا، وبعد أن كان "الإسلاميون" مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم "الأمن"، بدلهم الله بعد خوفهم أمنا، بل ويُمكن لهم في الأرض.

ومع سقوط الأنظمة القمعية وأُطرها الفكرية التي كانت قائمةً عليها أصبحت الساحة مفتوحة مباحةً لجميع التيارات، فلم تعد حكراً على تيارٍ دون آخر، وذلك لأن الشعوب بأكملها –وليس تياراً بعينه– هي من قام بإسقاط هذه الطواغيت.

لذا أخذ كل فريق يدلي بدلوه في هذه المعركة الفكرية، معركة إرساء قواعد الدول العربية الحديثة، ولانتشار التيار الإسلامي واقترابه من العوام واختلاطه بهم، لوجود

عامة أفراده بينهم –بخلاف التيار العلماني الذي لم يكد الفرد العادي يستشعر وجوده في أيام الأنظمة السابقة ولا معاناته على أيد زبانيته، والتي كانت كثيرا ما تطال الإسلاميين، فأكسبتهم تعاطفاً ومصداقية–، وللتدين العاطفي الموجود في قلوب الشعوب العربية عامة –والمصري خاصة– كان المشروع الإسلامي هو الأقرب إلى قلوب وعقول الشعوب العربية، لأنه مشروع قائم على العودة إلى الأصول للتمسك بالجذور، وهو طرح يلاقي قبولا عند أي متلقٍ لكونه معتمداً بالأساس على إحياء تراث الأمة، الذي أثبت فعاليته مسبقاً، فكان لها به السبق والريادة على كل شعوب البسيطة حينها.

ويختلف "الإحياء الإسلامي" عن مثيله الغربي: "**Renaissance**" "النهضة الغربية"، في كون الأخيرة قامت على إحياء التراث الأفرو–روماني القديم، كتراث إنساني عتيق يشمل علوماً وفنوناً وآداباً، كبديل للتراث الديني المسيحي الذي ساد أوروبا في القرون الوسطى، –بالإجبار– مأخوذاً من التفسيرات المختلفة لطبقة رجال الدين المسيحيين، لكونها لم تعد تتناسب مع طبيعة الحياة، يختلف الإحياء الإسلامي عن ذلك في كونه إحياء لفكر إنساني يعتمد بالأساس على "وحي إلهي"، ومحاولة تطبيق هذا الوحي الإلهي بما يتناسب مع احتياجات وآليات العصر، بما يحقق للمجتمع وللأمة طفرة نوعية، كنتيجة منطقية لإتباع "التوجيهات الربانية" المفصلة على علم الله وهداه.

وتتميز التجربة الإسلامية في كونها "غير صدامية" ولا تقوم على تنحية التراث الإنساني لإحياء تراث ديني منعزل مهجور، وإنما في تقويم التراث الإنساني بقبول بعضه وتعديل بعضه ورفض بعضه، فليس ثمة ذلك الفاصل بين الديني والإنساني في الحضارة الإسلامية، "فحيثما وجدت المصلحة كان شرع الله".

في خضم هذه التطورات والتغيرات التي تنال تركيبة مجتمعاتنا العربية –والتي تعدته إلى جُل دول العالم، مستلهمةً التجربة العربية– ظهر على الساحة "المنازل الكامن" الذي

رقد طويلاً وطويلاً ... ظهر: التيار السلفي. ظهر كفصيلٍ أصيل، ينادي بحقه في المعمعة السياسية ليأخذ حقه ودوره في صياغة المجتمع الجديد، لأنه أيقن أن دوره الذي اكتفى به في القرون –أو العقود– الماضية، وهو دور الدعوة، لن يكون كافياً في هذه المرحلة وأنه من الممكن أن يجني الكثير والكثير من الأرباح –المعنوية– والأتباع، في وقت قصير إذا كان في صدارة المشهد، بدلاً من الرضا بكونه من المُهمشين.

وأثار هذا الظهور على الساحة الكثير والكثير من التساؤلات والتكهنات حول "الظاهرة السلفية"، وحول دورها وتأثيرها في المجتمع المصري خاصة في المرحلة القادمة، وحول خططها لإنشاء المجتمع الإسلامي وكيف يرونه، وكيف شاركوا ابتداءً في المعركة السياسية بعد أن كانوا يرفضون هذه المنظومة جملة وتفصيلاً، ولا يقبلون إلا منظومة الخلافة؟!!

ولم يقتصر الأمر على التساؤلات وإنما تعداه إلى تخوفات –غير مبررة بعد: الربيع العربي– عمل ويعمل الإعلام على تغذيتها، من أن السلفيين سيعيدون المجتمعات المعاصرة إلى عصور الجاهلية!!

ولأن كثيراً في عصرنا هذا لا يعرفون الأسس التي يستند عليها السلفيون في أقوالهم وأحكامهم، ولا مواطن تميزهم عن غيرهم من الحركات الإسلامية مثل الإخوان المسلمين (والذين يمكن اعتبارهم: سلفيين كذلك بالمعنى الواسع للكلمة) ولأن بعض المسلمين يظن أن مشكلة الأمة –مثل مشكلة المجتمعات المسيحية– في القراءة الحرفية للنصوص المقدسة، والذي يزعم التيار السلفي تحديداً أنه يقوم بها، ومن ثم حاولوا ويحاولون تقديم "مشروع نهضوي" للأمة، قائم على "القراءة غير الحرفية" أو: القراءة التأويلية للنص المقدس: القرآن الكريم، لهذا كله ولغيره نعرض للتيار السلفي، معرفين بنشأته وبأصوله التي يقوم عليها وبفرقه المعاصرة ولماذا قام بذلك التحول المحوري في تاريخه، وكيف أنه لا يقدم قراءة ظاهرية للنصوص، وإنما قراءة موجهة.

ولن يكون عرضنا هذا تناولاً محيطاً، يشمل كل جوانب السلفية وتاريخها، ولا تناولاً يعمل على إثارة صراعات عقدية يدخلنا في قضايا التكفير والتضليل، وإنما سيكون التركيز الأكبر على فهم أصول المنهج ولم أخذ هذا الشكل، وهل تعتبر هذه الأصول تبعاً للمنظور القرآني معتدلة أم مذمومة، لهذا لن نعرض مثلاً لمسألة خطيرة يعرض لها كل من يكتب عن السلفية، وهي مسألة "السلفية والتجسيم"، أي تجسيم الله سبحانه وتعالى، وعرضه في صورة قريبة من البشر، لأن هذه القضية على أهميتها ليست مما يشغل القارئ المعاصر غير المتخصص، وربما لم يسمع عنها أصلاً، كما أنها لن تكون عنصراً حاسماً في تقييمه للسلفية، وربما لا يستطيع أن يصل فيها إلى تصورٍ واضح يؤهله للحكم عليها وفيها.

ولن نكتفي في عرضنا هذا بالتعريف والتعليل، وإنما سنتعداه إلى النقد بل والنقض، لنصل إلى إجابة السؤال المحوري: هل يمكن أن تكون: السلفية هي الحل؟!! وهل يمكن أن تستمر السلفية كسلفية بعد هذه التحولات والتغيرات والتنازلات؟! ولأن الاكتفاء بالنقد والنقض بدون التعريف بالبديل هو نوع من الهدم، ولأنه ليس ثمة نهضة بدون تمسك بالأصول، سنحاول قدر الإمكان أن نفرق للقارئ بين الأصل الإلهي الثابت الذي يجب ويجب ثم يجب على الأمة التمسك به لتحقيق النهضة المادية قبل الخلقية والفكرية، وبين التطبيق البشري، الذي يمكن التمسك به أو التنازل عنه، تبعاً لتغير الزمان والمكان.

ندعو الله العليم الحكيم الحليم أن يجنبنا الزلل والخلل وأن يجعلنا هداة مهديين لا ضالين ولا مضلين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

العبد الفقير إلى عفو ربه: عمرو الشاعر

الباب الأول

التعريف بالسلفية

"السلف" في القرآن والسنة

الناظر في كتاب الله العزيز يجد أنه ما من ذكر ل"السلف" في أيٍ من آياته، وإنما ذُكر الاسم "سَلَف" منكرا في موطن واحد، وهو قوله سبحانه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾ [سورة الزخرف, ٥٦]، وذُكر الفعل فعل: "سَلَف" في مواطن خمسة، تدور في فلك غفران ما مر وانقضى إذا أقلع عن فعله أو كان صدور ذلك منه قبل المنع: ﴿... وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ... ٢٧٥﴾ [سورة البقرة, ٢٧٥]، ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ ... ٢٢﴾ [سورة النساء, ٢٢]، ﴿... وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾ [سورة النساء, ٢٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ ... عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾ [سورة المائدة, ٩٥]، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾ [سورة الأنفال, ٣٨]، وذُكر الفعل "أسلف" في موطنين اثنين: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾ [سورة يونس, ٣٠]، ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ٢٤﴾ [سورة الحاقّة, ٢٤]

فإذا انتقلنا إلى أحاديث الرسول وجدنا أن الحال لا يختلف عن القرآن، لأنه من غير المقبول ولا المعقول أن يتحدث عنهم باعتبارهم "سلف"، لأن المرء لا يكون سلفاً في حياته، وإنما يكون كذلك للأجيال التي تأتي بعده، وورودها منسوبة إلى الرسول هو مثل تلك الأنشودة الحمقاء التي يُفترض أن المصريين القدماء كانوا يقولونها: "نحن القدماء المصريين"!! ولم ترد الكلمة إلا في رواية واحدة رواها البخاري ومسلم وغيرهما، وهي قول النبي الكريم لابنته فاطمة، -واللفظ لمسلم-: "وَلَا أُرَانِي إِلَّا قَدْ

حَضَرَ أَجَلِي وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لُحُوقًا بِي وَنِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ[1]"

ولا يزيد الأمر هنا عن كونه سابقا لها، فإذا تركنا أقوال النبي وانتقلنا إلى الصحابة وجدنا رواية منسوبة لابن عباس تقول: "عن ميمون بن مهران قال: صحبت ابن عباس رضي الله عنهما عشرين سنة، فلما حضرته الوفاة قلت له: أوصني. قال: «أوصيك بثلاث خصال فاحفظهم عني: لا تخاصم أهل القدر فيؤثموك، ولا تعلم النجوم فيدعوك إلى الكهانة، ولا تسب السلف فيكبك الله تعالى على وجهك في النار[2]»" اهـ

وهنا ينهاه ابن عباس عن سب السلف أي الصحابة حتى لا يُكب في النار، وهذا يعني بداهة وجود هذا الأمر كظاهرة في ذلك الزمان من طوائف بعينها، لذا ورد النهي عنه! وما عدا ذلك فثمة رواية عن أفرادٍ من التابعين أو تابعيهم تتحدث عن أن السلف كانوا يحبون كذا أو يفعلون كذا ومن ثم فهي غير صادرة عنهم.

السلف في اللغة

الناظر في التأصيل السلفي لذاته يجده ينطلق من منطلق أن السلف هم السابقون المتقدمون، فيعتمدون ما قاله اللغويون مثل ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: "السين واللام والفاء أصلٌ يدلُّ على تقدُّم وسبْق. من ذلك السلف: الذين مضَوا.[3]"، وتبعاً لهذا التعريف فإن كل المتقدمين السابقين هم سلف، وكل الأجيال سلف لما بعدها، ومن ثم فلا تميز للأجيال الأولى للمسلمين، لذا فإنهم يعدون استعمالهم للمفردة من باب الاستعمال الاصطلاحي، فيقولون أن السلف في عرفهم هم الصحابة ابتداء ويشاركهم التابعون وتابعوهم من الأئمة تبعا وإتباعا، أي هم القرون الثلاثة الأولى للمسلمين، ثم يكون بعد ذلك الخلف وهم الأجيال التالية لهم إلى قيام الساعة فلا

[1] مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، الجزء الرابع، ص. 1904.

[2] محمد بن إسحاق الفاكهي، أخبار مكة، الجزء الثاني، ص. 345.

[3] أحمد بن فارس، معجم: مقاييس اللغة، الجزء الثالث، ص. 95.

يُنازعون السابقين في هذه التسمية، فهي حكر خاص بهم.

إلا أن الناظر في القرآن يجد أن هذا المدلول اللغوي غير دقيق، فالله تعالى قال في حق قوم فرعون لمّا أغرقهم: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الزخرف, ٥٦]، ولو كان السلف هم الماضين لما كان هناك حاجة لجعلهم، فمجرد كونهم سابقين كافٍ للحكم بأنهم سلف! ومن ثم فمن الممكن أن تكون هناك أقوام سابقة لأقوام ولا تكون سلفاً لها. لذا ننظر في باقي استعمالات "س ل ف" لنصل إلى فهم أدق للمفردة، فنجد ابن منظور يقول في لسان العرب: "... السلَفُ على معان: السَّلَفُ القَرْضُ والسَّلَم، ومصدر سَلَفَ سَلَفاً مضى، والسَّلَفُ أَيضاً كلُّ عملٍ قدَّمه العبدُ، والسَّلَفُ القوم المتقدّمون في السير؛ قال قيس بن الخطيم: لو عَرّجُوا ساعةً نُسائِلُهُمْ، رَيْثَ يُضَحّي جِمالَه السَّلَفُ والسَّلُوفُ: الناقةُ تكون في أَوائل الإبل إذا وردت الماء. ويقال: سَلَفَت الناقةُ سُلُوفاً تقدّمت في أَول الوِرْد. والسَّلُوفُ: السريع من الخيل. (...) السَّلَفُ نوع من البيوع يُعَجَّل فيه الثمن وتضبط السِّلْعةُ بالوصف إلى أَجل معلوم، (...) وللسَّلَف مَعْنيان آخران: أَحدهما أَن كل شيء قدَّمه العبدُ من عمل صالح أَو ولد فَرَط يُقَدِّمه، فهو له سَلَفٌ، وقد سَلَفَ له عمل صالح، والسلَفُ أَيضاً: من تقدَّمَك من آبائك وذوي قَرابَتِك الذين هم فوقَك في السنِّ والفَضْل، (...) وفي الدعاء للميت: واجعله سلَفاً لنا (...) وسُلافُ الخمر وسُلافَتُها: أَوَّل ما يُعْصَر منها، وقيل: هو ما سال من غير عصر، وقيل: هو أَوَّلُ ما ينزل منها، وقيل: السُلافةُ أَوَّلُ كل شيء عُصِر (...)[4]" اهـ

ونخرج من هذه الأمثلة بأن السلف (القريب مبنى من: السلخ، والذي هو معكوس: الفلس، الدال على عدم النوال والإخفاق في طلبَ الشيء) هو: السابق (المنفصل عن) أقرانه في الوصول إلى الغاية أو في تحقيق الهدف.

ومن ثم يمكننا القول بطريقة أخرى أن السلف هم السابقون الأوائل المتصدرون، أو

[4] جمال الدين بن منظور، معجم: لسان العرب، الجزء الثالث، ص.2069.

العينة/ الطرح/ الثمرة الأولى للشيء، التي سبقت غيرها، وما بعدها ليس بسلف، لأنه لم يحز قصب السبق.

وبهذا نفهم كيف جعل الله قوم فرعون المغرقين سلفاً للآخرين، فهو جعلهم نموذجاً/ عينة أولى سابقة لقوم نزل بهم العذاب. (ونلاحظ أن الله قال: سلفاً. ولم يقل: السلف)، ومن ثم فاستعمال: السلف حصراً مع الأجيال الأولى للمسلمين ليس من باب الاستعمال الاصطلاحي وإنما هو استعمال لغوي سليم.

هل السلفية فرقة؟

تُعد السلفية كائناً هلامياً مترامي الأطراف، ينتشر انتشاراً جغرافياً عريضا، فأتباعه موجودون تقريباً في كل مدينة بل وقرية في الدول الإسلامية، وليس له قيادات محددة لأنه ليس تنظيماً. ولا يحتاج المرء لكي يصبح سلفياً لأي إجراءات مثل حلف يمين ولاء أو ما شابه، وإنما يكفي إعلان قبول الالتزام بالكتاب والسنة على فهم السلف، والذي سيترتب عليه بعض التغيرات الشكلية، وبعدها يصبح المرء سلفياً.

ويرى أتباع المنهج السلفي أن السلفية ليست فرقة كباقي الفرق، وإنما هي منهج في فهم الإسلام (ولا يمنع هذا من اعتقاد السلفيين أنهم الفرقة الناجية!)، وأن هذا هو المنهج الأصيل في فهم الإسلام وتطبيقه، فيقولون: "السلفية هي منهجٌ في طريق السير على هدي الإسلام: فحين تتفاوت الأفهام في تفسير الإسلام ومعرفة أحكامه وتحديد المنهجية الصحيحة فيه تأتي السلفية معتمدة على منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم؛ فهم خير هذه الأمة، وأزكاها ديناً، وأعلاها مقاماً، وأعمقها فهماً، وأعلمها بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم؛ فمن اجتهد في سلوك طريقهم فهو سلفي أيّاً ما كانت الجماعة التي ينتمي إليها. يرتكز قوام السلفية على احترام هذا الجيل الإسلامي الفريد والاقتداء به، وتربية النفس والأجيال على تقديرهم وبيان

فضلهم؛ ليس تنزيهاً لهم عن الخطأ؛ بل استهداء بفهمهم وسيرٌ على خطاهم. تسير السلفية على خطا هؤلاء الأسلاف في ما أجمعوا عليه، وعلى اتِّباع منهجيتهم في التلقي ومصادر الاستدلال وكيفيته، وفي مسالك التعبد والأخلاق؛ فهم أَوْلى الناس بالحق فلن يخرج الحق عن قولهم إن أجمعوا، ولا عن أقوالهم إن اختلفوا.[5]" ا.هـ

فالصحابة –من وجهة نظرهم– هم خير جيل فهم الإسلام وطبقه، ومن ثم فإن الحق محصور بين أقوال الصحابة، فإذا اختلف الصحابة على قولين مثلاً، كان الحق في أحد هذين القولين لا ثالث لهما، ولا عبرة بمن جاء بعد عصر الصحابة مهما علا كعبه في العلم والفقه والورع، وأمّا إذا أجمع الصحابة على قول فهو الحق الذي لا ريب فيه.

ومن ثم فلا مؤسس للمنهج السلفي، ويعدون السؤال عن مؤسسه غير منضبط، لأن السلفية منهج الإسلام ليست من صنع البشر، فهي فهم القرآن والسنة بفهم الصحابة وتابعيهم بإحسان إلي يوم الدين، ومن ثم فمؤسس المنهج السلفي هو الرسول محمد بن عبد الله، لأنه هو الذي وضع الأسس التي يجب أن يسير عليها المسلم في فهم الكتاب والسنة.

ومن ثم فأتباع المنهج السلفي لا يرون أنفسهم جماعة من الجماعات العاملة على الساحة، وإنما يرون أنفسهم –كما أفتى أحد كبار مشائخهم: صالح الفوزان– أن "الجماعة السلفية هي الجماعة التي على الحق –وهي التي يجب الانتماء إليها والعمل معها والانتساب إليها، وما عداها من الجماعات فإنها لا يعتبر بها، لأنها تخالف هدي السلف الصالح – مخالفة لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه."

[5] فهد بن صالح العجلان، مجلة البيان، العدد: 287، مقال بعنوان: السلفية ... منهج أم جماعة؟

هل السلفية بدعة؟

كما بيّنا سابقاً فإن مفردة "السلف" لم ترد لا في الكتاب ولا في السنة، ومن ثم أُنكر على السلفيين التسمي بها، لأن الله تعالى ارتضى لنا اسم: المسلمين، ومن ثم علينا الاكتفاء به: ﴿... مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ... ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الحج ,٧٨]، وهي تسمية لا أصل لها، ومن ثم فهي بدعة. إلا أنهم لا يرونها ببدعة ويرون أن الاكتفاء ب: مسلم، كان مقبولاً قبل انتشار الفرق الإسلامية، أما مع وجود الرافضة والدروز والنصيرية والتي يدعي أتباعها الانتساب إلى الإسلام، فلا بد من وجود تسمية إضافية يتميز بها أتباع المنهج الحق، ومن ثم كان الاسم: السلفية.

إلا أنه يؤخذ على الاسم أنه يربط الحق بأفراد، ومن الممكن أن يخطأوا أو يصيبوا، ويرد الشيخ الألباني هذا الرأي قائلاً: "هذه النسبة ليست نسبة إلى شخص أو أشخاص، كما هي نِسَب جماعات أخرى موجودة اليوم على الأرض الإسلامية، هذه ليست نسبة إلى شخص ولا إلى عشرات الأشخاص، بل هذه النسبة هي نسبةٌ إلى العصمة، ذلك لأن السلف الصالح يستحيل أن يجمعوا على ضلالة، وبخلاف ذلك الخلف ، فالخلف لم يأتِ في الشرع ثناء عليهم بل جاء الذم في جماهيرهم، وذلك في تمام الحديث السابق حيث قال عليه السلام: (ثم يأتي من بعدهم أقوامٌ يَشهدون ولا يُستشهدون) إلى آخر الحديث، كما أشار عليه السلام إلى ذلك في حديث آخر فيه مدحٌ لطائفةٍ من المسلمين وذمٌّ لجماهيرهم بمفهوم الحديث حيث قال عليه السلام: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله) أو (حتى تقوم الساعة)، فهذا الحديث خص المدح في آخر الزمن بطائفة، والطائفة: هي الجماعة القليلة، فإنها في اللغة: تطلق على الفرد فما فوق. فإذن إذا عرفنا هذا المعنى في السلفية وأنها تنتمي إلى جماعة السلف الصالح وأنهم العصمة فيما إذا تمسك المسلم بما كان عليه هؤلاء السلف الصالح حينئذٍ يأتي الأمر الثاني الذي أشرتُ إليه آنفاً ألا وهو أن كل مسلم يعرف حينذاك هذه النسبة وإلى ماذا ترمي

من العصمة فيستحيل عليه بعد هذا العلم والبيان أن –لا أقول: أن– يتبرأ، هذا أمرٌ بدهي، لكني أقول: يستحيل عليه إلا أن يكون سلفياً، لأننا فهمنا أن الانتساب إلى السلفية، يعني: الانتساب إلى العصمة[6]" اهـ

ومن ثم فإن السلفية من وجهة نظرهم هي مرادف لإتباع الهدي النبوي، وإنكار التسمية مساوٍ لإنكار القول ب: أنا مسلم. وهي ما يجب أن يكون عليه المسلم، وإن لم تحمل نفس الاسم منذ بداية الإسلام، فكان السائرون على منهج وعقيدة الصحابة من رجال الحديث في عهد التابعين: بـ"أهل الحديث."، ومع انتشار مبادئهم وأفكارهم ولكي يتميزوا عن "أهل البدع" من المعتزلة، والخوارج، والمرجئة، والرافضة، ونحوِهم، تسموا في تابعي التابعين بـ"أهل السنة والجماعة"، ولأن مصطلح: أهل السنة والجماعة شمل العديد من التوجهات التي لم تقتصر على منهج أهل الحديث، وإنما شملت مناهج أخرى مثل منهج الأشاعرة، ولما حاول الخلف من الأشاعرة نصرة العقيدة بالمنهج العقلي، تسمى المتمسكون بمنهج السلف ب "السلفيين". ويمكن القول أن مصطلح السلفية ظهر في مصر إبان الاحتلال الإنجليزي مع حركة الإصلاح التي حمل لواءها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

الأدلة على وجوب إتباع منهج السلف

لأن الله تعالى أنزل كتابه لكل خلقه ليتدبروه، فمن المفترض أن يقوم كل مسلمٍ بهذا الدور، إلا أن السلفيين يرون أنه من الواجب على المسلم الذي يحرص على تجنب الضلال أن يلتزم الكتاب والسنة تبعاً لفهم السلف، لأنه منهج لم يكتب أصوله البشر وإنما هي منهج رباني، ويقدمون على هذا التأصيل العديد من الأدلة، نبدأ بأهمها من القرآن ثم نثني بأدلة السنة، وفي هذا يقول أحمد محمد النجار: "وقد دل على وجوب

[6] الفتوى الثانية من الشريط الأول من سلسلة الهدى والنور للألباني، من موقع:http://www.fatawa-alalbany.com

إتباع السلف: الكتاب والسنة والإجماع وأقوال الصحابة ومن اتبعهم بإحسان. **أولاً**: من الكتاب الكريم: قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [سورة النساء, ١١٥] توعد الله عز وجل في هذه الآية الكريمة من شاق الرسول (ص)، واتبع غير سبيل المؤمنين بالعذاب الأليم، فدلّ على أن إتباع سبيلهم واجبٌ متعين. ومشاقة الرسول(ص) وإتباع غير سبيل المؤمنين متلازمان، وكلٌ من الوصفين يقتضي الوعيد، لأن كلاً منهما مستلزم للآخر. (...) ومن الأدلة: ﴿... وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ ... ١٥﴾ [سورة لقمان, ١٥]، قال ابن القيم رحمه الله: "وكلٌ من الصحابة منيبٌ إلى الله فيجب إتباع سبيله. وأقواله واعتقاداته من أكبر سبيله، والدليل على أنهم منيبون إلى تعالى: أن الله تعالى قد هداهم وقد قال: "... وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ [سورة الشورى, ١٣][7] " اهـ

كما يستدلون بأدلة أخرى من القرآن، مثل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [سورة التوبة, ١٠٠] و﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾ [سورة البقرة, ١٣٧] و﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ... ١٤٣﴾ [سورة البقرة, ١٤٣]، وتعتمد الأدلة كلها على أن الله مدح الصحابة وزكاهم ومدح من اتبع سبيلهم وسار على هديهم، وذم من خالفهم، فهذا يؤكد وجوب الاقتداء بهم رضوان الله عليهم.

كما يستدلون بأدلة من السنة، مثل حديث الفرقة، والذي جاء بصيغ عديدة، منها ما رواه أبو داود في سننه: "عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ: أَنَّهُ قَامَ فِينَا فَقَالَ: أَلَا إِنَّ رَسُولَ

[7] أحمد محمد النجار، فصل المقال في وجوب إتباع السلف الكرام، ص: 32–34.

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ فِينَا فَقَالَ: أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ.[8]"

وما رواه ابن ماجه: "عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَافْتَرَقَتْ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: الْجَمَاعَةُ.[9]" ولكي يتجنب المسلم الضلال فعليه أن يتمسك بالنهج الصالح والذي هو نهج الصحابة ومن تابعهم، والذين قال النبي في حقهم أنهم خير الناس، كما روى مسلم وغيره: "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَبْدُرُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَتَبْدُرُ يَمِينُهُ شَهَادَتَهُ.[10]" والذين روي عن الرسول في حقهم أنهم أمنة لأمته، كما جاء عند مسلم وغيره: "عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ قَالَ: فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ. قَالَ أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ. قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ. فَقَالَ: النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ[11]"

فالمفترض أن يُقتدى بالصحابة رضوان الله عليهم للنجاة من ظلمات الشبهات

[8] سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، الجزء الثاني، ص.608.

[9] ابن ماجة أبو عبد الله محمد، سنن بن ماجة، الجزء الخامس، ص.128.

[10] مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، الجزء الرابع، ص. 1962.

[11] المرجع السابق، ص. 1961.

والشهوات، فمن خالفهم فهو يتردى في ظلمات التأويلات والضلالات.

كما يستدلون بحديث التمسك بسنة النبي والخلفاء، والذي رواه الترمذي وغيره: "عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ[12]".

كما يستدلون بأقوال للصحابة والتابعين وتابعيهم، أشهرها ما رواه أبو نعيم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب: "مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَقْلِ دِينِهِ، فَتَشَبَّهُوا بِأَخْلاقِهِمْ وَطَرَائِقِهِمْ فَهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ[13]" اهـ

وما روي عن الإمام مالك: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

أصول المنهج السلفي

ترتكز السلفية كمنهج متميز عن غيره على عدد من القواعد التي تُعتبر كأصول للمنهج يقوم عليها، وفي هذا يقول الشيخ عيد عباسي:"هناك أمور هامة وأصول أساسية تركز عليها الدعوة السلفية، وهذه الأمور هي:

(12) محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، الجزء الخامس، ص. 44.

(13) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، الجزء الأول، ص.305-306.

1- التوحيد:

(أ) **توحيد الربوبية: (...) فالدعوة السلفية تهتم بتبيين التوحيد الصحيح الذي يكون الناس أحوج ما يكونون إليه، وهو ما استخلصه العلماء المحققون من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، من أن هناك ثلاثة أنواع للتوحيد، التوحيد الموضح سابقاً، وقد اصطلحوا عليه بأن توحيد الربوبية أي الإيمان بأن لهذا الكون خالقاً رازقاً متصفاً بصفات الكمال. (...) (ب) توحيد الإلوهية: أما توحيد الإلوهية فهو أيضاً بصورة إجمالية أن يخص المسلم أنماط العبادة كلها لله عز وجل، هذا الخالق المدبر الذي آمن به، (...) (ج) توحيد الأسماء والصفات: النوع الثالث من أنواع التوحيد الذي يجهله أيضاً كثير من المسلمين ويخالفون مضمونه ويشركون بالله فيه هو توحيد الصفات، وهو اعتقاد أن أحداً يشارك الله في صفة من صفاته، الله من صفاته أنه يعلم الغيب، فحينما يعتقد إنسان أن بشراً من البشر يعلم الغيب كما يعتقد الصوفية أن شيوخهم مكاشفون فيعلمون ما في نفسك ويطلعون على أحوالك لو كنت في مشرق الأرض وهم في مغربها فهذا بلا شك شرك في الصفات.[14]" اهـ**

فلأن السلفيين يرون أن الإيمان الصحيح هو الأساس، وأساس الإيمان هو التوحيد، يركزون على التعريف بوحدانية الله، وكيف أن لله أسماء وصفات أثبتها لنفسه في القرآن وفي السنة فيثبتون لله كل ما أثبته لنفسه في القرآن والسنة الصحيحة من الأسماء والصفات. ويوجبون الإيمان بها كلها، وإمرارها على ظاهرها معرضين فيها عن التأويل، مجتنبين التشبيه والتعطيل، كما يؤمنون بأن لله وحده سبحانه وليس لأحد سواه حق التشريع للبشر.

2- الإتباع:

والأصل الثاني للمنهج السلفي هو الإتباع، وفي هذا يقول عبد الرحمن بن عبد الخالق في كتابه: "الأصول العلمية للدعوة السلفية": "بعد أن يعلم السائر في المنهج السلفي

---

[14] عيد عباسي، الدعوة السلفية وموقفها من الحركات الأخرى، ص: 15-18.

توحيد الله سبحانه وتعالى حسب أركانه السالفة؛ فإنه يتوجب عليه إفراد الرسول صلى الله عليه وسلم بالإتباع، وذلك تحقيقاً لقوله: "أشهد أن محمداً رسول الله". وهذه الشهادة لا تكون كاملة إلا بالأمور الآتية: أولا: أن يعلم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول مبلغ عن ربه جل وعلا، وأنه قد جاء بوحيين: الأول كتاب الله القرآن. الثاني: سنته صلى الله عليه وسلم. وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: [ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه] (رواه أبو داود وغيره بسند صحيح). فكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل كلام الله تعالى؛ سواء في الاعتقاد والعمل والقبول؛ لأن هذا وهذا من الله سبحانه وتعالى، والرسول لا يأمر ولا ينهى ولا يحرم ولا يحل في أمور الدين بشيء من عند نفسه، بل بأمر الله سبحانه وتعالى، ولا يخبر بشيء من الغيب إلا بوحي منه جل وعلا؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾] سورة الحاقة, ٤٤-٤٦[. (...) رابعاً: لا تكمل هذه المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم؛ إلا بكمال الحب له. كما قال صلى الله عليه وسلم: [لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده والناس أجمعين] (متفق عليه). ومما يعين على هذا الحب: التزام أمره دائماً، والمسارعة في طاعته، وتقديم قوله على كل قول، وتذكر مواقفه ومشاهده، ومدارسة سنته وسيرته صلوات الله وسلامه عليه. (...) والمنهج السلفي لفهم الإسلام والعمل به يضع نصب عينه تذليل هذه العقبات التي حالت بين الناس ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك بأن ينادي دائماً بالقول بتحريم التقليد، ويوجب على كل مسلم السؤال عن القول بدليله من الكتاب والسنة. ولا يعنى هذا أننا نوجب على كل أحد أن يكون مجتهداً، لا؛ إنما نأمر كل أحد بأن يكون متبعاً للدليل، باحثاً عن الحجة من كتاب ربه أو سنة نبيه." اهـ

3– التزكية:

الأصل الثالث للسلفية هو التزكية، والتي هي من أهم الأسباب التي من أجلها أُرسلت الرسل وأُنزلت الكتب، وهم يرون أن مجموع أعمال الدين وعباداته وعقائده وآدابه

بهيئتها المشروعة كافية لتزكية النفس وتطهيرها، ويعترضون –عن حق– على المسلك الصوفي في تزكية النفس، وفي هذا يقول الشيخ عيد عباسي: "هذه المسألة قد شاع بين المتأخرين فيها طريقة المتصوفة، هؤلاء الذين يعتمدون في تزكية النفوس على المجاهدات الروحية والوسائل النفسية، وما أحدثه مشايخهم في أمور ادعوا أنها توصلهم إلى الله، وقد اعتمدوا فيها على غير ما جاءهم عن رسول الله (ص). هؤلاء المتصوفة كما يقال عنهم الحق يقال إن أول درجات التصوف ابتداع وآخره زندقة، وأول ما يدخل الإنسان الصوفية لا بد أن يقوم ببعض البدع.[15]" اهـ

فالإدعاء أن أفعال بعينها أو أذكار بذاتها ذات تأثير مخصوص أو أن طعاماً بعينه ذو تأثير معين، أو السعي للوصول إلى الفتوحات والمكاشفات فكل هذا تعذيب للنفس ووساوس شيطانية مأخوذة من مذاهب فلسفية غير إسلامية.

4– محاربة البدع:

تحرص السلفية على الحفاظ على نقاء الدين والقضاء على المحدثات التي تشوه جماله وتكدر صفوه، ويستندون في ذلك إلى أن الدين تم وأُكمل: ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ... ٣﴾] سورة المائدة ,٣[، وبما روي عن النبي في حديث التمسك بسنة الخلفاء الراشدين: "وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ". إلا أن وجود البدعة لا يعني رمي صاحبها بالابتداع، وإنما يعمل السلفيون على إقامة الحُجة على مرتكبها، لأنه من الممكن أن يكون قد ارتكبها بدون علم، فيقيمون الحجة لأن دورهم الدعوة والإنذار، فإن لم يستجب فقد أعذروا إلى الله بأن عرفوا بالصواب وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر.

[15] المرجع السابق، ص.24.

مُنَظِّرو السلفية

كما بيّنا سابقاً فإن السلفيين لا يعتبرون السلفية مذهباً ويرفضون التقليد ويدعون إلى الأخذ من الكتاب والسنة بأفهام التابعين، إلا أن هناك من أصّل لهذا المنهج ودافع عنه، فمن هم هؤلاء المؤسسون؟ تعتبَر السلفية امتداداً لمدرسة أهل الحديث التي ظهرت في العصر العباسي، والتي يُعد مُنظرها الأكبر الإمام أحمد بن حنبل، الذي "دعا إلى إسلام العرب الأولين، إسلام المجتمع العربي البسيط، إسلام النصوص والمأثورات، وبهذه العقائد، ومن خلفه الجمهور صارع المتكلمين، والكلام والفلسفة والرأي والقياس والتأويل، وصمد للمحنة الشهيرة عندما امتُحن[16]" ثم واصل مسيرته تلاميذه من بعده، وأهمهم: عمر بن حسين الخرقي وأبو بكر عبد العزيز بن جعفر، إلا أنها لم يُكتب لها الانتشار بسبب أُطرها الفكرية وبسبب مسلك حامليها أنفسهم.

"أما الظهور الثاني للسلفية الأولى فكان على يد ابن تيمية الحراني (ت: 728 هـ) عند نهاية الخلافة العباسية، وعقيب سقوط بغداد عام 656 هـ. حيث يُحمّل ابن تيمية أهل البدع –على حد تعبيره– من جهمية وقدرية وباطنية، وصوفية وفلاسفة مسؤولية السقوط، ويشن عليهم حملة عنيفة، داعياً إلى إحياء عقيدة السلف ومنهجهم فيتبعه نفر كثير.

ويمكننا القول أن السلفية الأولى بلغت مع ابن تيمية أوج نضوجها واكتمالها، وغاية مداها، ومعه اتخذ المنهج السلفي صورته البينة التي أبانت عن قواعده وقضاياه بصورة حاسمة، وحددت الطريق لكل الذي جاءوا من بعده، أما آراؤه في الإيمان والكفر والقتال فستجعلها الجماعات الإسلامية المعاصرة –من السلفية الجهادية– عمدة حراكها، وسنداً لفعلها المباشر. فابن تيمية هو الذي أصّل الأصول وقعّد القواعد للسلفية، فهو بحق المُنظر، والمشيد للبنيان القاعدي لأفكارها.[17]" اهـ

---

[16] محمد عمارة، السلفية، ص. 16.

[17] كريم السراجي، الأسس الدينية للاتجاهات السلفية، ص: 57–58.

وسُجن الإمام ابن تيمية بسبب آراءه أكثر من مرة، إلا أن بعض معاصريه أصبحوا في عداد التلاميذ له، الذين يحملون فكره ويدافعون عنه وينشرونه، مثل تلميذه الأول: ابن قيم الجوزية وكذلك الإمام ابن كثير والإمام الذهبي.

إلا أن السلفية ضعفت بعد هؤلاء الأئمة الكبار، حتى ظهر شاب متحمس في القرن الثاني عشر الهجري رأى مفاسد عظيمة تُرتكب في بلاد المسلمين ورأى تقليداً فقهيا وجمودا وتعصباً للمشائخ، فحاول أن يصحح ويصلح، ورأى أن خير وسيلة للإصلاح هي إتباع منهج السلف، وذلك الشاب هو "محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، نشأ في بلد العينية من بلاد نجد، قرأ الفقه على مذهب أحمد بن حنبل[18]"، وأخذ في إنكار المنكر، مما اضطره إلى التنقل من مكان إلى آخر، حتى استقر في الدرعية والتي كان حاكمها في ذلك الوقت محمد بن سعود، فأقنعه بآرائه وحثّه على قتال القبائل الحجازية الأخرى! نصرة للتوحيد وقضاءً على الشركيات.

وبهذا التحالف توسع ملك آل سعود، وأصبحت السلفية هي المذهب الرسمي للمملكة السعودية –التي ستؤسس لاحقا– والتي تسعى لتعميمه ونشره في جميع أنحاء البسيطة.

أبرز شيوخ السلفية المعاصرين

ظل المنهج السلفي محصوراً في جزيرة العرب لفترة تزيد على القرنين، لأنه لم يكن ثمة عوامل مادية تساعد على انتشاره، ومع ظهور النفط ونزوح الكثير من المسلمين للعمل في المملكة السعودية ووجود فائض مادي تعمل به المملكة على نشر الدين الصحيح –من منظورها–، انتشر المنهج السلفي في جميع الدول العربية وكثير من الدول الغربية .. والشرقية!

---

[18] حسين أبو علي، الوهابية: جذورها التاريخية، ص. 47.

ونذكر هنا أهم شيوخ السلفية المعاصرين في الدول العربية والذين توفى بعضهم إلا أن أفكارهم وتلاميذهم باقية، ونبدأ بالسعودية حاضنة المنهج: محمد بن صالح آل عثيمين، وعبد العزيز بن باز، وصالح الفوزان وربيع بن هادي المدخلي وعبد الرحمن بن ناصر السعدي وعبد العزيز آل الشيخ وعبد الرحمن البراك، وعبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين، وعبد العزيز الراجحي ومحمد صالح المنجد، ومحمد بن إبراهيم آل الشيخ.

ونُثني بأبرز شيوخ السلفية في مصر: أبو إسحاق الحويني ومصطفى العدوي وياسر برهامي ومحمد إسماعيل المقدم، وجمال المراكبي، وأحمد محمد شاكر وأحمد حطيبة، ومحمد حسان ومحمد حسين يعقوب ومحمد عبد المقصود، ومحمد الزغبي.
ونُثلث بأهم مشائخ السلفية في الشام: محمد ناصر الدين الألباني –الأصل– وعبد القادر الأرناؤوط في سورية، وعمر بن سليمان الأشقر وعلي بن حسن الحلبي الأثري وأبو محمد المقدسي في الأردن.

ونربع باليمن: يُعد الإمام الشوكاني رحمه الله –وإن لم يكن معاصراً– المؤصل الأكبر للسلفية في اليمن، ومن المعاصرين: عبد المجيد الزنداني ومقبل بن هادي الوادعي ويحيى بن علي الحجوري.

ونُخمس بأبرز المشائخ في بلاد المغرب العربي: عبد الله بن إدريس السنوسي وتقي الدين الهلال في المغرب، ومحمد الأمين الشنقيطي في موريتانيا وابن باديس في الجزائر، والخطيب الإدريسي في تونس. وفي بلاد الهند: محمد صديق حسن خان القنوجي وإسماعيل بن عبد الغني الدهلوي، صفي الرحمن المباركفوري، وإحسان إلهي ظهير (باكستان). وفي الكويت: يمكن القول أنها ظهرت في الكويت على يد الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق، ثم انقسمت إلى عدة جماعات. وفي العراق: علي علاء الدين الألوسي ومحمد بهجت الأثري.

وأتباع السلفية وإن كانوا يصرون على أنها سلفية واحدة، وأنها ليست فِرقا متعددة، إلا

أنه لاختلاف مشائخهم في اجتهاداتهم، وإتباع كل جماعة منهم لشيخ معين، ظهرت أسماء مثل: "السلفية الألبانية" نسبة إلى الشيخ الألباني، و: "السلفية الجامية" نسبة إلى الشيخ: محمد بن أمان الجامي –الأثيوبي الأصل الحبشة–، و: "المداخلة" نسبة إلى: ربيع بن هادي المدخلي، والذي يعد كشريك للجامي في التأصيل لمبادئه "الجامية"، و"الحلبية" نسبة إلى: علي الحلبي. كما يُسمى بعضهم ب: "حواليين" نسبةً إلى الشيخ: سفر الحوالي، و: "عواديين" نسبة إلى الشيخ: سلمان العودة، وغير ذلك من الأسماء.

إلا أن الملاحظ أنهم يقبلون باسم "الجماعة السلفية"، وهي إشارة إلى التجمع ورفض التفرق.

السلفية الجهادية

على الرغم من تعدد الآراء بين مشائخ السلفية وأتباعهم، وعلى الرغم من تميز كل جماعة باسم شيخها الأكبر، إلا أنه يمكن جمعهم كلهم تحت منهج واحد يُعرف ب: "السلفية العِلمية"، والتي يمكن اعتبارها "سلفية تنظيرية"، تُعرف بالحق وتدعو إليه وتنكر المنكر ... باللسان، وتأخذ موقفاً معروفا من الحاكم الجائر الظالم، وهو: "تحريم الخروج على طاعة ولي الأمر إذا أخطأ أو ظلم، وإنما الواجب كما يقول هؤلاء هو نصيحته والدعاء له بالصلاح، وحتى هذه النصيحة يجب أن لا تكون بالعلن وإنما تكون بالسر اعتمادا لحديث الإمام أحمد عن عياض وهو الحديث الذي يحدد طريقة إسداء النصيحة فيقول: "من أراد أن ينصح لذي سلطان بأمر فلا يبد له علانية[19]" اهـ

وعلى المسلم في مثل هذه المواقف الصبر، ولهذا عدّ علماء السلفية المظاهرات وما شابه من الأمور غير الجائزة، التي تخالف مبدأ الطاعة في المعروف والصبر على

(19) صلاح الفضلي، مقال بعنوان: التيار السلفي الجهادي، مجلة: الطليعة، عدد: 15 نوفمبر 2003.

الحكام، وتقديم للحقوق الخاصة على العامة! "فالسلفيون لا يرون المظاهرات ولا يؤيدون التجمعات والاعتصامات التي هي مظهر من مظاهر الخوارج، ومعلوم أن جمع الناس وإثارتهم من مقدمات الخروج على ولي الأمر ونزعٌ لهيبة النظام، فتصبح الدول عرضة وشهوة للطامعين، ولذا المعارضة مرفوضة، ولا خير في قسمة المجتمع إلى قسمين أو جناحين، جناح المؤيدين وجناح المعارضين.[20]" اهـ

بينما تختلف السلفية الجهادية في قولها بجواز الخروج على الحاكم الظالم، وجواز الجهاد خلف السلطان أو بدونه، وإنكار المنكر المجمع عليه باليد. ويُرمى أصحاب هذا المنهج بأنهم خوارج العصر الحديث، بعد أن كانت قد خمدت –مع القضاء على الخوارج– كل الأصوات التي تدعو إلى إنكار المنكر باليد بدون السلطان.

وتُعد السلفية الجهادية ظاهرة حديثة في المجتمعات الإسلامية ظهرت كرد فعل للاضطهاد الشديد الذي تعرض له الإسلاميون، ولشيوع مظاهر غير إسلامية في المجتمعات المحسوبة على الإسلام، "ويُعد المودودي (ت: 1979م)، وسيد قطب (ت: 1966م) الركيزة الأساسية لهذا الاتجاه الفكري. فالمودودي أول من نظّر المسألة الحاكمية، التي من خلالها حكم على المجتمعات المسلمة بالجاهلية، معللاً ذلك بأنها لا تُطبق الشريعة الإسلامية، وعلى الأنظمة بالكفر، لأنها تحكم وفق القانون الوضعي، وعلى هذا الأساس فهو يربط بين مفهوم الوحدانية والاستخلاف ربطاً محكما، (...) أما سيد قطب فقد تأثر كثيراً بآراء المودودي وأعطى لمفاهيمه بعداً حركياً، وذهب بها إلى المدى الأقصى. (...) وقد اشتمل كتابه الموسوم ب: (معالم في الطريق) على رؤية نوعية للمجتمع وللعلاقات القائمة في إطاره، وهو يُعتبر دليل ومشروع عمل للجماعات الجهادية، ومحور رؤية سيد قطب تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض، وعلى أخص خصائص الإلوهية وهي الحاكمية.[21] " اهـ

ويُعتبر أول ظهور ل: "المجاهدين السلفيين" في حرب أفغانستان ضد السوفييت، على

---

[20] عبد العزيز بن ندى العُتيبي، من السلفيون، ولماذا يخافون السلفية؟ ص.31.

[21] كريم السراجي، الأسس الدينية للاتجاهات السلفية، ص: 83–86.

يد الشيخ عبد الله عزام، والذي كان يرى أن كل المسلمين آثمون لتركهم الجهاد، والذي كان بمثابة المعلم الأول استطاع أن يُكون مدرسة للمجاهدين لزرع حب الجهاد فيهم، ثم تلاه أسامة بن لادن، ثم الطبيب أيمن الظواهري الزعيم السابق لجماعة الجهاد المصرية.

كما ظهروا بعد ذلك في العراق لقتال المحتل الصليبي، وفي الجزائر بعد إلغاء نتيجة الانتخابات في بداية التسعينيات، فظهرت "الجماعة الإسلامية المسلحة"، والتي سينشق أحد أتباعها: "حسان حطاب" ليؤسس: "الجماعة السلفية للدعوة والقتال" في عام 1998 أو: تنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي. ويُعد موقع "منبر التوحيد والجهاد" من أشهر المواقع الإليكترونية على الشبكة المعلوماتية، التي يمكن التعرف من خلاله على الفكر الجهادي.

عقائد "جهادية"

نظراً لأن التيار السلفي الجهادي من التيارات التي تُحارَب لمواقفها المتطرفة من كل الأنظمة، فمن الصعب العسير الحصول على كتب مطبوعة له، إلا أنه من السهل الحصول على كتب إليكترونية له من الشبكة المعلوماتية، تُعرف بفكرهم وبمبادئهم، والتي لا تختلف عن السلفية العلمية إلا في نقطة واحدة تقريباً وهي مسألة الخروج على الحاكم، لذا فإن من السهل أن يتحول أي سلفي علمي إلى سلفي جهادي إذا تهاوى في ناظريه أدلة عدم الخروج على الحاكم!! ونقدم للقارئ تعريفاً بأهم عقائد الجماعات السلفية الجهادية:

1- يرون أن الرافضة (الشيعة) طائفة شرك وردة لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم.

2- إذا علت الديار الإسلامية شرائع الكفر وكانت الغلبة فيها لأحكام الكفر دون أحكام الإسلام فهي ديار كفر ، ولا يلزم هذا تكفير ساكني الديار لغياب دولة الإسلام،

بل الناس كلٌ بحسب حاله منهم المسلم ومنهم الكافر.

3- يؤمنون بأن العلمانية على اختلاف راياتها وتنوع مذاهبها – كالقومية والوطنية والشيوعية والبعثية – هي كفر بواح مناقض للإسلام مخرج من الملة.

4- يجزمون بحرمة الانتخابات بصورتها الحالية، ويأثم المسلم إن فعل، وليس للمرأة الحق في اختيار الحاكم، ويعتبرون المجالس النيابية مجالس كفرية شركية، وإن كانوا لا يكفرون كل عضو من أعضاء هذه المجالس بعينه إلا بعد انتفاء الموانع.

5- يعتبرون أي حكومة تحكم بالقوانين الوضعية حكومة كافرة يجوز الخروج عليها ومقاتلتها، وبهذا فإن كل الحكومات في البلاد الإسلامية حكومات كافرة، والحكام مرتدون كفار بأعيانهم.

6- عهد الأمان المعطى من هؤلاء الحكام الكافرين للنصارى أو الأجانب لا يُعتد به، لأن الأمان لا يعطيه الكافر.

7- يرون أن كل ما يشاع من قتل الأبرياء وتفجير الأسواق واستهداف الآمنين ما هو إلا تشويه لصورة المجاهدين، وهم منه براء، وأن كل التفجيرات التي تحصل في المدنيين المسلمين في الشوارع والأسواق هي من فعل الصليبيين واليهود وأعوانهم.

ظهور السلفية في مصر

يمكننا القول أن السلفية كانت موجودة في مصر منذ عدد من القرون، إلا أنها لم تكن تحمل اسم السلفية، وإنما كان يُعرف أتباعها بالسنيين، وأخذت تنظيماتها أسماء متنوعة، مثل: "الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة"، والتي أسسها محمود خطاب السبكي في نهايات القرن التاسع عشر وأشهرها في بدايات القرن العشرين، وكان دافعه لذلك الحالة السيئة التي آلت إليها مصر والتي نتج عنها تهميش

وتنحية الشريعة الإسلامية عن الحياة العامة، وكان من أهم دوافعه تنقية الدين من البدع والخرافات ومكافحة القبورية والقبوريين. وقامت الجمعية بتنفيذ مشروعات ضخمة كالمستشفيات والمعاهد الدينية والمراكز التعليمية، وينتمي لها بعض علماء الأزهر.

وكذلك: "جماعة أنصار السنة المحمدية"، والتي أسسها الشيخ محمد حامد الفقي في عام 1926، ولا تزال نشطة حتى الآن، وتصدر شهرياً مجلة "التوحيد"، والتي تتميز بابتعادها عن الحديث في مجال السياسة، ومن أشهر مشائخهم: الدكتور جمال المراكبي والشيخ عبد الرزاق عفيفى والشيخ صفوت نور الدين، والشيخ عبد الرزاق حمزة عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية سابقا، والشيخ أبو الوفا درويش رئيس فرع الجماعة بسوهاج، والدكتور محمد خليل هراس أستاذ العقيدة بجامعة الأزهر، والدكتور عبد الله شاكر رئيس الجماعة الحالى وأبو بكر الحنبلى ووحيد عبد السلام بالى، والثلاثي الشهير: محمد حسان، ومحمد حسين يعقوب، وأبو إسحاق الحوينى وهم أعضاء بمجلس شورى الجماعة، ويلاحَظ أن جماعة أنصار السنة والجمعية الشرعية لم يعد لهما نفس التأثير ولا الشعبية عند عامة الشباب السلفي.

أما الظهور الفعلي ل: "السلفية" بالاسم فكان في منتصف السبعينات، وفي هذا يقول عبد المنعم منيب: "في منتصف السبعينات أنشأ مجموعة من قادة الحركة الطلابية الإسلامية في عدد من جامعات مصر تيار السلفية العلمية لكن كان ثقلها الرئيسي في جامعة الإسكندرية، حيث قادها من هناك و إلى جميع أنحاء مصر: محمد إسماعيل المقدم وسعيد عبد العظيم وأبو إدريس وأحمد فريد و غيرهم.

وكان من أبرز قادتها في القاهرة حينئذ عبد الفتاح الزيني، وقد رفضوا الانضمام للإخوان المسلمين عام 1978م وسموا أنفسهم المدرسة السلفية ورفضوا لفظ الأمير لاعتبارهم أنه يقتصر على إمارة الدولة ولكن أطلقوا على قائدهم أبي إدريس لقب "اسم قيم المدرسة السلفية" أسوة بالمدارس العلمية التي كانت قائمة في عصور الازدهار في

التاريخ الإسلامي، واحتدم التنافس بين "المدرسة السلفية" والإخوان على ضم الشباب والسيطرة على المساجد، (...) وظلت السلفية العلمية تطلق على نفسها اسم "المدرسة السلفية" لعدة سنوات لكنها سعيا لتطوير حركتها وإعطاءها مزيد من الحركية زاد اهتمامهم بالعمل الجماهيري وأطلقوا على منظمتهم اسم "الدعوة السلفية" وبذلك أصبح اسم "المدرسة السلفية" مجرد تاريخ. و"الدعوة السلفية" منتشرة في كل أنحاء مصر ولها أتباع كثيرون يقدرون بمئات الألوف ويطلق عليهم اختصارا اسم "السلفيين"[22]" اهـ

ومن أشهر مشائخهم: أحمد فريد وسعيد عبد العظيم ومحمد عبد الفتاح وأبو ذر القلموني، ويعد مسجد أبو حنيفة بسموحة من أشهر أماكن تجمعاتهم. ويبرز بالمنصورة الشيخ أحمد النقيب متميزاً عن غيره، والذي يميل إلى دعم التحرك الفعلي والتقريب.

كما ظهر في مصر السلفية الجامية، والتي لا تجيز الخروج على الحاكم ولو كان فاسقاً وتعد ذلك من أصول عقيدة أهل السنة والجماعة، بينما يعتبرون أن الحكم بما أنزل الله أمراً فرعيا وليس من أصول العقيدة!!! ومن أبرز مشائخهم: الشيخ أسامة القوصي والشيخ محمود لطفي عامر والشيخ علي حشيش والشيخ محمد سعيد رسلان والشيخ عبد العظيم بدوي.

ومع زيادة أعداد المشائخ السلفيين انتشرت السلفية انتشاراً كبيراً في المجتمع المصري، وإن كان لا يُعلم تحديداً كما هو عدد السلفيين، فيقدر الدكتور محمد حافظ دياب –الباحث التاريخي– عددهم بالمليون ونصف، ويقول الصوفية أن عددهم لا يزيد عن المليونيين، بينما يرى الدكتور عادل عفيفي رئيس حزب الأصالة أن عدد السلفيين في مصر يُقدر ب: ستة ملايين سلفي، وأن المجتمع المصري كله بشكل عام هو مجتمع سلفي.

---

[22] عبد المنعم منيب، خريطة الحركات الإسلامية في مصر، ص. 74.

السلفيون المصريون والثورة

اختلف موقف السلفيين من الثورة المصرية بين مؤيد ومعارض، فأيدت الجماعة السلفية بالقاهرة –والتي كانت تسمى سابقاً: بالسلفية الجهادية– المظاهرات، وكان لفتوى الشيخ محمد عبد المقصود الذي شارك فيها بنفسه، والذي أجاز فيها المشاركة في المظاهرات –باعتبارها مظاهرات وليست خروجاً على الحاكم– دورٌ كبير في نزول الشباب السلفي إلى الشوارع وإلى ميدان التحرير، ويمكن القول أن الشيخ محمد حسان كان من السلفيين المؤيدين للثورة، وإن كان حدث له تأرجح في الموقف، إلا أنه استقر على النزول إلى التحرير.

وكانت المدرسة السلفية بالإسكندرية –المؤسسة لحزب النور– ذات أكبر ثقل سلفي في مصر– من المعارضين للمشاركة، وظهر هذا في فتوى الشيخ ياسر برهامي، الذي حرم فيها المشاركة في المظاهرات تجنباً للفتن، كما دعا الشيخ محمود المصري الثوار في ميدان التحرير إلى العودة إلى ديارهم، وكذلك الشيخ محمد حسين يعقوب الذي وصف الثورة بالفتن المتلاطمة ودعا الثوار كذلك إلى العودة إلى ديارهم، وكذلك الشيخ مصطفى العدوي، رفض إطلاق سمة "الشهادة" على قتلى الثورة.

ولم يقتصر موقف السلفيين على التأييد والمعارضة وإنما تعداه إلى موقف ثالث وهو الصمت، فلم يكن لبعض المشائخ موقف واضح من الثورة، ويأتي على رأسهم الشيخ أبو إسحاق الحويني الذي أغلق هواتفه ولم يرد على المستفسرين بشأن الثورة، ولا أجد أي تفسير لهذا الموقف من "رجال الدين"!!

هذا على مستوى الجماعات والتنظيمات، بينما اختلف موقف الشباب السلفي، فمنهم من انتظر فتاوى المشائخ ومنهم من سارع إلى المشاركة بدون انتظار فتاوى تجيز أو تمنع، ولكن بشكل عام لم تكن مشاركة الشباب السلفي ذات تأثير بارز مثل شباب الإخوان المسلمين ... ورجالهم وشيوخهم ونسائهم.

الأحزاب السلفية المصرية

قبل ثورة يناير المؤيدَة كان للسلفيين موقف معروف من العملية الانتخابية ومن المجالس النيابية، يكاد يكون متفقاً مع أتباع السلفية الجهادية، إلا أن موقفهم هذا تغير كلّية بعد الثورة، وأعلنوا مباركتهم للثورة، وقبولهم بالاحتكام إلى قواعد "اللعبة الديمقراطية".

ويرى كثيرون أن هذا التغير هو من باب "ركوب الموجة" للحصول على قدر كبير من المصالح والمكاسب الشخصية، بينما يرون أن هذا من باب "تغير الفتوى باختلاف الزمان والمكان"، وأرى أنا شخصياً أنهم رأوا أن أمامهم فرصة سانحة لنشر المنهج وتعريف الناس به إذا هم شاركوا في العملية السياسية، بينما سيستمر التقدم البطيء إذا اكتفوا بمنهج الدعوة، فقدموا بعض التنازلات لتحقيق مكاسب كبرى للمنهج، ويرون أن هذه التنازلات ليست من باب التنازل عن الأصول والمبادئ وإنما هي عن فرعيات تبعاً لفقه الموازنات، فيعلل الدكتور ياسر برهامي (في إجاباته لأسئلة وردت لموقع: صوت السلف) قبولهم بالديمقراطية بعد أن كانوا متمسكين بنظام الخلافة الإسلامية، قائلاً: "نقبل مسألة "الانتخابات" على ما فيها من بعض المخالفات إلا أنها أقل مفسدة من ترك المجال للعلمانيين والليبراليين. ونقبل "مراقبة البرلمان للحاكم، وإمكانية عزله ومنع استبداده"، ونقبل "قيام المؤسسات في الدولة على مبدأ الشورى الذي يتم من خلال الانتخاب".

ويوضح الشيخ ياسر أنهم لم يقبلوا ب:"الفكرة الفلسفية للديمقراطية في أن الشعب هو مصدر السلطة التشريعية"، وما في الديمقراطية من كفر "في أصل فكرتها"، وذلك لاعتقادهم الجازم بأن "الحكم لله".

كما يرد الشيخ برهامي للمعترضين عليهم بأن "النظم البشرية" يمكن أن ننتفع بما يوافق الشرع منها. مستدلا بالنظم الإدارية التي كانت عند الفرس مثل "الديوان" والتي

عمل بها عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– لتنظيم مصالح المسلمين. كما يضرب مثلا بما كان من "تنازلات" من نحو ما فعله النبي –صلى الله عليه وسلم– في صلح الحديبية، حين قبل محو "بسم الله الرحمن الرحيم" وتغييرها إلى "باسمك اللهم"، وأيضا "محمد رسول الله" إلى "محمد بن عبد الله"، استجابة لما اشترطه مشركو قريش مع كونه قالها بلسانه: "إني رسول الله وإن كذبتموني". وكذلك قبوله أن يرد مَن جاءه مسلمًا إلى المشركين. يقول الشيخ ياسر: "كانت هذه المفسدة مغمورة إلى جنب المصلحة"، ودليل ذلك قول النبي –صلى الله عليه وسلم– (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا) (رواه البخاري)." ومن ثم فإنهم يرون أن موقفهم تجاه "الديمقراطية" لم يخالف العقيدة لا في مسألة الحكم، ولا في مسألة الولاء والبراء.

وعلينا أن نتقبل –بل ونشجع– مثل هذه المواقف من التيارات السلفية لا أن نتهمهم بالمواراة واستغلال الفرص، وإلا فنحن مثل من يصمم على رمي العاصي بالمعصية بعد أن تاب عنها، وهذا من إساءة الظن!!

والشاهد أن الأحزاب السلفية أسست حتى الآن أربعة أحزاب، هي: حزب النور، وهو أكبرهم وأوسعهم انتشاراً وحصداً للنتائج الانتخابية، وحزب الأصالة وحزب الفضيلة وحزب النهضة.

ويعرف الأستاذ إلهامي الميرغني بالأحزاب السلفية الموجودة في مصر، في سياق تعريفه بالأحزاب الإسلامية فيقول: "الأحزاب السلفية: وهى الأحزاب التي خرجت من رحم حركة الدعوة السلفية والوثيقة الارتباط بالإسلام الخليجي وترشح حازم صلاح أبو إسماعيل لرئاسة الجمهورية. (...) كما قال الداعية ياسر برهامي أنه لا يجوز المساواة بين المسلم وغير المسلم وقال: "لا يمكن أن نقبل أن نولي أمرنا لقبطي، أو أن تكون الشريعة التي نحكم بها غير الإسلام، وكذلك بالنسبة للمرأة لا يمكن لها أن تتولى شؤون المسلمين، مستندًا للحديث القائل "لن يفلح قوم تولى أمرهم امرأة". ومن بين

الأحزاب السلفية في مصر نجد:

6- حزب النور، أكبر الأحزاب السلفية وهو منبثق من الدعوة السلفية بالإسكندرية. ومن أبرز قياداته الدكتور عماد عبد الغفور وكيل المؤسسين. والمتحدث باسمه هو المهندس عبد المنعم الشحات، ونائب رئيس الحزب هو الشيخ ياسر البرهامى القطب السلفي المعروف بالإسكندرية. وقد دعا المؤتمر الاقتصادي الأول لحزب النور السلفي، إلى وضع حجر أساس لـ"بنك" باسم الحزب يهدف إلى تقوية سوق المصارف الإسلامية، الأمر الذي يطرح سؤالاً في منتهى الخطورة فكيف لحزب جديد أن يعمل على إنشاء بنك بهذه السرعة؟

7- حزب الفضيلة، مؤيد من مشايخ السلفية بالمنصورة والقاهرة وخصوصًا الشيخ محمد عبد المقصود.. ورئيس الحزب هو عادل عبد المقصود (مساعد سابق لوزير الداخلية) أخو الشيخ محمد عبد المقصود، وكيل المؤسّسين هو محمود محمد بدر (مهندس معماري حر). ويُعرفه القائمون عليه بأنه «حزب يسعى لنشر قيم العدالة والمساواة وإعادة الصدارة لمصر في مختلف الميادين بما يتفق مع مبادئ الشريعة الإسلامية». وهو أوّل الأحزاب السلفية المصرية تأسيسًا. انشقّ منه أعضاء بارزون لتكوين حزب الأصالة. أعلن حزب الفضيلة عدم خوض الانتخابات البرلمانية المقبلة «لضيق الوقت». يتكون المكتب السياسي للحزب من: م/ محمود محمد بدر (مهندس معماري حر)، د/ محمد عبده الإمام (أستاذ القانون بجامعة الأزهر)، د/ خالد سعيد، ممدوح الإمام، الشيخ فرحات رمضان (أحد رموز الدعوة السلفية بمحافظة كفر الشيخ)، د. حسام أبو البخاري. وقد انفصل عن هذا الحزب 3000 من مؤسسيه وذهبوا للانضمام إلى حزب البناء والتنمية.

8- حزب الأصالة، حزب سلفي من قياداته الشيخ محمد عبد السلام والشيخ محمد حسان. ويملك الحزب قناتين فضائيتين هما الرحمة والناس. ومن المؤسسين إيهاب شيحة، محمود سلطان. كان الحزب عضوًا فى التحالف الديمقراطي مع الأخوان

المسلمين ثم انسحب وقرر خوض الانتخابات بقوائم مستقلة.

9- حزب مصر البناء، وكيل المؤسسين الشيخ نضال حماد من مدينة نصر.

10- حزب الإصلاح والنهضة تأسس في 18 يوليو 2011. بدأ نشاطه في مدينة الإسكندرية عام 1997م، ورائد هذا المشروع ورئيس الحزب هو هشام مصطفى عبد العزيز ووكيل مؤسسيه هو أيمن مرسى.

11- حزب النهضة السلفي، قيل أن وكيل مؤسسيه يسعى لإطلاق اسم حزب الشريعة عليه لكي لا يتعارض اسم النهضة مع حزب الدكتور محمد حبيب وإبراهيم الزعفراني المنشق عن الإخوان. (...)

أحزاب التنظيمات الجهادية: قامت تنظيمات الجهاد والجماعة الإسلامية بعمل مراجعة فكرية حول استخدامهم للعنف، وعلى ضوء المراجعات خرج قادة الجماعات من المعتقلات قبل الثورة. وظل عبود وطارق الزمر قيد الاعتقال إلى أن قامت ثورة 25 يناير فتم الإفراج عنهما. كما عاد لمصر بعد الثورة أكثر من 500 عضو سابق بالجماعات الجهادية وتنظيم القاعدة وهم على مستوى عالٍ من التدريب العسكري. إضافة إلى 3000 من المصريين الهاربين من الملاحقات الأمنية والمتهمين في قضايا عنف. وقد بدأ آل الزمر فور خروجهم بالدعوة لتأسيس حزب سياسي ثم توالى تكوين الأحزاب الجهادية ومنها:

12- حزب البناء والتنمية: وهو الذراع السياسية للجماعة الإسلامية في مصر تأسس يوم 20 يونيو 2011. قاد الحزب المفاوضات لتأسيس تحالف الكتلة الإسلامية مع حزبي النور والأصالة السلفيين. وتتمثل مبادئه العامة في «العدالة والمساواة والحرية والتعددية والشورى والتكافل الاجتماعي». وأعلن الحزب عن أربع وكلاء مؤسسين هم طارق الزمر وصفوت عبد الغني والشاذلي الصغير وأشرف توفيق. رفضت لجنة الأحزاب الترخيص للحزب.(...)

13- حزب السلام والتنمية: مؤسسه الدكتور كمال حبيب القيادي السابق بتنظيم الجهاد.(...)

14- حزب الاتحاد من أجل الحرية ويرأسه منتصر الزيات المحامي. وقد كان من المتهمين في تنظيم الجهاد وهو عضو مجلس نقابة المحامين.

15- حزب الأمة الجديد بزعامة الشيخ كرم زهدي أمير الجماعة الإسلامية سابقًا الذي جمع توكيلات لتأسيس الحزب الذي يعد ثاني أحزاب الجماعة الإسلامية في العمل السياسي، مشيرا إلى إن الحزب يجمع عدد كبير من قيادات الجماعة الإسلامية وعلى رأسهم الشيخ ناجح إبراهيم عضو مجلس شورى الجماعة الإسلامية السابق و الشيخ فؤاد الدواليبى عضو بتنظيم الجهاد الإسلامي.[23]" اهـ

القنوات السلفية

قبل سنوات قلائل كنا نحلم بقناة دينية متخصصة، ومع بدأ عصر الفضائيات ظهرت فضائية الملياردير صالح كامل: اقرأ، والتي بثها من ضمن باقات كثيرة أخر من القنوات، الخليعة والرياضية! وانفردت قناة اقرأ بالساحة لفترة معقولة، كفضائية دينية وحيدة بين كل القنوات الموجودة، وقدمت اقرأ فكراً يُعرف بأنه فكر وسطي –لا سلفي–، ذو محتوى راقٍ، يناسب المتعلمين والمثقفين والدارسين بدرجة أكبر من مناسبته للعوام، الذين قد لا يجدون استيعابا للمحتوى المطروح، أو اهتماما بالقضايا المقدمة، لأنها قد لا تعنيه بدرجة كبيرة، لكونها قضايا عامة متعلقة بالأمة، وتتطلب جهودا وفكرا وعملا، وهو لن يشارك في هذا بحال! لذا اقتصرت شرائح من المجتمعات العربية على مشاهدة البرامج البسيطة المحتوى، التي تخاطبه بشكل مباشر! والتي تعتمد على الوعظ بشكل رئيس!

[23] إلهامي الميرغني، جريدة المشهد، مقال بعنوان: مصر وطوفان الأحزاب الدينية، بتاريخ: 17- 11- 2011.

وعلى النقيض من الإخوان الذين لم يُسمح لهم بإنشاء قناة دينية سُمح للتيار السلفي، المدعوم والممول من السعودية، فبدأ سيل القنوات السلفية، التي لم يعجب القائمين عليها، الفكر التي تقدمه قناة اقرأ، حيث يرونه فكراً يهوديا يعمل على تمييع الأمة! فبدأت تلك القنوات بقناة الناس، -والتي كانت في الأصل قناة للدعاية وبدأت بثها بإذاعة أفراح الناس وحفلاتهم!- ثم اشتراها بعض المشائخ فانقلبت القناة رأسا على عقب، وأصبحت تبث برامج دينية!

ولأن القائمين على القناة هم من دعاة السلفية فكان من اللازم أن يعملوا على نشر السلفية بين المسلمين، لكي يصبحوا من الفرقة الناجية! وهكذا وجد الدعاة السلفيون فرصة ما كانوا يحلمون بها في يومٍ من الأيام[24] وهي الظهور على شاشات التلفاز! فبعد أن كان أقصى نشاط لهم هو المحاضرات والدروس في المساجد وتسجيل بعض الشرائط، أصبحوا يظهرون على شاشات الفضائيات! يراهم القاصي والداني ويمكن أن يصدق بكلامهم عامة الناس، لقرب المحتوى المقدم من المستوى الفكري لعامة الناس، ولقيام تلك القنوات على أسلوب الوعظ، ولتقديمها ما يريد الناس سماعه!

ثم تتابع بث القنوات الدينية السلفية، واجتذبت جمهوراً عريضاً من الناس، بدءوا يتابعون في شغف ما تقدمه هذه القنوات، ولكن كسابقتها: اقرأ، وقعت القنوات السلفية في مشكلة تقديمها ما ليس للناس به حاجة! فإذا كانت قناة اقرأ تقدم مستوى أرقى من المستوى الفكري لبعض المشاهدين، فإن القنوات السلفية قاطبة أخذت في جذب المشاهدين ليعودوا معهم إلى عصور السلف الصالح! فأخذ الدعاة السلفيون بكل حماس تقديم تصورهم التاريخي للإسلام للمشاهدين، فيحكون عما فعل فلان وعما قال علان، وكيف قام فلان بكذا وكذا!

والمشاهد لا يريد أن يعود إلى أي زمن، إنه يريد أن يعيش في عصره! ويسمع ويقارن

[24] والحق أن ليس كلهم وجد هذا شيئاً طيباً، -بغض النظر عن مسألة حرمة التصوير- فبعضهم يرى أن هذه القنوات هوّنت من قدر شيوخ السلفية، وأصبحت السلفية في عيون الناس متشددة (مقارنة بالأزاهرة وبالدعاة الجدد)، ويرون أن بعض المشائخ بدأ ينقلب على الثوابت ويتساهل حتى يجد قبولاً من الناس.

نفسه بهؤلاء فلا يجد وجهاً للمقارنة، فأنّى له أن يكون مثل هؤلاء السلف الصالح، الذين عاشوا في عصور الصلاح والتقوى! فعصورنا وواقعنا أسوأ من واقعهم بكثير، فكيف أصير مثلهم؟! (بينما الواقع والتاريخ يقولان أنها كانت مثل عصورنا إن لم تكن أسوأ!، ولكن السلفيين يصرون على جعلها عصوراً ذهبية، لوجود بعض الصالحين فيها!) وواصلت القنوات السلفية تقديم تاريخنا للمشاهد على أنه الدين، وتقديم الفكر السلفي الأحادي الرأي والذي لا يتقبل غيره، والذي يقدم تصوراً عسيرا للدين، يجزم أصحابه أن الدين، على الرغم من كل تعسيراتهم، سهل يسير! (وأتذكر ردة فعلي بعدما قرأت أول كتيب سلفي في المرحلة الابتدائية –حصلت عليه والدتي من زميلة في العمل عاد زوجها من السعودية–، فلقد قلت: "ده إحنا على كدة كفرة"!!)

ولأن القائمين على هذه القنوات هم من علماء الحديث، وجدنا برامج تقدم كل صغيرة وكبيرة في علم الحديث بشقيه! مما لا ناقة للمشاهد فيه ولا جمل! فشتان بين دروس العلم والتي لا يحضرها إلا طلاب علم وبين برنامج يُبث لأناس من طوائف مختلفة المستوى العقلي والفكري! وأي مقارنة بين أداء قنواتنا الدينية والقنوات المسيحية الأوروبية ستصب في صالح تلك القنوات، لأن القائمين عليها يعرفون جيداً كيف يُسخرون المحتوى التاريخي لدينهم ليناسب مشاهد العصر الحديث! أما نحن فنصر على تقييد ديننا المطلق بالتاريخ، وجعله دينا نقدمه للناس!

والشاهد أن القنوات السلفية قدمت للمشاهد ما لا يحتاج وما لا جاذبية فيه، لذا وجدنا انحساراً في مشاهدة هذه القنوات، فلم تعد تحقق نسبة المشاهدة السابقة، وأصبح المشاهد يعاني من الملل عند مشاهدته لهذه القنوات، والنتيجة هي أن القنوات السلفية، بعد سنوات من البث الفضائي، لم تحقق النتائج المرجوة منها، إلا بنسبة جدِ ضئيلة، لا تتفق مع عدد القنوات والبرامج المذاعة، وهنا تثار بعض التساؤلات حول أداء هذه القنوات: لماذا لم تنجح هذه القنوات، أو بشكل آخر: لماذا لا نجد للقنوات الدينية أثراً في حياتنا، مثل القنوات الأخرى التي نجحت في تغيير مجتمعاتنا تغييرا كبيرا وأكسبته عادات ضارة كثيرة؟!

هل لأن القنوات الدينية تناقش قضايا بعيدة عن واقع الناس، فيشعر الناس أنها تحدثهم عن أمورٍ لا علاقة لهم بها؟ هل لأن مشائخ القنوات السلفية يقدمون نماذج، يصبغون عليها سماتٍ ومديحا تكاد تجعلها "سوبرمانية"، مما يُشعر المشاهد أن هؤلاء نماذج لا يمكن أن يصبح مثلها، كانوا يعيشون في أزمنة مثالية، ليست مثل زماننا الذي يشجع الناس فيه بعضهم على الفساد لا الصلاح؟ ومن ثم فالنموذج الذي يقدمونه لم يعد صالحا لأيامنا هذه، وعلينا البحث عن نموذج آخر!

هل لأن المشائخ لا يحاولون إسقاط السيرة النبوية على الواقع، وإنما يكتفون بعرض نماذج منها، ويتركون للمشاهد ربط السيرة بواقعه؟! هل لأن المشاهد يشعر أن المشائخ أصبحوا يتاجرون بالدين، بسبب الثروات الكبيرة التي تحصلوا عليها من الدعوة والمبالغ الكبيرة التي يتلقونها مقابل برامجهم ومستوى الرفاهية الذي يعيشون فيه، بينما يدعون الناس إلى فعل ما لا يقومون هم به؟ (أتذكر دعوة أحد كبارهم إلى أن يرضى الإنسان بأن يعيش على الخبز والجبن فقط من أجل الدين، ولم ينظر الداعية إلى "كرشه العظيم"!)

هل لأن القنوات السلفية أصبحت قنوات دينية/ إعلانية؟! فأصبح المحتوى الإعلاني المقدَّم يكاد يقارب المستوى الديني؟ أضف إلى ذلك فساد المنتجات المعلن عنها، والتي تُعد نوعا من خداع المشاهد؟! وأهم شيء لدى القنوات الدينية أن يكون الإعلان متفقاً مع الشرع، بمعنى أنه لا يوجد فيه نساء، ويا حبذا لو تكلم عن المنتجات الطبيعية والطب النبوي! وليقدم بعد ذلك ما يشاء، بأي درجة من الجودة! وإن كنت لاحظت في الفترة الأخيرة ظهور نوعية من الإعلانات على القنوات السلفية، ما كانت تظهر سابقاً، وهي "الإعلانات العادية القصيرة" مما أشعرني أن هذه القنوات تحاول أن تجاري الوضع السائر.

وأقارن بين قنواتنا السلفية وبين القنوات الدينية الأوروبية، –باللغة الإنجليزية والألمانية تحديداً– فلا أجد فيها إعلاناً واحدا عن أي منتج!! إلا إذا كان دعوة للتبرع لمؤسسة

كذا وكذا الخيرية، من أجل مساعدة مرضى أو جوعي أو ... أو!

هل لأن المشكلات الاقتصادية (ولا نقول الفقر، لأن هناك الكثير من الأغنياء الذين يعانون! بسبب المشكلات الاقتصادية) أصبحت الشاغل الرئيس للناس، بحيث أصبح الدين شيئا ثانويا في حياة الناس، يُصبرون به أنفسهم، ويريدون أن يدخلوا به الجنة في نهاية المطاف؟!

هل لأن المشاهد يشعر أن المشائخ لا تنكر على الحكام فسادهم؟ وأنهم حصروا الدين في نطاق ضيق من حياة الناس وتركوا جوانب كثيرة لم يعرضوا لها، فيصولون ويجولون في توافه الأمور، فإذا تعلق الأمر بتزوير إرادة الأمة لم يحرك أحدهم ساكنا؟!

هل لأن المشاهد أصبح يرى ويسمع اختلافا كبيرا في الفتوى بين المشائخ، لم يكن يسمع به مسبقا، مما أفقده الثقة في المشائخ، فأصبح يستفتي قلبه؟!!

هل لأن المشائخ لا يقدمون للناس كيف يطبقون دينهم في زماننا هذا، ولا يعرفون كيف يستحثون الناس على الحركة، مما ألجأهم إلى "مشائخ" التنمية البشرية؟!

هل لأن ميزان الأولويات عند مشائخ السلفية مختلّ، (إذا كان موجودا أصلا)؟!

هل لأن المشائخ لا يخاطبون العقول ويعتمدون كلية على مخاطبة القلوب؟ هل لأن المشائخ يقدمون قدرا من الخرافة، يصرون على نسبته إلى الدين؟!

قد يرى القارئ أن السبب بعض أو كل ما ذكر، بل قد يرى أن هذه القنوات ناجحة ولم تخفق. ولكن المتفق عليه أن هذه القنوات بها بعض –أو كثير– من السلبيات وهي في حاجة إلى تطوير خطابها وتقديمها بشكلٍ جديد "عصري"، فهل من الممكن أن تقدم القنوات "السلفية" خطاباً "عصرياً"؟!

السلفيون والصوفية

يتخذ السلفيون موقفاً عدائياً واضحاً معروفاً من الصوفية والصوفيين، ويعدونها مَعيناً كبيراً للشرك والبدع، ويرمون الصوفية بالكفر، والكفر -عندهم- كله ملة واحدة!! وبأنهم شيعة أهل السنة ... الخ.

ويرى كثيرون أن هذا الموقف من السلفيين تجاه الصوفية موقف متشدد، وأن الصوفية ليست بهذا السوء الذي يظهرونهم به. ونحن نعيب على السلفيين فقط تكفيرهم للصوفية، لأن لهم تأولٌ فيما يقولون ويفعلون، وليس تكفير المسلم بالأمر اليسير، كما أن نسبة منهم تأتي هذه الأمور ولا تعرف جيداً ما دلالة ولا معنى ما تقول، وكيف أنه يحمل دلالات شركية، وإنما يفعلونه بنية حسنة مثل ذكر الله!

ولا يعني هذا أننا ندافع عن الصوفية أو نوجد تبريرات لها أو لأفعالها، فالصوفية أنشئوا لأنفسهم نظاماً مخصوصاً للذكر يدعون الناس إليه، -وأي جماعة لا تدعو أتباعها إلى تدبر كتاب الله فهي ليست على جادة الصواب- فأذكارهم وأورادهم ليست ذكراً جاشت به الصدور فلهجت به الألسنة، وإنما نظموا هذا الذكر وحددوه، فأصبح لكل شيخ أورادٍ معينة يعلمها أتباعه، بل وزعموا لها فضلاً وتأثيراً، فمن يقرأ سورة الإخلاص مثلاً مائة مرة يحدث له كذا، ومن يسبح ألف مرة ينال كذا من الثواب، ومن يفعل كذا فله كذا من الثواب! كما استحدثوا مراتب للترقي في الدرجات والمنازل، وجعلوا للشيخ حق الطاعة العمياء على المريد، حتى يستطيع الوصول إلى الله!!

وهي إدعاءاتٌ ما أنزل الله بها من سلطان، كما أن الله تعالى لم يُنزل كتابه ليُتغنى به ولا ليكرر بهذه الطريقة الببغائية، وإنما ليُتدبر وليتفكر في آياته! وهذه "الأوردة" التي يزعمونها ذكراً ليست بذكر، وإنما هي نوعٌ من التغييب للعقول.

وليس انتقادنا للصوفية قائم على مسألة الذكر هذه فقط، وإنما لأسسها وأصولها التي قامت عليها ولغاياتها الرامية إليها. ولقد عرضنا في كتابنا "عقائد الإسلاميين" لهذه

الفرقة وبيّنا كيف أنها قائمة على أصول لا تتفق ولا تنسجم مع التصور الإسلامي العام، مثل معاداة الدنيا والتنفير منها وتفريقهم بين الشريعة والحقيقة والغلو في تقديس البشر مثل النبي والأولياء والذين ينسبون إليهم أفعالاً وأدواراً ليست للبشر، حتى يكادون يؤلهونهم، واعتقادهم في شفاعة الأولياء وإخراجهم الأتباع من النار، وأقوالهم الدالة على الحلول والاتحاد ووحدة الأديان والمبطلة لقانون السببية. فمن أراد الاستزادة فليرجع إلى الكتاب.

وبالإضافة إلى تكفير الصوفية فإنه يعاب على السلفيين كذلك الجهد الضخم المبذول في محاربة الصوفية والصوفيين، كأن هذه القضية من أهم وأكبر أولويات الأمة الإسلامية، فهناك الكثير والكثير من القضايا التي تستحق أن نوليها نصف أو ربع هذا الاهتمام، كما يعاب عليهم الخطاب الحاد والذي لا يمكن أن يندرج أبداً تحت قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة النحل ,١٢٥]، فهذا الخطاب ينفر الآخر ويدفعه إلى إغلاق القلب وعدم الاستماع لما يُخاطب به والبحث مسبقاً عما يرد به عليه!

وإذا كان هذا هو موقف السلفيين كأفراد، فكيف سيكون الحال إذا شاركوا في تكوين الحكومة أو تولوها هم، ماذا سيكون ترتيب محاربة الصوفية في أولويات الدولة؟ لا أعتقد أنها ستكون عندهم كحكام في مقدمة أولوياتهم لسبب هام وهو عجزهم عن المحاربة العلنية! وذلك لأنهم لن يقدروا على تسخير أجهزة الدولة الدينية (الأزهر والأوقاف) لمحاربتها، لأن لهما موقفاً معروفاً وهو قبول الصوفية المعتدلة، كما أن للصوفية الكثير والكثير من الأتباع في مصر تحديداً، والهجوم المباشر قد يثير قدراً كبيراً من الاضطرابات في البلاد وهذا ما لا يسعون إليه، كما أن هذه المحاربة العلنية ستكسبها مزيداً من التعاطف والتأييد، مما قد يزيد من المنتسبين إليها ... "مدد"!

إنني أعتقد أن محاربة السلفية للصوفية ستستمر على ما هي عليه، كمجهودات فردية لمشائخ السلفية وليست كمنهج للدولة، فلن يلجأ سلفيو السلطة إلى الصدام المباشر وإنما سيعتمدون خطة النفس الطويل، القائمة على التهميش التدريجي للصوفيين في المناصب الكبيرة، وتقليل النشاطات المباحة لهم، مثل الأذكار الجماعية في المساجد، مثل الذكر بعد صلاة الجمعة، وهذا لن يكون له أي أثر يُذكر في التأثير على الجماعات الصوفية أو القضاء عليها!

السلفيون والشيعة

لا يختلف موقف السلفيين من الشيعة عن موقفهم من الصوفية، فهو على نفس القدر من العداء، بل وأكثر! والناظر في كتابات السلفيين في ذم الشيعة وكيف أنهم كافرون ضالون، وأنهم يهود المسلمين! وكيف أنهم أكثر خطراً على المسلمين من اليهود والمشركين، يشعر أنه مشاكل المسلمين قد انتهت ولم يبق أمامهم إلا هذا الوحش الكاسر المسمى بالشيعة، الذي يدعي الإسلام وهو يعمل على تمزيقه والكيد له والتحالف على أعدائه!

والحق أن في عقيدة الشيعة ما فيها من الضلال والانحراف، إلا أنه لا تخلو فرقة إسلامية من أخطاء! كما أن كل الفرق الإسلامية قائمة على منهج واحدٍ في التأصيل للعقيدة، فكما بيّنا في كتابنا: عقائد الإسلاميين، فإن منهج كل فرق الإسلاميين واحد والاختلاف في النتائج!

والشيعة في مصر لا يشكلون ثقلاً في المجتمع مثل الصوفية، فهناك من يقدرهم بنصف مليون شيعي أو أكثر، كما أن كثيراً منهم لا يظهر تشيعه، ويقبل أن يُعامل كصوفي، كما أنه ليس لديهم جمعيات أو مؤسسات تمثلهم، ولقد حاول أحمد راسم النفيس –أحد أهم أقطاب الشيعة في مصر– بعد الثورة المؤيَّدة تكوين حزب شيعي

(التحرير)، إلا أنه لم يوافق على مطلبه حتى الآن. والشيعة لا يمثلون مشكلة في المعادلة الداخلية المصرية بالنسبة للسلفيين، وإنما الإشكالية الكبرى في العلاقات الخارجية، فماذا سيكون موقف الخارجية المصرية من العلاقات الإيرانية في حالة وجود السلفيين في السلطة؟ هل ستستمر حالة "الانسيابية السياسية" أم ستحصل قطيعة للعلاقات الدبلوماسية، بحُجة أن الشيعة متلونون ويقولون ما لا يبطنون؟! أم سيُكتفى بالعلاقات الموجودة فعلاً ولن يُعمل على توسيعها وزيادتها؟!

لا أعتقد أن السلفيين سيوصلون العلاقات إلى مرحلة العداء أو إعلان الحرب، وإنما سيعملون على جعلها علاقات باردة، وقد تحدث –بالصدفة/ قدراً– بعض المشكلات، التي تؤدي إلى قطع العلاقات مع إيران! ولو نجح السياسيون السلفيون في تجاوز هذا الخلاف، وإقامة علاقات قوية مع الدولة الشيعية إيران، فإن هذا يعني نقلة نوعية في الفكر السلفي –أتمناها ولا أتوقع حدوثها إلا تحت ظروف قاسية– يعني التأسيس لإمبراطورية إسلامية قوية تُمثل "حزام" الكرة الأرضية.

"إن مما لا يشك فيه عاقل أن حال التشنج والنزاع داخل الأمة، يضعف قدرتها على مواجهة التحديات العاصفة، كما يتيح الفرصة للأعداء كي يلعبوا بأوراق هذا النزاع، لذلك فإن مدّ يد التعاون والتحالف من قبل السلفيين للأطراف الإسلامية الأخرى، هو من أوليات ما يدعو إليه العقل والشرع، وإلا فإنهم يتحملون مسؤولية المضاعفات السلبية لواقع الخلاف القائم. أليس من المثير للدهشة والاستغراب أن نرى تسارع خطوات التقارب والتنسيق بين اليهود والمسيحيين، وهم أهل ديانتين متناقضتين متصارعتين، بينهم خلاف عقدي عميق، وصراع تاريخي طويل، لكنهم يتجاوزون كل ذلك ويتعاونون تجاه ما يرونه خطراً مشتركا، بينما نعجز نحن المسلمين عن تجاوز خلافاتنا، والاقتراب من بعضنا، ونحن أهل دين واحد؟![25]" اهـ

[25] حسن الصفار، السلفيون والشيعة، نحو علاقة أفضل، ص. 19–20.

السلفيون والمرأة

لكي يُطمئن السلفيون المجتمع ويظهرون عدم اختلافهم عن باقي الفصائل السياسية الموجودة على الساحة، عقد حزب "النور" مؤتمره "النسائي الأول" تحت عنوان: "دور المرأة المصرية في العمل السياسي" عصر السبت الموافق 2011/10/15 بالإسكندرية، وذلك بحضور د. عماد الدين عبد الغفور، رئيس حزب النور، د. ياسر برهامي نائب رئيس الدعوة السلفية، والداعية د. حازم شومان، إلا أن الملاحظ أن المرأة قد غابت عن المنصة في المؤتمر النسائي، الذي كان كل المتحدثين فيه ... رجال!!

وكذلك كان للمرأة نصيبٌ في برنامج حزب النور، فنجد أنهم لم ينسوها في برنامجهم، فقالوا: "والمرأة كذلك لابد أن تنال حقها الكامل الذي كفله الإسلام لها، والذي تميز عن غيره من المناهج في تقديره لها، وتعتمد نظرتنا لمنزلة المرأة في المجتمع علي المساواة الكاملة في الكرامة الإنسانية بين الرجل والمرأة، وأهمية العمل على الحفاظ على التمايز بينهم في الأدوار الاجتماعية والإنسانية، دون أن يؤثر ذلك علي مكانة كل منهم، والمرأة مُكوِّن هام بل عمود أساس في نشاط حزب النور خاصة والمجتمع المصري عامة، ولها أن تمارس دورها الفعال النشط وحقها الذي أعطاها الدستور إياه.

ولاشك أن المرأة اليوم تعاني الكثير من المشكلات في المجتمع، وبعض هذه المشكلات تشارك فيه المرأة بقية أفراد المجتمع من البطالة والفقر والمرض، والتهميش والإقصاء والإهمال، وهناك بعض المشكلات التي تختص بها المرأة، ويهمنا هنا القسم الثاني، والتي يعتبر من أبرزها مشكلة ضعف الوعي الاجتماعي فيما يتعلق بقضايا المرأة ودورها الاجتماعي؛ وظاهرة العنف الذي يُمَارَس ضد المرأة سواءً كانت ابنة أو أختاً أو زوجة، وظاهرة الأُسَرِ المَعِيلة– أي تلك التي يلي أمرها وتُنفق عليها المرأة– والتي تتركَّز في الشَّرائح الأكثرِ فقرًا من المجتمع، إضافة إلى زيادة ظاهرة

الزَّواج السِّري والعرفي بين الفتيات في المُجتمع، وكذلك الطَّلاق ويعتبر واحدة من أكثر المشكلات الاجتماعيَّة التي تعاني منها المرأة، وما يصاحبها من حزمة من المشاكل المتعلقة بالأطفال والحضانة والنفقة وغيرها، ويمكن أن يزاد على ذلك مشكلة التمييز الوظيفي ضد المرأة. وتتطلب هذا الأوضاع بحوثًا كافيةً ودراسات مكثفة، وخطط محكمة لتغيير ثقافة المجتمع وتطوير مفاهيمه، والتغلُّب على تلك الأوضاع، ممَّا يؤدِّي في النهايَّة إلى تفعيل مُشاركة المرأة المُجتمعيَّة والإنسانيَّة والسِّياسيَّة بصورةٍ كافية، بما يساهم في تسيير عجلة المُجتمع ككل. وكذلك تستدعي إطلاق حملات التثقيف الإعلاميَّة والاجتماعيَّة والدينيَّة، والتي تعمل بكافة الوسائل المُتاحة لتصحيح الصورة الذهنية السلبيَّة للمرأة، والتحذير من ظلمها والافتئات علي حقوقها، علي أن تستند تلك الحملات إلى المبادئ والقيم الأخلاقيَّة النابعة من التَّعاليم الإسلاميَّة وتقاليد المجتمع المصري، ولتقويَّة الوازع الديني لدى المواطن بما يمنعه ذاتيًّا من مخالفة تلك الأخلاقيات." اهـ

والسؤال هنا: هل سيسعى السلفيون حقاً للقضاء على بطالة المرأة؟!! وأن يكون لها دورها الفاعل في المجتمع، ولأي حد ستكون تلك المشاركة، أم أنهم سيسعون لأن تظل في بيتها؟ لا أعتقد أن السلفيين سيعملون على إخراج المرأة بشكلٍ ملحوظ، ولكنهم لن يمانعوا من أن يُخرجها الآخرون، أو أن تخرج من تلقاء نفسها، وسيعدون هذا علامة تسامح منهم!

ومن النقاط التي تُثار بشأن المرأة كذلك، هو: اللباس، فهل سيُلزم السلفيون المرأة بزي معين إذا وصلوا للحكم وشكلوا –أو ساهموا في تشكيل– الحكومة؟! وعندما طُرح عليهم هذا السؤال كان الرد: "فالدولة الإسلامية لا تُلزِم رعاياها إلا بالواجب، والمختلف في وجوبه باجتهاد سائغ لا يصح لها أن تلزم الناس به، ومِن هذا أمر النقاب. وعند قيام الدولة الإسلامية فلا شك أنه سيلزم المجتمع بالقدر المجمع عليه، والذي لا اختلاف سائغ فيه، مع العلم أن النقاب ليس بواجب عند الجمهور، والخلاف فيه سائغ لا يُلزم فيه بأحد الوجهين." اهـ

ويظهر من هذه الإجابة أنهم قد يسعون لفرض المُجمع عليه، وهو: تغطية كل الجسد ما عدا الوجه والكفين (وربما: القدمين، وليس الساقين!)، إلا أن السؤال: ماذا ستكون العقوبة لمن تكشف أجزاء من جسدها زيادة عن هذه؟ وهل سيسعون لفرض هذا بالموعظة الحسنة أم بقوة القانون أم بقوة الأتباع؟! أميل إلى أنهم سيسعون إلى استصدار قرار يلزم المرأة بالزي الشرعي .. وسيخفقون في استصداره!

السلفيون والاقتصاد

أبدى كثيرٌ من المصريين تخوفهم وقلقهم من التيار السلفي وتأثيره على الاقتصاد المصري، وذلك لمواقفه المعروفة من بعض أعمدة الاقتصاد المصري خاصة، وهي السياحة والمصارف "البنوك" والبورصة، وتوقع بعض المتشائمين أن يؤدي وجودهم في السلطة لإضعاف الاقتصاد المصري، عن طريق قيامهم بإغلاق البنوك الربوية أو تحويلها إلى بنوك إسلامية، وتعطيل العديد من الأنشطة السياحية.

وليس ثمة مبرر لهذا التخوف، ففي هذا الجانب بالذات "الجانب الاقتصادي"، يمتلك السلفيون العديد من الكفاءات ذات الخبرات الكبيرة، التي يمكنها وضع تصور اقتصادي إسلامي متناسبٌ مع الشريعة، والذي لن يختلف كثيراً في كونه صادراً عن السلفيين أو عن غيرهم من التيارات الإسلامية.

ولا أعتقد أن السلفيين سيعملون على إلغاء البنوك الربوية، فهم وإن كان من أولوياتهم إنشاء الدولة الإسلامية وتطبيق الشريعة، إلا أنهم لن يعملوا على الصدام وإنما سيعتمدون سياسة تقديم البديل، عن طريق تدعيم الدولة للبنوك الإسلامية وتأسيس عدداً منها وتوجيه الإعلام لمساندتها، ورفع مساندة الدولة للبنوك الربوية، وتعديل قانون البنك المركزي مما يتيح للبنوك الإسلامية بالتعامل بالقواعد الإسلامية بشكل حقيق وليس بشكلٍ ظاهري. كما لا أعتقد أنهم سيعملون على إغلاق البورصة –ربما

لاحقاً- وإنما سيعملون على تعديل بعض الأنشطة الربوية لتتوافق مع الأسس الإسلامية. ولن يختلف الحال مع السياحة، فعلى الرغم من أن كثيراً من مظاهرها لا يجد قبولاً لدى التيار السلفي، الذي يرى أن مصر ليست شارع الهرم وليست شواطئ العراة! ويرفض الخمور والعري، وعلى الرغم من أن تصريحاتهم التي تبين موقفهم من السياحة تثير المخاوف، وقولهم بأن لديهم خطة لتنمية وتطوير "السياحة الحلال"، -والتي تُعد "السياحة العلاجية" أبرز عناصرها- يعني التضييق على باقي الجوانب. إلا أنهم يرون في عين الوقت أن الهجوم على موقفهم من السياحة غير مبرر وأنهم لن يعملوا على تعطيل مورد السياحة، وإنما سيحاولون أن يجعلوها متفقة مع الشريعة.

وأنا أرى أن السلفيين لن يفلحوا في "تغيير مسار السياحة المصرية"، وذلك لما لها من انتشار واسع في المجتمع المصري ودور بارز في الاقتصاد المصري، ولما سيتعرضون له من هجوم وانتقادات، ومن ثم سيلجئون إلى تنازلات جديدة –تغيير الفتوى-، حتى يُفرغ التغيير من مضمونه في نهاية المطاف ويصبح تغيير شكلياً!

والبشائر على ذلك واضحة، فنجدهم مثلاً رفضوا أولاً مسألة الخمور للسياح، ثم قالوا بعد ذلك أنهم سيسمحون للسائح بأن يأتي بالخمور الذي سيشربها معه من بلاده، وأنه لن يُسمح له بالمجاهرة بها. وأرى أن السلفيين سيقدمون مزيداً من التنازلات، وسيظل الأجانب يشربون الخمور، وسيقبل السلفيون إما بكون القائمين على بيع الخمور من "نصارى" مصر، وهكذا يبيع الخمر مسيحي لمسيحي، وإما سيقبلون بما قرره الأحناف من أنه "من حمل خمراً لذمي طاب له الأجر"، ومن ثم فلا إشكال في بيع الخمور للأجانب، لأنهم غير مسلمين وهي غير محرمة عليهم، وليس لنا أن نلزمهم بشرعنا، وكذلك ستستمر السياحة الشاطئية، وغيرها من أشكال السياحة، وسيقتصر التغيير فيها على التغيير الشكلي. والحالة الوحيدة التي سيقدر السلفيون فيها على تغيير مسار السياحة هو في حالة تحقيقهم طفرة نوعية في الاقتصاد المصري، أما غير ذلك فسيتقبلون بالموجود على مضض .. إلى أجل!

السلفيون والعلم

لم يُنزل الله كتابه على عباده ليزهدوا في الدنيا، وإنما ليعرفهم ما هو المنهج الأمثل في معيشتهم فيها، إلا أننا وجدنا مسلك المتلقين للكتاب مسلكاً عجيباً، حيث فصلوا فصلاً حاداً بين الدين والدنيا، وزعموا أن الأفضل هو التقلل من الدنيا والزهد فيها، وظهر هذا المسلك كأبرز ما يكون في الصوفية، التي جعلت الحياة ذكراً وزهداً وتقشفاً وفتوحات! وأوراد! وأهملت الحياة والعمل! وظهر هذا الفصل –وإن كان بدرجة أقل حدة– في المنهج السلفي كذلك، فنجد تركيزاً على الشعائر والهيئات، بشكلٍ جعلها الكفة الراجحة في أعمال العباد المقربة إلى الجنة وربها، ووُهنت الدنيا وأعمالها وحُذر منها، كأن الدنيا فتنة والدين هو بر الأمان! وكأن من يعمل للدنيا لا يمكن أن يكون عمله للدين وبالعكس!!

ويمكننا القول أن هذا المسلك كان ضرباً من ضروب الحيل النفسية، لجأ إليه بعض السلف عندما لم يفلحوا في الدنيا أو عندما ارتكبوا بعض الذنوب شعروا معها أنهم على وشك الهلاك، ورأوا أن سبب وقوعهم في هذه المعاصي هو أنهم خالطوا الدنيا، ومن ثم رأوا أن الحل الأمثل هو تجنبها والإقبال على العبادات. ولأن النفس البشرية تميل إلى التوجهات المتطرفة ظهرت هذه الأقوال ولاقت قبولاً في الأوساط الإسلامية كمعيار لتمام الإيمان وصلابته!! وهو إن كان معياراً مرفوضاً من الرب منزل الكتاب الذي أراد إنساناً أمة كالخليل إبراهيم، إلا أنه انتشر وأصبح تصور التدين عند شريحة عريضة هو ترك الدنيا!

والسلفيون لم يمنعهم منهجهم من الإقبال على الدنيا، إلا أنه منعهم من الإقبال على العلوم الأخرى، أو هوّن من قدرها في نظرهم، وذلك لأنهم انشغلوا بطلب العلم الشرعي، العلم الحقيق! الذي ينال صاحبه الثواب العظيم، ولم يفلحوا في التوفيق بين العلوم الدنيوية والعلم الشرعي، بل وغيّر بعضهم طبيعة عمله، فتركه واشتغل بعمل آخر بسيط ليستطيع التفرغ لطلب العلم.

ولأن العلم الشرعي أهم –وأكثر جاذبية– أقبل أكثرهم عليه وتركوا العلوم الدنيوية، بل ووجدنا بعض الرسائل السلفية التي تُكره العلوم الدنيوية أو تُبدعها وتدعوا إلى المداومة على العلم الشرعي، ولهذا لم نكد نجد في العصور السابقة من أتباع المنهج السلفي من برع في العلوم الدنيوية، وإنما برع فيها من رموهم بالضلال وفساد العقيدة من المعتزلة أو الأشاعرة أو الفلاسفة!!

والسلفية وإن لم تفلح في العصور الماضية في إخراج "أناس مجتمعيين" طبيعيين، ذوي إنتاج علمي دنيوي نافع، إلا أنه يمكننا القول أن هذا العداء الحاد بين السلفية والعلوم الدنيوية قد ذاب في عصرنا هذا فلم تمنع السلفية كثيراً من أتباعها من أن يقبلوا على دراسة العلوم الدنيوية والبراعة فيها، وإن كنا لا نزال نجد أثار هذا الفصل وتفضيل تهميش العلوم الدنيوية لصالح العلم الشرعي في أقوال بعض مشائخ السلفية المعاصرين، مثل ربط صالح اللحيدان رئيس المجلس الأعلى للقضاء بالسعودية بين اتساع رقعة التعليم وبين ضعف روح الإسلام، حيث قال: "ففي بلادنا تضعف روح الإسلام ويخف سلطانه على النفوس عند المتعلمين، ويتسع هذا الضعف ويخف ذلك السلطان بقدر ما يتسع التعليم وتنتشر المدارس"، ومثل فتوى الشيخ ابن عثيمين تحريم تعلم اللغة الإنجليزية. ويبدو أن هؤلاء يريدون مسلمين أصحاب عقول فارغة وشخصية ممحوة، يشكلونها هم على منوال السلف بدون أي معارضة أو استفسار!

وإذا نظرنا في النتاج العلمي الذي قدمه السلفيون نجد أنهم لم يقدموا في الأعم الغالب جديداً، فنتاجهم قائم على إعادة تقديم المتاح فعلاً بصياغة مختلفة وبلغة عصرية! وهذا في صياغة الجمل في داخل الكتاب بينما لا تزال أسماء الكتب تؤلف على المنوال القديم القائم على السجع، مثل: "القول البته في من لبس الكرافتة"، "إنزال الصواعق على من أكل بالملاعق"! والجديد الذي يقدمه السلفيون هو ما تركه السلف فلم يدلوا فيه بدلو أو كان ما ورد عنهم بطريق ضعيف، فيجتهدون فيه، أما إذا كان السلف قد اجتهدوا "فلا اجتهاد مع .. قول السلف!".

ولأن الحديث والروايات هي محور العلم الشرعي الذي يتلقاه السلفيون، فإن طريقة تعلمهم لا تزال هي الطريقة التقليدية القديمة القائمة على حفظ المتون والشروح بل والأسانيد، في عصر لم يعد ثمة حاجة فيه لحفظ أي سند مع انتشار الكتب والحواسيب، وكذلك معرفة أقوال العلماء في فروع الفروع، وتقتصر معرفتهم بالقرآن على تلاوة آياته! ناهيك عن غياب كثير من قضايا الأمة المصيرية من أمام ناظريهم واهتمامهم بالصغائر التي يسارعون إلى التأليف حولها! وإن اختلف الحال في أيامنا هذه للحراك السياسي والمجتمعي في كل بلادنا العربية، ونرجو أن يظل الاهتمام بالواقع وبالقضايا الكبرى، لا أن يتراجعون بعد هدوء الأحوال، فيعودون إلى النقاش حول فروع الصغائر.

السلفيون والفنون

ما هو موقف السلفيين من الفنون؟!

بشكل عام لا يلقي السلفيون بالاً إلى الفنون ويعدونها ضرباً من ضروب اللهو، والتي لا طائل من وراءها، والتي يتراوح حكمها بين الكراهة والتحريم، لما فيها من إضاعة الوقت بما لا طائل تحته ولما فيها من الترف والتبذير، أو ارتكاب لمحرمات نهى عنها الشرع، ناهيك عن كونها منافس "للدعاة" في دورهم في المجتمع، كما أنها من "المحدثات" التي لم تكن على عهد الرسول ولا السلف الصالح، ناهيك عن كون معظمها مأخوذ من الغرب، وهي أمور —من وجهة نظرهم– أكثر من كافية للتحريم، ولقد خلص صالح الغزالي في نهايته دراسته عن الفن إلى أن: "مصطلح الفن بممارسته الحديثة المتحللة لا يتوافق مع الشريعة لا في أحكامها العامة ومقاصدها ولا في أحكامها الخاصة ونصوصها. وإنما يتلاءم مع المذاهب الغربية الحديثة القائمة على الإباحية باسم حرية الفنان وتقديس الفن، ومن أباح هذه الصفة من ممارسة الفنون

ونسبها إلى الشرع من المنتسبين إلى العلم أو غيرهم فقد أباح الشرع المبدَل الذي يكفر من أباحه متى قامت عليه الحجة[26]" اهـ

ومن ثم فلا ينبغي أن يكون لها دور في تكوين الوعي والذات الإنسانية فهذا دور الدين حصراً، والأولى الانشغال بما فيه نفع، مثل العبادة وطلب العلم.

والفنون اسم واسع الدلالة يندرج تحته في زماننا هذا أصناف كثيرة، ولكنها كلها تندرج تحت تقسيمات ثلاثة:

1- الفن الصوتي، ويندرج تحته الفنون التمثيلية، مثل التمثيل السينمائي أو التلفازي أو المسرحي بأشكاله العديدة، وكذلك الموسيقى والغناء والشعر والترتيل.

2- الفن الحركي، ويشمل الرقص بأشكاله العديدة، بدءً من الرقص الشرقي وانتهاءً بالبالية، وكذلك السيرك بفنونه المختلفة وبعض الرياضات.

3- الفن التشكيلي، ويشمل الفنون التصويرية التي يندرج تحتها الرسم والنحت والتصوير، والخط والتصميم والعمارة. وهناك الآداب بتقسيماتها المختلفة، أدب الأطفال والأدب الروائي والمغامرات والرومانسي ... الخ.

والحق أن موقف السلفيين من بعض أصناف الفنون لا يكاد يختلف عن باقي التيارات الإسلامية مثل الرقص والتمثيل الذي يحتوي مشاهد عري وألفاظ بذيئة ودعوى إلى الانحلال، إلا أنه ثمة اختلاف في المواقف من بعض الفنون، مثل التصوير ومثل الأدب. وإذا وُجد الفن وقُبل فالسلفيون يريدونه فناً "مثالياً" موجها، وليس مجرد الفن للفن كما يرى الفكر الغربي، ومن ثم فهم يريدون فناً نظيفاً لا يثير الشهوات ولا يطرح شبهات ولا يُزين الفكر الغربي.

ومن ثم فهم لا يتقبلون معالجة الفن لمشاكل المجتمع بعرضها مُجسمة، لأنهم لا يقبلون أن تعالج "مشكلة بمعصية"، ولأنهم يرون أن هذا الفن قد يشجع البعض على

[26] صالح الغزالي، حكم ممارسة الفن في الشريعة الإسلامية، ص.419.

ارتكاب هذه المعاصي أو يُعطي مبرراً لمرتكبيها ويُكسبهم تعاطفاً أو يُعرف البعض طرقاً جديدة لارتكاب المعاصي والذنوب، وبهذا نفهم تصريحات عبد المنعم الشحات – المتحدث السابق باسم الدعوة السلفية– التي قالها في حق نجيب محفوظ، والتي وصف أدبه فيها بأنه يُشجع على الفجور وأنه أظهر مصر بصورة خمارة كبيرة، والسؤال هنا: ماذا سيكون موقف السلفيين من الفنون إذا تولوا هم سدنة الحكم، هل سينشئون –وليس: يعيدون– نظام رقابة على الفكر والفن والإبداع، يقوم على مصادرة الأفكار والتوجهات، الذين يرون مصادمتها للدين –تبعاً لتصورهم–، ومن ثم يظهر: "الرقيب السلفي"، بدلاً من: "الرقيب الناصري"؟

أم أنهم سيعتمدون تقديم البديل الإسلامي مع الحشد الإعلامي لهذا التوجه الجديد والتنفير من المتجاوِز، "والناس على دين إذاعاتهم (التابعة لملوكهم!)"، مع اعتماد نظام التقسيم العمري والنوعي للفنون، بحيث يُعرف بأن هذه الأفلام مثلاً للفئة العمرية فوق الثامنة عشر، (والتي هي أفلامنا العادية وليست أفلام جنس، حتى لا يشط ذهن القارئ) وهذه للأطفال من سن كذا إلى كذا، وبحيث يُكتب على الروايات والكتب كذلك السن الموجهة له ونوعية الرواية، (وربما يُكتب عليها تحذير مثل التحذيرات الموجودة على علب السجائر!!)؟!

لا أعتقد أن السلفيين سيعتمدون مبدأ الصدام والمنع، وإنما سيعتمدون مبدأ التدرج وتقديم البديل، وكذلك سيعتمدون مبدأ التهميش، والقائم على تقليل أو منع دعم الدولة وتشجيعها وتبنيها لمثل هذه الفنون وكذلك زيادة الضرائب عليها، والسؤال الحقيق هو: كم سيستغرق تقديم هذا البديل وكيف سيقدمونهَ؟

ولكن علاما سيعتمد السلفيون في تقبلهم لهذه الفنون، هل سنرى السلفيين يُجرون مراجعات فكرية للعديد من أفكارهم وتصوراتهم بشأن الفنون؟ أم أنهم سيصرون على حرمتها وأنه مما لم يستطيعوا تغييره؟ هذا ما ستجيب عليه الأيام القادمة.

الباب الثاني

نقد منطلقات المنهج السّلفي

ميزان النقد

عرّفنا في الباب الأول بالتيار السلفي تعريفاً موجزاً، حاولنا فيه أن يكون جامعاً لملامحه الأساسية، وعرضناه كما يقدمه السلفيون أنفسهم، وتبنينا وجهات نظرهم وتبريراتهم لآرائهم وتأصيلاتهم. إلا أن هذا لا يعني أن المذكور هو كل السلفية أو قبولنا لها، وإنما أردنا بذلك أن نقدم صورة عامة للسلفية لا تتخللها انتقادات ولا تعليقات، حتى يستطيع القارئ أن يُكون صورة عامة عنها، وأن يحكم بنفسه عليها، ثم نبدأ بعد هذا العرض والتعريف في نقد المنطلقات والتصورات التي أدت إلى أن يأخذ المنهج السلفي هذا الشكل المتميز، لنبين كيف أنها لم تقم على تصورات مستقاة أو مستخرجة من القرآن، وإنما على تصورات بشرية متأثرة بدرجة كبيرة بنظرة أتباع الأديان السابقة للإسلام للدين والدنيا والإنسان ودوره في هذه الحياة والفصل الحاد بين الدين والدنيا، ومن ثم أصبح المنهج بهذا الشكل الحالي.

وقبل أن نبدأ هذا النقد نعرض للميزان الذي ينقد به البشر، فنقول: تبعا للتنشئة الفكرية لكل إنسان تتشكل نظرته إلى الدين، فالإنسان الذي بدأ قراءاته بالقراءات العلمية والثقافية ثم اتجه إلى القراءات الدينية، فسيزن الدين بميزان عقلي منطقي، عن طريق نقد النصوص الدينية، وهذا النقد سيؤدي به إما إلى رفض بعض النصوص الدينية (كبعض الأحاديث أو كلها، في الدين الإسلامي مثلاً) أو الحكم على الدين كله بالخرافة، لأنه يضع النصوص الدينية (قرآن وأحاديث) في كفة واحدة!

أما ذلك الذي بدأ قراءاته بالنصوص الدينية فلن تكون لديه أية آلية لنقدها، لأنها هي التي شكلت فكره، بل إنها ستكون ميزان حكمه على الصواب والخطأ! فما يتطابق معها فهو الصواب وما خالفها فهو الخطأ! بدون وجود أية حدود واضحة للصواب والخطأ إلا النصوص الدينية نفسها!

وهكذا نجد الواحد منهم يرفض من الأديان أو المذاهب الأخرى ما يتقبله في دينه،

على الرغم من أن كليهما يقدم نفس التبريرات لقبولها! مثل رفض وجود العديد من الروايات للحدث الواحد في الإنجيل مثلاً وقبوله في السنة! وذلك لعدم وجود الميزان المستقل الذي يُحكم به بالصحة والخطأ!

وهكذا ينقلب الحال عند هذا الإنسان فبعد أن كان العقل هو الآلة التي يُحكم بها على النقل، –والذي به سيُدخل الناس النار، لأنه آتاهم ما لا سبيل عقلا لكونه من عند غير الله، وعلى الرغم من ذلك رفضوا الإيمان به والإذعان والخضوع له!– أصبح العقل تابعاً للنقل! وهكذا أصبح النقل أول الأدلة!!

إن الوسيلة الوحيدة لوجود حوارات بناءة هي التحاور للبحث عن الحقيقة وللتأكد من الصحة والخطأ، وليس الحوار من أجل إثبات خطأ الآخر، والذي لن يتقبله الإنسان بأي حال! وهذا يحتم على الإنسان أن ينخلع من ذاته بعض الشيء! وينظر إلى الأمور بمنظور مختلف محايد، لا يتبنى لا وجهة النظر هذه ولا تلك!

وهذا من الصعب العسير على أي إنسان، لأن عقل أي إنسان –والذي هو الحاكم على النص– تابع لقلبه، وتبعا لموقف الإنسان القلبي يكون نشاطه العقلي! فإما أن يوجهه إلى إتباع الحق والتنازل عن المواقف الشخصية، أو يوجهه إلى التمسك بمعتقد الإنسان والدفاع عنه بكل السبل الممكنة!

وهكذا يصل الحوار إلى حوار بين عقل وقلب! ولن ينتصر العقل بأي حال على القلب! ولن يصل معه إلى أي نتيجة! لذا فإن الخطوة الحاسمة هي تجريد العقل من سطوة القلب، ولكن من يستطيع! فإذا حدث ذلك، كان ذلك هو الخطوة الأولى لحوار بين مستمعين، وليس بين مجموعة من الطرشان!

بناء القَنَاعات

لا نقصد بحديثنا عن القناعات: القناعة والتي تعني الرضا بما قسم الله للإنسان، والتي هي كنز لا يفنى، وإنما القناعات التي تعني الأحكام الشخصية المتأصلة في نفس الإنسان والتي تلعب الأدوار الرئيسة في توجيه الإنسان لحياته! والمتعلقة به وبدوره ومكانته وإمكانياته وطموحه وعلاقة الآخرين به ودورهم تجاهه.

تلك التي كوّنها الإنسان من خلال تجارب وخبرات كثيرة مرّ بها وخاض غمارها! ولا مكان للحديث عن الحقائق العلمية في باب القناعات، لأنها مما يُلقنه الإنسان وليس مما يستخرجه بنفسه، كما أنها مما يتساوى أمامه جميع البشر .. في الاقتناع!!

وثمة عوامل عدة تشارك في تكوين هذه القناعات، تختلف من فرد لآخر، حسب قدراته العقلية ومكانته الاجتماعية. إلا أن ثمة قواسم مشتركة بين جميع البشر، راجعة إلى الطباع التي فطر الله البشر عليها! والحديث عن القناعة وتكونها يُلزمنا بالعروج إلى آلية "إصدار الأحكام" عند الإنسان، فما القناعة إلا حكم أصدره الإنسان بطريقة يقينية، وكان لهذا الحكم تعلقٌ كبير بجوانب عديدة في حياة الإنسان!

ومن أبرز العوامل التي تؤدي إلى حدوث اليقين عند الإنسان: التكرار!! وذلك لأن عامة البشر لا يثقون بالأحكام التي يصدرونها بناءً على تجربة واحدة، ويثقون أكثر بالأحكام المستقاة من تجارب عدة متنوعة أدت إلى نفس النتيجة!! فتكرار وقوع أمرٍ ما على هيئة ما يؤدي إلى إصدار حكم جازم تجاهه بالصحة أو الخطأ، بالقبول أو الرفض ... الخ الأحكام المصدرة بشأنٍ ما. كما أن قيام الأكثرية بفعل الشيء كافٍ لإصدار حكم بصحته ... وإن كان خطأً!

وعلى الرغم من ذلك فقد يرفض الإنسان الحقائق والوقائع المكرورة أمامه وذلك لوجود عائق شخصي يمنعه من تقبلها، مثل حادثة مروعة هائلة نزلت به، فأدت به إلى إصدار حكم نهائي تجاه المسألة، أو نظر مغلوط إلى وقائع مكرورة سابقة، ومن ثم

يستمر الحكم المسبق سارياً على الرغم من مخالفته لما هو مشاهد وواقع ومنظور ومكرور!! وبالإضافة إلى التكرار والتجارب المروعة والميول الشخصية وتقليد الآخرين وتصور تطبيق القيم والمُثل، فهناك الأحكام الصادرة عن نظر سليم وتمحيص للأمور ووضعها في نصابها!!

وأكثر البشر –في جوانب عدة من حياتهم– أسرى للقناعات التي كوّنوها في مرحلة الطفولة، سواءً كانت مغلوطة أو غير دقيقة أو غير صالحة، فيستمرون برؤية الأشياء وفهمها وتفسيرها تبعاً للتصور الطفولي!! وذلك لأن هذه القناعات تكررت بشكل أكبر من غيرها، فلقد استغرقت شهوراً وسنينا في تكونها، في مرحلة كان العود لا يزال خضرا يانعا، ومن ثم ظل التأثير باقيا على الرغم من استغلاظ النبتة واستوائها على ساقها!! بينما (قد) لا يحتاج الإنسان إلى مثل هذه الفترة لتكوين قناعاته .. كناضج!

والأحكام المستقاة من التجارب المكرورة غالباً ما تكون أقرب إلى الصواب، إذا خلت من الهوى والميل الشخصي، وكانت مبنية على نظر سليم وعلم صحيح بالأمور!! وللأسف الشديد فإن كثيرا من البشر يصدرون أحكاما "ظنية" تجاه أمرٍ ما، ومع تكراره وعدم ظهور ما يخالف هذا الحكم الظني –أو يؤكده!!–، فإنه يترسخ عند الإنسان قناعة بصحة حكمه!!

ولا يحتاج عامة البشر إلى صدق النتائج بنسبة 100% لإصدار الأحكام بصحة القناعة، وإنما يكفيهم صدق النتيجة في الأكثرية الغالبة، ليصدروا الأحكام.

ومن أخطر العوامل التي تلعب الدور الرئيس في تشكيل عامة قناعات الإنسان تجاه الحياة، الدين الذي يؤمن به الإنسان ويتبعه وينفذه، والذي يقدم له تصورا كاملاً عن الحياة!! وعلى الرغم من أن الدين هو المنظار الذي يرى به كثير من البشر دنياهم، إلا أن نظرتهم ل "المنظار" نفسه تختلف، تبعا للفرقة أو المذهب الذي ينتمي إليه الإنسان! وتبعا لطريقة تلقيه لهذا الدين، فهل هو ممن لُقنه تلقينا أو ممن قلّد الآخرين فيه أو ممن نظر فيه وتفكر واستخرج منه في نهاية المطاف تصوراً للحياة وللمثل

والمبادئ وللإله ولدوره!!

وعلى الرغم من أن أي إنسان لا يستطيع أن يحيط بأي مسألة علما، وذلك لتشعبها واتصالها بغيرها، إلا أن هناك من يرون أن نظرتهم للأمور هو نظرة محيطة تماما بها من جميع الجوانب، أو على أقل تقدير هي أكثر النظرات إحاطة، بينما نظرات الآخرين لها من زاوية غير صحيحة، ناهيك عن عدم إحاطتها!!

وعامة البشر ينظرون إلى قناعاتهم كأمور مقدسة لا يجوز المساس بها، فهم يعتبرونها جزءً منهم، ومن ثم فإن محاولة تغييرها من قبل الآخرين هي محاولة للقضاء عليهم! وطمس هويتهم! ومن ثم فإننا نجد أكثرنا يرفض أي اقترابٍ للآخرين من هذه القناعات، ومن ثم يتقوقع على نفسه رافضا أي محاولة للتغيير أو للاستماع! لذا فمن الأنجع أن يكون الموقف من القناعة موقفا ذاتيا وليس خارجيا، فيتوقف كل منا مع قناعاته لينظر هل هي نافعة أم ضارة، هل هي قابلة للتغيير أم هي مما يجب الخضوع له؟! هل هي سليمة أم غير سليمة، هل لا تزال مناسبة له أم لم تعد مناسبة، هل لا تزال صحيحة؟!

السلفية والعقل

أول ما نبدأ به نقدنا هو موقف السلفية من العقل، فكيف ترى السلفية دور العقل[27]

[27] العقل في اللغة كما عرفه ابن فارس في: مقاييس اللغة، الجزء الرابع، ص. 69: "العين والقاف واللام أصلٌ واحد منقاس مطرد، يدلُّ عُظْمُه على حُبْسة في الشَّيء أو ما يقارب الحُبْسة."

والناظر في القرآن يجد أن مشتقات "عقل" وردت فيه: 49 مرة وكلها وردت بصيغة فعلية. أي أن القرآن لم يذكر أي صيغة اسمية لكلمة "عقل" ، فلا نجد في القرآن "عقل" أو "عقول" أو "عاقل" أو "معقول" إنما تأتي دوما بصيغة فعلية "يعقلون، تعقلون، عقلوه."، ونحن وإن كنا نرى أن "العقل" ليس التوصيف الأمثل لجامع العمليات "الفكرية!" للإنسان ، وإنما هو دور محدود من أدوار قلب الإنسان! ونرى أنه: "تلك العملية الفكرية التالية لاستقبال المدركات والتي لها القدرة على التعامل وتحويل المعطيات والتصرف في الأحوال المختلفة طبقا للموقف الذي فيه المرء بما لا يسبب له ضررا آجلا أو عاجلا ." ولكن نظرا لأن الكلمة المستعملة والشائعة في الباب هي كلمة " العقل " فإننا سنستعمل لفظة " العقل" كما يستعملها الآخرون.

في الدين والإيمان؟!

الناظر في الفكر! السلفي يجد أنه قد رفض التصور الفلسفي اليوناني الذي يعتبر العقل جوهراً قائما بذاته. واعتبر العقل شاهداً وليس حاكماً، وسلطانه هو في الإذعان والتصديق، فهو غريزة وضعها الله في الإنسان ليعقل بها، ومن ثم فهو غير مستقل في إدراكه، ودور العقل في تأويل القرآن وتفسيره هو ما تحمله العبارات من معاني واعتماد ما جاءت به الآثار. ويرفض المذهب السلفي "علم الكلام" بأي شكلٍ كان، لأنهم يرون أن هذا لم يكن منهج السلف في الاستدلال، القائم على تقديم الدليل النقلي، وهو الأحق بالإتباع.

ولا يعني هذا أن السلفية تمنع إعمال العقل في الأمور الدنيوية، فللعقل أن يجتهد ويُبدع بشرط ألا يخالف اجتهاده وإبداعه النصوص الدينية "النقل". أي أنه على الإنسان أن يؤمن سواء وافق هذا الأمر عقله أو خالفه، وفي هذا يقول أبو القاسم الأصبهاني: "واعلم: أن فصل ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألة العقل فإنهم أسسوا دينهم على المعقول، وجعلوا الإتباع والمأثور تبعاً للمعقول، وأما أهل السنة، قالوا: الأصل في الدين الإتباع، والمعقول تبع، ولو كان أساس الدين على المعقول لا ستغنى الخلق عن الوحي، وعن الأنبياء، ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء، ولو كان الدين بني على المعقول لجاز للمؤمنين أن لا يقبلوا شيئاً حتى يعقلوا[28]"

والاختلاف حول العلاقة بين العقل والنقل، وأيهما يخضع للآخر، والتوفيق بينهما إذا وُجدت شبهة تعارض، اختلاف قديم، أدلى فيه علماء المسلمين بدلاهم للقضاء على هذه الإشكالية، واستقر القول فيه على تأويل النص إذا خالف العقل مخالفة صريحة. وهذا لا يتفق مع المنهج السلفي الذي لا يراه من صريح الإيمان، فنجد الإمام ابن تيمية ينقد في أول كتابه: "درء تعارض العقل والنقل" القانون الذي وضعه المتكلمون للتوفيق بين العقل والنقل، فيقول: "قول القائل: إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية

---

[28] أبو القاسم إسماعيل الأصبهاني، الحجة في بيان المحجة، الجزء الأول، ص.347.

أو السمع والعقل أو النقل والعقل أو الظواهر النقلية والقواطع العقلية أو نحو ذلك من العبارات فإما أن يجمع بينهما، وهو محال لأنه جمع بين النقيضين، وإما أن يردا جميعا، وإما أن يقدم السمع وهو محال لأن العقل أصل النقل فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحا في العقل الذي هو أصل النقل والقدح في أصل الشيء قدح فيه، فكان تقديم النقل قدحا في النقل والعقل جميعا، فوجب تقديم العقل، ثم النقل إما أن يتأول وإما أن يُفوض، وأما إذا تعارضا تعارض الضدين امتنع الجمع بينهما ولم يمتنع ارتفاعهما. وهذا الكلام قد جعله الرازي وأتباعه قانونا كليا فيما يستدل به من كتب الله تعالى وكلام أنبيائه عليهم السلام وما لا يستدل به ولهذا ردوا الاستدلال بما جاءت به الأنبياء والمرسلون في صفات الله تعالى وغير ذلك من الأمور التي أنبئوا بها وظن هؤلاء أن العقل يعارضها وقد يضم بعضهم إلى ذلك أن الأدلة السمعية لا تفيد اليقين (...) ومثل هذا القانون الذي وضعه هؤلاء يضع كل فريق لأنفسهم قانونا فيما جاءت به الأنبياء عن الله فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنوا أن عقولهم عرفته ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعا له فما وافق قانونهم قبلوه وما خالفه لم يتبعوه. وهذا يشبه ما وضعته النصارى من أمانتهم التي جعلوها عقيدة إيمانهم وردوا نصوص التوراة والإنجيل إليها.[29]" اهـ

ولقد وصل الإمام في نهاية المطاف إلى أن مُنزل الوحي هو خالق العقل ومن غير الممكن أن يحدث تعارض بينهما، لأنه يعلم ما ومن خلق وهو اللطيف الخبير، فإذا حدث تعارض بين العقل والنقل، فإما أن النقل لم يثبت –وهذا مع السنة– أو أن العقل أساء فهم النقل.

والذي أوجد هذه المشكلة بين المتكلمين والسلفية هو أنهم لم يتعاملوا مع القرآن تبعاً للمنهج الذي ذكره الرب في كتابه، وهو منهج: "التأويل[30]"، والذي يعني باختصار

---

[29] أحمد بن تيمية الحراني، درء تعارض العقل والنقل، الجزء الأول، ص. 7.

[30] لا نستعمل مصطلح "التأويل" تبعاً للاستعمال الأصولي غير الصحيح، وإنما تبعاً للاستعمال القرآني، ولقد عرضنا لمسألة المنهج الأمثل في التعامل مع القرآن في كتابنا الأول –غير مطبوع– : لماذا فسروا القرآن، فيمكن للقارئ الرجوع إليه للإطلاع على المدلول الدقيق للكلمة وتأصيلنا للمنهج في الكتاب. وهو موجود على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com/ar

شديد: التدقيق الشديد في فهم مفردات الكتاب بالهيئة التي ذُكرت عليها، وإسقاطها على الواقع، والتوقف فيما لا يستوعبه العقل أو ما قد يجد فيه تعارضاً مع الواقع، تسليماً بقصر علمه وعجز منطقه، وأن هذا مما لمّا يأت البشرية تأويله وسيظهر لهم فيما بعد.

ولما ألغى أو تناسى العلماء مسألة المرحلية في فهم كتاب الله، أي احتوائه "معلومات" تعلو عقول البشر في هذه المرحلة، قابلتهم معطيات تعلو عقولهم وعلومهم ... فظنوا أنها تصادمها، فكان أن وضعوا كُتباً لتفسير كتاب الله! ولرفع هذا التعارض قاموا بلي مفردات الكتاب وفهمها على غير ما استعملها منزل الكتاب وسمّوا فعلهم هذا "تأويلاً"!! فزادت الإشكالات المختلقة إشكالات جديدة، وحُسبت أقوالهم وتفسيراتهم على كتاب الله.

والإشكالية تكمن في أن العلماء –بما فيهم ابن تيمية نفسه– حاولوا أن يقضوا على مسألة وجود تعارض بين العقل والنقل، بحيث تصل إلى درجة الصفر المئوي، بحيث لا يوجد أي تعارض ولو بنسبة أقل من 1 إلى ألف في المائة! فكان أن قالوا بما قالوا، كتأصيلٍ من المتكلمين وكرد من ابن تيمية والسلفيين.

بينما لا يتعامل الناس بهذا المنطق نفسه في حياتهم، وكما بيّنا سابقاً في حديثنا عن القناعات، فإن الإنسان يكفيه سريان الشيء في الأعم الغالب للحكم بصحته وقبوله، ويطبقون هذا في تعاملهم مع الدين، فكل المؤمنين بأي دين في العالم، بما فيهم المسلمون وأنا وأنت، لا يفهمون ولا يحيطون ببعض المسائل في دينهم، كما أن بعض المسائل قد تُحير عقولهم، إلا أنهم يقبلون الدين ككل، ولا تُسبب لهم أي إشكالية، لاعتقادهم أن الحكم المستقى من مجمل أحكام الدين هو حكم صحيح وأن القصور منهم هم أو من المفسرين للنصوص[31].

---

[31] لذا نود أن نلفت انتباه معظم الباحثين في مقارنة الأديان إلى أن المؤمن لا يكفيه عرض بعض التناقضات ليحكم على دينه بالبطلان، وإنما عليه مناقشه أصل الدين أولاً، ثم الالتفات بعد ذلك إلى الفروع.

وحتى لا يقال أن هذا ليس منهجاً علمياً وإقرارٌ بوجود التناقضات، نقول: يتميز الدين الإسلامي عن غيره، بأن نصه المقدس نفسه هو الذي أخبر أتباعه أنه يحتوي أموراً تعلو –ولا تناقض– عقولهم، ومن ثم فهي ليست محاولة من العلماء للقضاء على تناقضات موجودة، وإنما إعلام مسبق بأن الكتاب يخلو من الاختلاف، ويعلو العقول، فطبّقوا منهجكم المعهود في قبول الكل لموافقة الأكثر الغالب لعقولكم.

نخرج من هذا بأن المنهج السلفي في خضوع العقل للنقل، ورفض التأويل هو المنهج الأصح، إلا أن هذه الحكم لا يسري إلا بعد أن يوافق النقل للعقل في الأعم الغالب، وهذا يجرنا للسؤال التالي:

لماذا أسلمتَ؟

سؤال قد لا يكون كثيرٌ منا قد سأله نفسه، إلا أنه سؤال محوري في فهم علاقة العقل بالنص، فلماذا أسلم المعاصرون لمحمد، ماذا رأوا في القرآن حتى أقنعهم أنه وحي من الله وليس من كلام محمد؟! وإذا كانوا هم قد رأوا أشياء دفعتهم للإيمان، فماذا رأيت أنت لتؤمن بأن القرآن وحي إلهي؟! بعبارة أخرى: هل إيمانك عن دليل أم عن تقليد؟! للأسف الشديد فإن أكثر المسلمين مسلمون لأن آبائهم مسلمون، لأنهم لُقنوا منذ

صغرهم أن الإسلام هو الدين الصحيح، وأن القرآن ليس له مثيل وأن كتب الآخرين كتب ضلال ... الخ الأمور التي رُبّوا عليها، حتى صارت من "القناعات البدهية" لديهم، إلا أنهم إذا سُئلوا عن الدليل على كون القرآن كلام الله فلن يقدموا إلا تلك الإجابة البالية التي لا تُسمن ولا تغني من جوع، من كونه كلام فصيح ليس له مثيل، عجز العرب البلغاء عن أن يأتوا بمثله!

وبغض الطرف عن أنه هو نفسه لا يعرف وجه البلاغة والفصاحة في القرآن التي بها سبق غيره، إلا أن هذه الإجابة تعني أن القرآن ليس فيه حجة علينا لأننا بلغتنا الحالية

نكاد نكون من الأعاجم، وكذلك ليس حجة على الأجانب لأنهم لا يعرفون العربية، وحتى لو تعلموها فلن يستطيعوا أن يستشعروا النص القرآني!!

والله تعالى لم يأمر عباده بالإيمان استناداً إلى استشعار أو استطياب وإنما دعاهم إلى الإيمان استنادا إلى الآيات التي يرونها في الكون حولهم والتي يوافقها كلام الله، وتؤيده وتؤكده، والسؤال هنا: هل آمن السلف بالقرآن لهذا أم لأنهم رأوه أكبر من عقولهم؟! نقول: ما لا شك فيه أن الصحابة آمنوا بهذا لأنهم عايشوا هذا ومروا به، ورأوا كيف تنزَّل القرآن ليعالج القضايا والمواقف التي يمرون بها، إلا أن الظاهر (من خلال النصوص المروية عنهم في فهم كتاب الله والتعامل معه) أن من جاء بعد الصحابة لم يؤمنوا بالقرآن لهذا، وإنما لأنهم رأوا نصاً يفوق كلامهم بشكلٍ لا يمكن أن يصدر معه من بشر، فكان أن توقف بعضهم وكان أن خاض آخرون فقالوا فيه بغير علم، وحُسبت أقوالهم على القرآن والإسلام، لأنهم من التابعين الذين رأوا الصحابة وخالطوهم!!

ثم خالط المسلمون الأعاجم والذين لا يستشعرون العربية ولا يفهمونها أصلاً، ولم يجد أكثر ذلك الجيل ما يقدم به القرآن لهؤلاء ككتاب إلهي يلزمهم الإيمان به، على الرغم من عُجمتهم! فكان أن فُسرت الكثير من آياته تفسيرا غيبياً قائماً على التهويل والنسبة إلى الذات الإلهية، وكان أن وُضعت وأُلفت الكثير من الروايات التي تنسب المعجزات إلى الرسول الكريم، لتكون دليلاً على أن القرآن من عند الله! فإذا كان الشخص الذي حدثت له كل هذه المعجزات أتى بكتاب فهو حتماً من عند الله!

وهكذا انقلب الحال، فبدلاً من أن يشهد القرآن لمحمد، بدلاً من أن يكون هو الحجة! أصبح الرسول بمعجزاته هو الدليل على أن القرآن من عند الله! واستمر الحال على ما هو عليه إلى يومنا، المسلمون يولدون فيربون على قدسية القرآن وتميزه، فينشئون على هذه القناعة، بدون الإيمان بما آمن عليه الصحابة.

ولا يعني هذا أننا نقول أن المسلمين لم يجدوا في القرآن إلا البلاغة، وإنما وجدوا فيه

جوانب أخرى كثيرة، مثل الإيمانيات (العقيدة) السليمة المُعرفة بالإله الموافقة للعقل، ووجدوا فيه تشريعات راقية تنظم أمور حياتهم، ومواعظ بليغة من أحوال الرسل السابقين مع أقوامهم[32]، وإجابات عن الأسئلة الإنسانية الخالدة ... وغير ذلك، إلا أنها كلها تُقدم بمنطق وبشكلٍ مقلوب، قائم على غموض كتاب الله واحتياجه إلى تفسير .. من البشر!

سيستغرب القارئ قولنا هذا ويعده من غريب القول أو شاذه، ويتساءل في قرار نفسه: وما المشكلة في أن يُفسر القرآن، وهل يمكننا الآن فهم القرآن بدون تفسير؟! فنقول: المشكلة الكبرى التي لم يعد أحدٌ يراها مشكلة هي: كيف أومن بكتابٍ لا أفهمه؟! وكيف يكون كلام الله الهادي غامضاً يحتاج إلى تفسير؟ إن المسألة ليست مسألة فصاحة وعدمها وأن السابقين كانوا فصحاء ففهموا القرآن أمّا نحن فلم نعد نفهمه، فأنت مطالب بالإيمان كما طولبوا، وإلا فكيف يكون القرآن حجة على الملحد العربي قبل الأجنبي ؟!

إن هذه الفصاحةُ والبلاغة لم تنفع العلماءَ في أن يحددوا مراد الله ومعاني مفردات كتابه في كثيرٍ من المواطن ولم تمنعهم من أن يختلفوا في فهم الكلمة الواحدة على أكثر من ثلاثين وجهاً!! إن المفترض في كتاب الله أن يكون حجة على الخلق، حتى ولم يفهموا بعض المفردات المذكورة فيه، فتكون السورة ككلٍ آيةً بينة، وإن غاب عنهم معرفة مدلول بعض الكلمات! إن الإشكالية الكبرى التي عانى –ولا يزال يعانيها– كتاب الله، هي: التعضية، التي تعامل بها السلف بعد الصحابة معه، الذين فهموا القرآن ككلمات وجُمل منفردات ولم يفهموه كسورة تقدم موضوعاً واحداً، والذين ضيعوا الملابسات التي أُنزلت فيها السور، وابتدعوا أحداثا أخرى زعموا أن آيات من القرآن أُنزلت من أجلها! فحاولوا أن يفهموا كلام الله، كل جملة بمفردها، بل

[32] شتان ما بين "القصص القرآني" وما بين الخرافات المنتشرة بين المسلمين، والمعتمدة كتفسير! للقصص القرآني، ولقد عرضنا لها في كتابنا: "قصص القرآن، القراءة القرآنية الأولى"، وبيّنا أن أكثر المشهور المعروف هو قطعاً لا علاقة له بما قصّه الله في كتابه، وإنما تصورات خرافية تهويلية، وأن منهج الرحمن في الرسالات ومطالبة البشر بالإيمان ليس قائماً بحال على المعجزات!

وكل كلمة أحياناً، فكان أن أتوا بأقوال ما أنزل الله بها من سلطان، وجاء من بعدهم فسار على دربهم في التخمين والخرص في معرفة مراد الله في كتابه!

الوحدة الموضوعية والإيمان

قال بعض السلف أن القرآن منه ما أُنزل آيات ومنه ما أُنزل سوراً، بل وقالوا أنه تم تعديل بعض الآيات بإضافة بعض الكلمات إليها، عندما استدرك الصحابة أو أساءوا الفهم!! وبما أنه أُنزل آيات، فكل مجموعة آيات تناقش قضية ما، والله سبحانه لعلة ما جمعها في سورة واحدة، والسور التي أُنزلت سوراً كاملة كانت على نفس الموال، فلقد جمعت موضوعات مختلفات، ومن ثم فعلينا أن نفهم كل آية بمفردها! أمّا الله تعالى فقال في كتابه الكريم أنه أنزل القرآن ك: "سور" ولم يقل في آية واحدة أنه أنزل ك: آيات منفصلات!

ولقد عرضنا في كتابنا: "القرآن سورة واحدة، جزء عم نموذجاً[33]" لهذه القضية بالتفصيل، وبيّنا أن القرآن ما أُنزل إلا على هيئة سور، يتساوى في ذلك السوار الطوال كالبقرة وآل عمران والقصار كالإخلاص والكوثر، وبيّنا أن القرآن كله سورة واحدة كبيرة، مقسمة إلى سور متصلة ببعضها، بحيث تتناسب خواتيم السورة مع فواتيح التالية لها، وتفصل السورة ما أجملته السابقة لها وهكذا، وكذلك معنى مطالبة (وليس: تحدي) البشر بأن يأتوا بسورة من القرآن، كما بيّنا أن لكل سورة موضوع واحدٍ تعرض له وتناقشه، (ولا يعني كون السورة تناقش موضوعاً واحداً أنه عنصر واحد، فأي "موضوع إنشاء" يكون له عناصر متنوعة، إلا أنها كلها تندرج تحت موضوع واحد)، كما بيّنا كيف أن تحديد الموضوع الذي تناقشه السورة يلعب دوراً حاسماً في تحديد معاني المفردات وإلغاء الاختلافات الكثيرة حولها، من خلال فهم المفردة في سياقها

---

[33] الكتاب غير مطبوع، ويمكن تحميله من موقعنا الشخصي: أمر الله للدعوة والدراسات القرآنية: www.amrallah.com/ar

الخاص وسياقها العام في السورة ككل.

وما قدمناه في ذلك الكتاب هو تصحيح للمسار في التعامل مع كتاب الله، وعلى أقل تقدير هو وجه وجديد من أوجه "إعجاز" القرآن، إلا أنه لكونه يخالف كثيراً من الروايات المدسوسة والتي أسيء فهمها ولأنه يخالف أقوال السلف ولأنه أظهر وسيظهر بإذن الله وفضله أن نسبة ليست بالقليلة من أقوالهم لا علاقة لها بالنص القرآني ولا يمكن قبولها كتفسيرٍ له بحال، لهذا سيرفض السلفيون القول المنطقي الذي يطالب بفهم سور كتاب الله كأي نص مترابط يناقش موضوعاً ما، وسيصرون على التمسك بالمنهج الذي يتعامل معه كجُمل مُقطعة!!

ولأنه سيبين كذلك أن "الإيمان التلقيني" الذي اتبعه السلف –وسار عليه الخلف– ليس هو الإيمان الذي أُنزل من أجله القرآن، وإنما "الإيمان التذكيري" الذي جاء به القرآن. الإيمان القائم على مخاطبة الإنسان بما هو معروفٌ لديه أصلاً ودفعه للتفكر فيما حوله، فينشأ عن ذلك "إلزام ذاتي تبصيري"، نابعٌ من إبصار المرء أهمية السير على هدي القرآن وأضرار مخالفته على الفرد والأمة قبل أن يكون خوفاً من عقاب ولا طمعاً في ثواب، فالقرآن لم يأت ليعرف الناس أن الصدق والأمانة أمرٌ جيد أو أن الكذب والخيانة أمرٌ قبيح، وإنما باعتبار أنهم عارفون لهذا بالفعل، ومن ثم يُثبت الصادق الأمين ويُحذر الكاذب الخائن ويلومه، ويُذكر بعاقبة كلٍ منهم، سواءً بما جرى وكان فعلاً وكذلك بما سيكون في الغد واليوم الآخر، وكذلك هو تذكيرٌ بأن التبريرات المقدمة لعبادة دون الله ولتبرير القبيح واستباحته غير مقبولة، لذلك سماه ربه: "الذكر".

ولا تظهر مسألة "الإيمان التذكيري" القائم على التفكر والنظر في الكون وآيات الله حول الإنسان والوقائع التي تجري حول الإنسان ومقارنتها بالقرآن، ومن ثم اعتمادها كبرهان على صدق القرآن، لا تظهر جلية إلا من خلال فهم القرآن كسور ذات وحدة موضوعية وليس كآيات متفرقات.

ولا يعني هذا أن الكتاب لم يحتو "تلقيناً"، فالجانب التلقيني كان في الغيبيات التي ليس للعقل سبيلٌ إليها، وفي بعض الأحكام التي اختلفت العقول فيها، فقدم القرآن فيها القول الفصل، فكان أن جعل السلف كل الكتاب تلقينياً وتعاملوا مع غير المسلمين ومع الأجيال التالية باعتبار أن الله أنعم عليهم بأنه عرفهم أن الصدق حسنٌ والكذبَ قبيح!!

ونقدم للقارئ العزيز نموذجين لفهم سور القرآن كنصوص ذات موضوع واحد، تطالب بالإيمان من خلال العقل والنظر والتذكير، وكيف يمكن اكتشاف المناسبات الحقيقة التي أُنزلت فيها السور وإن لم يكن هناك روايات حول أسباب نزولها.

سورة الأحزاب

سورةٌ فرغ المفسرون أولها من مضمونها فجعلوه بلا داعٍ[34]، لأنهم لم يعرفوا موضوع السورة ولا المناسبة التي نزلت فيها، والذين ذكروا وقائع كسبب لنزول هذه الآيات ذكروا روايات غاية في الضعف، لا علاقة لها بالسورة، أما نحن فنقول أن السورة تدور في فلك: "تثبيت النبي والمؤمنين على أحكام الله".

ونوضح أكثر فنقول: نزلت أحكام العلاقات الأسرية في بعض سور القرآن، مثل سورة البقرة والمجادلة، وكان المسلمون يلتزمون بها، إلا أن الكافرين كانوا رافضين لهذه

[34] وذلك في تبرير المفسرين لقول الله للنبي: "اتق الله" فكيف يؤمر النبي بالتقوى؟ فتفذلك الإمام الفخر الرازي فقال في تفسيره: مفاتيح الغيب، الجزء الخامس والعشرون، ص.164: "الأمر بالشيء لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به إذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبي عليه السلام كان متقياً فما الوجه فيه؟ نقول فيه وجهان: أحدهما: منقول وهو أنه أمر بالمداومة فإنه يصح أن يقول القائل للجالس اجلس ههنا إلى أن أجيئك، ويقول القائل للساكت قد أصبت فاسكت تسلم، أي دم على ما أنت عليه والثاني: وهو معقول لطيف، وهو أن الملك يتقي منه عباده على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه، فالنبي لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأول ولا بالمعنى الثاني، وأما الثالث فالمخلص لا يأمنه ما دام في الدنيا. وكيف والأمور الدنيوية شاغلة والآدمي في الدنيا تارة مع الله، وأخرى مقبل على ما لابد منه" اهـ

الأحكام، وكانوا يصرون على الأعراف التي نشئوا عليها، ومن ثم أتوا للنبي الكريم يطالبونه بالعدول عن أمر الله، وقبول الأحكام والأعراف التي يقولون بها، -وربما وعدوا النبي الكريم بالدخول في الدين إذا هو استجاب لهم، وربما هددوه- وجاء بعض المنافقين ليصدِّقوا على كلامهم، محاولين أن يلينوا جانب الرسول تجاه هؤلاء الكافرين، بترغيبه أو بترهيبه من هؤلاء.

فنزل الأمر من الله للنبي بتقوى الله، وبالنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، فالله كان عليما حكيما في تشريعه، ومن ثم فلا وزن لاعتراض معترض. وأن عليه أن يتبع ما يوحى إليه من ربه، فهو خبير بما نعمل فلا يخفى عليه تنفيذنا، كما أن على النبي أن لا يهتم بهؤلاء الكافرين، وعليه أن يتوكل على الله، وكفى به جل وعلا وكيلا.

ثم يبطل الله العليم للنبي دعوى الكافرين المجادلين في تشريعات الأسرة، بقولهم بأن من شرع هذه التشريعات الجاهلية كان يختلف عن باقي البشر، بأن كان له قلبان[35]، فيقول أنه ما جعل لرجل من قلبين في جوفه، وما جعل الأزواج أمهات وما جعل الأدعياء أبناء، ويبين أن هذا قول باطل، ويقدم البديل الحق.

ثم يشد الله من أزر النبي العظيم بتعريفه أنه والمؤمنون أسرة واحدة، فهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، -فإذا مات منهم أحد وليس له وارث يرثه النبي، وإذا كان عليه دين يدفعه الرسول عنه- وأزواجه أمهاتهم، وأولوا الأرحام أولى ببعض في كتاب الله — كما جاء في سورة الأنفال-. وليس هذا الأمر بالجديد، فهو كذلك إذ أُخذ من النبيين الميثاق، وأُخذ الميثاق غليظا، ليسأل الصادقين عن صدقهم، هل نفذوا المواثيق التي واثقوا مع الله، أما الكافرون فلهم عذاب أليم.

كما ذكّر النبي بنعمته عليه بأن جعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، يُذكر المؤمنين بأنه نصرهم على الأحزاب بأن أرسل عليهم ريحا وجنودا لم يروها، فنصرهم عليهم على

[35] خطر ببالي أنه المراد من ذلك أنه لا يمكن اجتماع الوحي واختلاقات البشر في قلب واحد، وأنه لا يوجد إنسان له قلبان يكون في أحدهما إيمان وفي الآخر كفر، ثم لاحظت أن الله تعالى لم يقل "ما جعل الله لبشر" وإنما قال "لرجل"، فعرفت أن ذلك رد على دعوى أطلقها الكافرون مرتبطة باعتراضهم على أحكام الأسرة!

الرغم من حالة الفزع التي انتابتهم عندما جاءت الأحزاب وكيف زُلزلوا، وكيف نطق ضعاف الإيمان بتثبيط المؤمنين وكيف تهرب فريق منهم من هذا الموقف، على الرغم من أنهم قد عاهدوا الله من قبل.

ثم يأمر الله النبي بإعلام المؤمنين أن الفرار لن ينفع فليس في هذا النجاة، وأنه لا عاصم من الله ولا ولي من دونه ولا نصير، ومن ثم فعليهم الثبات، ثم يشد أزر المؤمنين بتعريفهم أنه يعلم المعوقين الناطقين بالسوء الجبناء أصحاب الألسنة الحداد، ومن ثم فعلى المؤمنين ألا يسمعوا لهذا الفريق، حتى لا تُحبط أعمالهم كما أحبط الله أعمال هؤلاء الذين لا نفع منهم تقريبا.

ثم يلفت نظر المؤمنين إلى الذين يجب عليهم الاقتداء بهم، فلقد كان في الرسول في ثباته في ذلك الموقف أسوة حسنة، ولقد تصرف المؤمنون كما ينبغي ونطقوا بالحق، وبفعلهم هذا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، سواء نفذوا ما نذروه والتزموه أم لم، الشاهد أنهم ما بدلوا، ولثبات هؤلاء رد الله الذين كفروا بغيظهم، وكفى الله المؤمنين القتال ومكنكم من أنصارهم من أهل الكتاب وأورثكم أرضهم وديارهم جزاءً للمؤمنين على صبرهم وصدقهم الله عهده. (وذِكْر الآيات التي تتحدث عن القتال وسط آيات السورة التي تدور جلها في فلك الرد على المعترضين على أحكام الأسرة هو لتثبيت المؤمنين وصدهم عن الميل إلى اقتراحات الكافرين رغبة في إيمانهم أو في دفع أذاهم، فيُذكرهم الله أنه نصرهم بدون قتال وأنعم عليهم بأرض لم يطئوها، فلا حاجة لهم إلى هؤلاء الكافرين. كما أن فيه ردٌ لما جاء في السورة الماضية التي ذكرت سؤال الكافرين عن الفتح، فيقول الله أن الذي نصرهم بدون قتال قادر على تحقيق وعده!)

وبعد أن ذكر أن الله أورث المؤمنين ما أورثهم، يؤمر النبي بتذكير أزواجه بأن كونهن أزواج النبي هو تكليف قبل أن يكون تشريف، فليس معنى أن الله فتح على المؤمنين وأغنمهم من الغنائم الكثير أن يطالبن بالتقلب في نعيم الدنيا، فإن كنتن تردن الحياة الدنيا فسيسرحكن النبي، أما إن كنتن تردن الله والرسول والدار الآخرة فللمحسنات

الأجر العظيم، ثم يبين لهن اختلافهن في الثواب والعقاب عن غيرهن، كما أنهن لسن كباقي النساء –إن كن متقيات، وليس لكونهن أزواج النبي فقط– فعليهن أن يراعين المنزلة التي هن فيها، وفي نهاية المطاف فالعبرة بالطاعة، فسواء كان المطيع رجلا أم امرأة فله المغفرة والأجر العظيم، لأنه ليس للمؤمن خيار إلا الطاعة.

ثم يذكَّر النبي بموقفه من زيد وكيف أنه كان يأمره بإمساك زوجه، لأنه يخشى كلام الناس واتهاماتهم له، وكيف أن الله زوجه إياها بعد أن طلقها زيد، وأنه ليس عليه حرج فيما فرضه الله، فلقد فرض مثل هذا لمثله من الأنبياء، الذين عليهم أن يبلغوا رسالات الله ولا يخشون أحدا إلا الله، ثم يرد على القائلين بأن محمدا جعل ابنه يطلق ليتزوجها، بالقول بأنه ما كان أبا لرجل منهم حتى يقال ذلك، فهذا قول بالباطل، وإنما هو رسول الله وخاتم النبيين!

ثم يأمر الله المؤمنين بذكر الله وتسبيحه لأنه أنزل إليهم وحيه ليخرجهم من الظلمات إلى النور[36] وبذلك سيكونون من أصحاب السلام ولهم الأجر الكريم الذي أعده لهم، ومن ثم فلا ينبغي الالتفات لغير وحي الله!

كما يذكر النبي الكريم بدوره وأنه أُرسل لكذا وكذا، ومن ثم فعليه ألا يطيع الكافرين

---

(36) اختلف المفسرون في توجيه قوله تعالى "هو الذي يصلي عليكم" فقال بعضهم أن الصلاة بمعنى الرحمة! على الرغم من أن الله قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [سورة البقرة, ١٥٧]، فعطف الرحمة على الصلوات وهذا يقتضي التغاير، وقالوا أن الصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار! وقالوا أن صلاة الله على النبي هي الثناء عليه، أما نحن فنفهم أن الصلاة هي إنزال الوحي على النبي الكريم، بدليل أن الله قال أن صلاته ليخرجنا من الظلمات إلى النور، فإذا نظرنا في الآيات التي تتحدث عن الإخراج من الظلمات إلى النور وجدنا مرتبطة بإنزال الوحي: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [سورة المائدة, ١٦]، فالله يهدي بالوحي ويخرج من الظلمات إلى النور، ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [سورة إبراهيم, ١]، ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥﴾ [سورة إبراهيم, ٥]، ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٩﴾ [سورة الحديد, ٩]، فيكون الصلاة علينا أنه ينزل علينا هداية تخرجنا من الظلمات إلى النور.

والمنافقين وألا يهتم بأذاهم –وهو الكلام الذي قالوه وسيقولونه بشأن زواجه– وأن يتوكل على الله– ثم يؤكد للمؤمنين أنهم ليس لهم على أزواجهم اللائي لم يدخلون بهن عدة، وإنما لهن المتاع. ثم يُعرف النبي الكريم بأحكامه مع نساءه وكذلك يعرف المؤمنين بأحوالهم مع بيوت النبي ومع أزواجه، كما يعرف أزواجه بأحكامهن في الظهور والاختفاء.

ثم يقول الله للمؤمنين أنه ليس فقط يصلي عليهم، وإنما هو وملائكته يصلون على النبي، –فهو على هداية في كل أحواله– ومن ثم فعلى المؤمنين أن يصلوا عليه بأن يقولوا له ما يريحه ويذهب غمه، ويخضعوا له الخضوع التام، أما الذين يؤذون الله ورسوله بقولهم أنها تشريعات غير صالحة أو محاباة لمحمد فملعونون، والذين يرمون المؤمنين بالباطل فقد احتملوا بهتانا وإثما، ومن ثم فعلى النبي أن يأمر النساء بالاحتشام في الثياب حتى لا يُتقول عليهم بالباطل، وهذه خطوة أولى فإن لم تنته تلك الأصناف الحقيرة لنجعلنك تتتبعهم متابعة شديدة كأنك ملاصق لهم، ومن ثم فلا يجاورونك فيها إلا قليلا! وسواء ظلوا أم رحلوا ففي أي مكان هم ملعونون!

وهذه سنة الله مع المخالفين.

وكما خُتمت السورة الماضية بالسؤال عن الفتح يذكر هنا سؤال الناس عن الساعة ويرد عليهم، –وتأتي السورة التالية كاملة: سبأ، في الرد عليهم وفي التفصيل بهذا الشأن– وتبين كيف أن قولهم هذا راجع لتحريض السادات لهم على هذا. ثم ينهى المؤمنين عن ترديد كلام المنافقين والكافرين حتى لا يكونوا مثل الذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها، وعليهم أن يتقوا الله ليغفر لهم ويصلح لهم أعمالهم، فالإنسان بطبعه ظلوم جهول في حمل الأمانة ولكن مع تقوى الله يعينه وييسر له حملها ليؤديها على أكمل وجه، وهذه الأمانة كانت لتميز الناس وتفرقهم، فيكون منهم المنافقين والمشركين المعذبين والمؤمنين الذين يتوب الله عليهم إذا أخطئوا في أعمالهم.

وكما رأينا في السورة فإن الله تعالى يُذكر المؤمنين بمواقف سابقة مرت بهم، وكيف أن عليهم الثبات اتعاظاً بما حدث سابقاً، فلقد نصرهم الله في مواقف سابقة أكثر شدة، ومن ثم فعليهم الثبات الآن والسمع والطاعة لله وليس للمرجفين!

سورة القلم

مفتَتح سورة القلم نموذج طيب للتفسيرات الغيبية العجيبة، التي قيل بها لأنه لم يُعرف مناسبة نزول السورة ولا موضوعها! ولأن الله تعالى ابتدأ السورة بالقلم وبما يسطرون، كان لزامٌ أن يكون هذا القلم شيئاً عجيباً، وإلا لماذا أقسم الله به؟! فقال بعض السلف أن القلم مخلوق كبير من خلق الله، بل هو أول ما خلق الله وأمره أن يكتب ما كان!! وما سيكون منذ بداية الخلق إلى قيام الساعة، ثم قالوا أن ما يسطرون هو ما تسطره الملائكة من أعمال العباد.

ومن ثم جعلوا الحديث عن قلمين، قلم كاتب بذاته كبير هائل .. وأقلام في أيدي الملائكة تكتب بها أعمال العباد. والسؤال الرئيس هو: ما العلاقة بين هذه الأقلام وبين كون الرسول ليس بمجنون وأنه على خلق عظيم؟! وما الدليل على أن "الذين يسطرون" هم الملائكة أصلاً؟!

إن المتدبر للسورة يجد أن الساطرين هم المشركون وليسوا الملائكة، والقلم هو قلم عادي، هو الذي كتبوا به نبوءة لهم حول الرسول.

وإجابة على تساؤل القارئ: وما الدليل على هذا؟ نقول: أيهما أولى: أن يكون من "يسطرون" هم من "سيبصرون" (لاحظ اتفاق الفاعل في السياق الواحد) أم يكون هؤلاء غير أولئك؟! إننا إذا نظرنا في آخر سورة الملك السابقة للقلم –تبعاً لمبدئنا القائل باتصال سور القرآن– وجدنا الرب العليم يقول: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً

سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ۝٢٧ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٢٨ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ۝٣٠﴾ [سورة الملك, ٢٥-٣٠]

فالقائلون هم الكافرون المكذبون والخطاب في الآيات عن فريقين، يدعي أحدهما: فريق الكافرين، أن الفريق الآخر: المؤمنين، على ضلال، فيؤمر النبي بالرد عليهم بقول كذا وكذا. ثم تبدأ سورة القلم بقوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ [سورة القلم, ١-١٥]

فتقول للرسول إنك لست بمجنون ولك أجر وعلى خلق وأن ربك هو أعلم بالضالين، ففي هذا السياق المتصل أليس الأولى أن يكون الساطرون هم الكافرين، هم نفسهم الذين قيل فيهم: "فستبصر ويبصرون"؟! أما أن نجعل الساطرين هم الملائكة والمبصرين هم الكافرين فاقتطاع من السياق لا دليل عليه! وعندما توصلنا إلى أن الساطرين هم الكافرون ظهرت لنا المناسبة التي نزلت فيها السورة والتي تصبح معه موضوعا متناسقاً وليس مجرد كلمات متناثرة (بحجة أن الله يقسم على ما يشاء بما يشاء!!) فوصلنا إلى أنه قد: قام الكافرون بسطر كتاب/ كتب معارضة للإسلام وللرسول، ترميه بالكذب والبهتان وأنه مفتون لظنهم أن كتاب النبي من أساطير الأولين، فقالوا نسطر كما سطر. وقالوا فيها أنه سيهلك وستبطل دعوته في متأخر الزمان، وسطروا هذا الكتب من باب أنها ستكون شاهدة على حال كلٍ منهم وكيف

أنهم هم الذين سيكونون المنتصرين وأن محمداً هو الذي سيندحر.

فأنزل الله تعالى سورة القلم ليثبت الرسول الكريم ويبين له خسران هؤلاء، فيؤكد له أنه ليس بمجنون بنعمة الله (فالمشركون كانوا يشككون الرسول ويقولون له أنه لا يأتيه وحي ولكنه ضرب من الجنون أصابه، فقال الله أنه ليس بمجنون بنعمة الله: الوحي/ الكتاب) وأن للرسول أجر لن ينقطع وأنه على خلق عظيم. فستبصر ويبصرون من المفتون فيكم –والأيام خير دليل– والله أعلم بالضالين، وبعد أن يُنهى الرسول عن الاستماع إليهم، يرد الله على المشركين بنبوءة مضادة وهي أن المكذب الكبير سينزل به ضر وهو أنه سيوسم على الخرطوم.

ثم تُذكر قصة أصحاب الجنة للرسول لتبين له أن البلاء الذي نزل بالمشركين هو كما حدث مع أصحاب الجنة جزاءً لإقسامهم ونيتهم فعل الشر في المستقبل، وأن العذاب الذي سينزل بهم كذلك، وأنه لا يمكن أن تكون عاقبة المسلمين كالمجرمين بأي حال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ ... وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤٧﴾ [سورة القلم, ٣٦-٤٧]، فما هو مستندكم في حكمكم هذا بضلال محمد وفتنته وهلاكه هو ومن معه؟! فهل عندكم كتاب موحى به أم أيمان على الله أم شركاء، ويبين الله للنبي أن تأجيل نزول العذاب بهم من باب الكيد بهم فهو إملاء لينظر كيف يعملون، ثم يسأل الكافرين:

أم عندكم الغيب فتكتبون هذه الكتب؟!! ولم يقل لنا المفسرون ماذا كان يكتبه المشركون الكافرون، وإنما جعلوا القضية عامة، مع أن الآية واضحة في أن المشركين كانوا يكتبون أشياء –لم تقل الروايات ما هي ولم تجر لها ذكرا– يعارضون بها النبي وهي ضرب من الرجم بالغيب، ثم تُختم السورة بتثبيت النبي الكريم للاستمرار على دعوته فلا يتخلى عنها حتى لا يكون كصاحب الحوت، وبالتأكيد على أنه ليس بمجنون وأن ما يأتيه ذكر للعالمين.

وندعو القارئ الكريم لقراءة السورة بهذا المنظور الجديد مجددا، ليرى فيها قضية إيمانية عقلية مرتبطة منسجمة بعيدة عن الاقتطاع والتعضية والغيبيات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

الإيمان المعكوس

كما بيّنا فإن الله تعالى طالب الناس بالإيمان لأنه قدّم لهم في كتابه آيات بيّنات لا يمكن أن يكون للإنسان أمامها أي موقف عقلي سليم سوى الإيمان والإتباع. وهذا الإتباع الواجب على الإنسان المخاطب بالقرآن هو إتباع النص نفسه وليس إتباع أقوال الغير من المُجزئين له والذين جعلوه عضينا.

والنظرية السلفية كلها قائمة على مقدمة معكوسة مفادها: "سلّمتَ أنت أن القرآن كتاب الله وأن بعضه يعلو العقول، وأنت كمسلم عليك إتباع كتاب الله. وأنت لا تفهم بعض الأجزاء فيه، ولقد ورد عن السلف، الذين هم أعلم بكتاب الله –والذين مدحهم الله– بعض الأقوال والتفسيرات له، ومن ثم فعليك الإيمان بهذه الأقوال، وإلا فإنك من الضالين المخالفين لمسلك المؤمنين."

وهذا المسلك يعني بكل بساطة أن على المسلم أن يستعمل عقله لمرحلة معينة ثم يتركه بعد ذلك ويتبع السلف فيما يقولون، فحدود عقلك أيها الإنسان أن تنظر في الكون وتتدبر وتتفكر حتى تحكم أن كتاب الله هو وحي، وبعدها توقف عن التفكير والتدبر وتنح أيها العقل جانباً وعليك التسليم بما زاده السلف حول كتاب الله فهو الحق اليقين الذي ستضل بتركه!!

إن هذا المنطق هو منطق التلميذ "البليد" الذي أُلزم بمنهج مادة دراسية، ولأنه "بليد" لم يحاول أن يُعمل عقله في فهم المادة التي سيُمتحن فيها، وإنما أخذ يبحث عن أقوال التلاميذ السابقين، الذين مدح الأستاذ أدبهم وأخلاقهم –وليس ذكائهم!– لينظر

كيف فهموا هذا المادة، واكتفى بما وصل إليه منهم، ثم أخذ يدعوا كل التلاميذ الآخرين ألا يذاكروا ولا يتفكروا ولا يُعملوا عقولهم لفهم المادة، وأن يأخذوا ما جمعه من أقوال المهذبين السابقين!! بل وأخذ يرمي الرافضين لهذا المسلك بالضلال وبأنهم سيرسبو، فكيف يُعملوا عقولهم قبالة أقوال المهذبين السابقين الذين مدحهم الأستاذ وأثنى على أخلاقهم؟!!!

إن الله تعالى لم يلزم خلقه بأقوال آخرين، وإنما أنزل كتابه لهم كلهم سواء ليتدبروه، وأنزل كمّا من الغيبيات في كتابه، وأمرهم بالتسليم بما لم يحيطوا به علماً في الكتاب، وسلّمنا بما لم نحط به لأننا وجدناه بين ما وافق الفطرة والكون والوقائع الجارية، أمّا أن نُسلم بأقوال بشر، لأنه ربما سمعوها عن أو من الرسول الكريم، لأنه من غير المعقول ولا المقبول أن يكون هؤلاء الصالحين قد افتروا على الله ورسوله كذباً أو تكلموا بغير علم، فهذا منطق!! عجيبٌ مفاده رمي كتاب الله بالنقصان وبالغموض وإيمان بغير ما أنزل الله!

ونذكر كلمة قد تؤخذ علينا ولكنه الحق: إن المنطق السليم يُحتم علي كمسلم أريد أن يكون إيماني على بيّنة وليس تقليداً لآبائي أن أضع نفسي موضع الجيل الأول من البشر (المشركين الذين أسلموا) الذين خوطبوا بالقرآن أول مرة وطلب إليهم أن يؤمنوا به، وأتساءل: هل طولبوا بالإيمان بأمور غير مفهومة تحتاج إلى تفسير وإلى تحديد لمدلولها؟! بداهةً لقد خاطبهم الله بأمور جليات بينات، فما ذكره الله عن عالم الغيب واليوم الآخر، جليٌ ظاهر أنه يتكلم عن عالم الغيب واليوم الآخر، وما ذكره الله في عالم الشهادة، جلي أنه في دنيانا المنظورة المشاهدة، ولم يكونوا بحاجة إلى أن يحدد لهم أحد في ماذا كان هذا!!!

أما المتمسلفون فيلزمون المسلمين بالإيمان بأقوال السلف وجعلها الحاكمة على كتاب الله والمحددة لمعانيه، بدلاً من أن يُفهم هذا من النص ذاته، ويعدون مخالفتها مخالفة لكتاب الله!! وتبعاً لهذا المنطق الذي يرمي كتاب الله بالغموض فإنه ما كان

على المشركين الإيمان به، وكان عليهم الانتظار حتى يأتي السلف فيقولون لهم أن القلم هو كذا وكذا ومراد الله من كذا هو كذا!! إن كتاب الله واضحٌ جلي لمن يفهمه كما ينبغي أن يُفهم أي كلام، لمن يفهمه أنه كلام متصل ذو موضوع، أمّا من يفهمه ككلام منقطع غير ذي موضوع فسيظل في حيرته باحثاً عن أقوال آبائه من السلف وغيرهم من الخلف، ويظل إيمانه إيمان تقليد غير قائم على النظر والاتعاظ والتذكر وإنما على إلغاء العقل!!!

تكوين القناعة السلفية

يخطأ من يظن أن السلفية قائمة على إلغاء العقل والخضوع للنص، فالعقل السلفي له الدور الأول والأكبر في فهم النص وتوجيهه إلى وجهة معينة، إلا أن هذا العقل السلفي لا يتبلور إلا بعد أن يمر بمرحلة "تكوين القناعة السلفية"، تلك المرحلة التي يتم فيها إجراء عملية "غسيل مخ" للمتلقي، -أو بمعنى أدق: عملية تعطيل عقل-، فلسببٍ ما يريد الإنسان المسلم أن يلتزم، سواءً استجابة لصوت الفطرة أو لمعاصٍ كثيرة اقترفها، فيشعر أنه بعد عن الله فيريد العودة إلى الله حتى يطهر نفسه، فيبحث عمن يساعده في الوصول إلى الله، فيجد أمامه تيارات عديدة تمثل التدين والإسلام، وللتيار السلفي جاذبية خاصة لما له من مظهر متميز يُشعر بأنه "يختلف عن الآخرين"، فيتوجه إليهم الإنسان وعقله في هذا المجال صفحة بيضاء لا يعرف ما الصواب وما الخطأ، فيُستقبل وتبدأ عملية غسل المخ، بالإلحاح والتركيز والإعادة والإطالة على أن عقلك ليس كعقل السلف وأنك لن تكون أعلم منهم ولا يمكنك أن تجاريهم، وأنهم الأشد حرصاً على الدين، وهم من حاربوا المنحرفين الفاسدين ووقفوا في وجه البدع والضلال، ... الخ، ومن ثم فخذ ما آتوك وكن من الشاكرين!

ومع التكرار المدعم بأدلة وبأمثلة من كتب السيَر، والقائم على مقدمة جذابة "قرآن وسنة بفهم سلف أهل الأمة" -والتي تجذب حتى بعض الدارسين للعلم الشرعي-،

ينشأ لدى المتلقي قناعة أن هؤلاء السلف بشرٌ ليسوا كالبشر وأنهم جيلٌ غير قابل للتكرار، ومن ثم فعليه الخضوع لهم وإتباعهم.

ومع التوجيه لقراءة كتب علماء بعينهم والاستماع إلى مشائخ بعينهم، والنهي عن الاستماع لغيرهم والتحذير منهم ومن ضلالهم، والنهي عن القراءة منفرداً، لأنه "من كان شيخه كتابه فخطأه أكثر من صوابه"، ومن ثم فاقرأ قراءة ممنهجة على يد الشيوخ، وإذا حاك في صدرك شيء فاسأل الشيخ، والذي سيقنعه غالباً أن قبول هذا الجزء الذي يخالف العقل هو من تمام الإيمان، لأنه يخالف الهوى وليس العقل!! وربما يقدم له تبريراً عقلانياً.

وهكذا يُربط العلم والدين لدى المتلقي بأفرادٍ بعينهم، يعملون على تخويفه من التيارات الإسلامية الأخرى. وبعد هذه العملية الطويلة تتكون لديه قناعة راسخة بصحة المنهج السلفي وأنه هو المنهج السليم الذي لا يمكن أن تشوبه شائبة، قناعةً مثل تلك القناعات التي تتكون لدينا في طفولتنا ويعسر علينا تغييرها، ومن ثم تصبح هذه القناعة منطلق تفكيره، فلا يرى إلا بعين سلفية ولا يسمع إلا بأذن سلفية ولا يفكر إلا بعقل سلفي!

وبعد أن نشأ لديه العقل السلفي يتجاوز هذه المرحلة ويبدأ في استخدامه في الدفاع عن آراء السلف وفي الجدال والمخاصمة، فالسلفيون لا يكتفون بتقديم الحكم هكذا ويطالبون المتلقي بقبوله، وإنما يعملون على تزيينه وعرض فوائده –وهذا خطابٌ للعقل– كما يقدمون أحياناً تبريرات عقلية جيدة لآرائهم –على الرغم من أنهم يقولون دوما: إن الدين لا يؤخذ بالعقل، ولو كان قائماً على العقل لكان مسح بطن الخف أولى من ظهره.–، وكثيراً ما يقدمون تبريرات ساذجة للتحريم أو للإيجاب، تبين المنظور الضيق الذي ينظرون به للأمور والعقلية التي يفكرون بها.

ومن ثم يجب علينا ألا نقول: إن السلفية تعادي العقل أو تعطله، وإنما نعرف أن منهجها قائم على تعطيله مؤقتا حتى يُغرس لدى المتلقي القناعة السلفية، ثم يُطلق

ويُعمل مرة أخرى في الدفاع عن ولتزيين المنهج السلفي وفي الرد على أهل الأهواء والبدع.

منهج انتقائي

يدعي السلفيون أنهم ليسوا فرقة وإنما هم الأصل، ومنهجهم هو ببساطة: "قرآن وسنة بفهم سلف أهل الأمة"، وهو شعار جميل، إلا أنه شعار فضفاض لا يمكن تطبيقه على أرض الواقع وهم أنفسهم لم يطبقوه، فلم يكن الصحابة ولا التابعون شخصاً واحداً ولا عقلاً واحداً ولا رأياً واحداً، وإنما كان لهم الكثير والكثير من الآراء والاختلافات، وسمعنا عن رُخَص ابن عباس وعزائم ابن عمر بل وشواذ ابن مسعود، فأي الصحابة نتبع وأيهم نترك؟! وهل تُعتبر كل الآراء المتناقضة من باب اختلاف التنوع؟! فهل يمكن القول مثل بأن الخروج على الحاكم هو من هدي السلف اقتداء بالحسين رضوان الله عليه؟!

فإن قيل أن العبرة بإجماع الصحابة فهو الحجة الملزمة، نقول: لم تنقل الروايات كل أقوال وأفعال الصحابة، فحتى مع وجود الرواية عن ثلاثين من الصحابة مثلاً، فهذا لا يعني أن هذا هو رأي الباقين من الصحابة أنفسهم! ناهيك عن أنه من الممكن أن تكون هناك الروايات عن العديد من الصحابة إلا أن مدارها على راوٍ أو اثنين ليس أكثر. ولو فرضنا وجود إجماع الصحابة على مسألة، فهذا لن يحدث إلا مع وجود دليلٍ صريح فيها، ومن ثم فالعبرة بالدليل وليس بإجماعهم!

ناهيك عن مخالفتهم أحياناً لإجماع الصحابة، فقد ذكر ابن رشد "وقال قوم: لا يجوز قتل الأسير. وحكى الحسن بن محمد التميمي أنه إجماع الصحابة.[37]"، والسلفيون يقولون بجواز قتل الأسير، مخالفين كتاب الله .. والإجماع!

---

[37] أبو الوليد بن رشد الحفيد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، الجزء الأول، ص.382.

فإذا تركنا عهد الصحابة وانتقلنا إلى التابعين وتابعي التابعين وجدنا أن كتب المِلل والنحل تذكر عدداً هائلاً من الفرق والاعتقادات التي ظهرت وانتشرت بين المسلمين، ولكلٍ مستند من كتاب وسنة، فلم لم تؤخذ أقوالهم؟! وبغض النظر عن هذه الفرق التي قد تُرمى بالضلال –اعتماداً على فهم بعض السلف!!– فلم الاعتناء بالإمام أحمد بن حنبل وإعطاءه وأقواله قدسية خاصة هو وسفيان الثوري وبن عيينة؟ فأين باقي أقوال السلف والعلماء؟ لن نقول لماذا أُهمل إنتاج أبي حنيفة، فهو عقلاني! وإنما نتساءل: لماذا الإعراض عن تراث الإمام مالك والذي يعد من مؤسسي مدرسة أهل الحديث؟ ألعقلانيته ومقاصديته ولعدم جموده أم لمخالفته منهج ابن حنبل؟ ولماذا يكاد يختفي تراث علماء السلف فلا يكاد نجد له أثر إلا مع ظهور ابن تيمية وتلميذه ابن القيم – رحمهما الله رحمة واسعة–؟! ألم ينتج المسلمون في هذه الفترة علماً ناجعاً؟!

إننا لا ننقص هؤلاء العلماء قدرهم وإنما نقول إن هذه الانتقائية في إبراز بعض الأسماء واعتماد أقوالها وإعطاءها منزلة خاصة ضيّعت على المسلمين تراث علماء عظام ربما لا يقلوا علماً أو فكراً عن هذه الأسماء المحدودة التي يكاد تراث الإسلام يُحصر فيها، وليس من العدل ولا الإنصاف أن نطمس جهدهم ونظل ندور في دائرة إعادة طبع وإنتاج فكر أفرادٍ بعينها!

ناهيك عن أن دعوى "فهم سلف الأمة" دعوى غير حقيقية، فالسلف لم يقدموا فتاوى لكل القضايا ولا أفهاماً لكل آي القرآن، ومن ثم فإن الحكم بأن الاجتهاد الذي قال به الشيخ السلفي في قضية معاصرة هو "بفهم سلف الأمة" يعني أن الشيخ تقمص عقول السلف ومن ثم حكم أنهم لو كانوا موجودين في زماننا هذا لقالوا بما قال به! وهو زعم باطل، فلا يستطيع أحد أن يحكم بأن شخصاً واحداً سيفتى في مسألة ما برأي، فما بالنا بتقمص عقول جيلٍ أو أجيالٍ كاملة؟! وكيف هو الوضع مع اختلاف مشائخ السلفية في المسألة الواحدة، فأي فهمٍ لهم هو المتقمص لفهم سلف الأمة وأيهم ضال منحرف؟! لا حجة لأحد على الآخر فكلها اجتهادات!

لذا يمكننا القول أن إدعاء السلفيين أنهم ليسوا بفرقة (أو: جماعة) وإنما هم الأصل إدعاء يناقضه الواقع، فهم كغيرهم أخذوا من التراث وتركوا، فلماذا يكونون هم فقط الأصل؟!

ولا يقتصر الانتقاء على قبول بعض الأفراد ورفض غيرهم، وإنما يتعداه كذلك إلى الانتقاء في عرض الآراء، فهم ينقبون عن ما يوافقهم من أقوال السابقين ويكاثرون بهم، ويقللون من كمّ من خالفهم، فيعرضون العديد من المسائل الخلافية باعتبارها من المجمَع عليه، أو اعتبار الخلاف فيها مما لا يُعتد به! وإشكالية "إنكار الخلاف" راجعة إلى أخذهم عن مشائخهم –كما يأخذ المريد الصوفي من شيخه– فلأن مشائخهم أجمعوا على قولٍ، وإن كان للعلماء من غير مدرستهم قول أو أقوال أخرى! إلا أنها مما لا ينهض لأقوال علماءهم، ومن أشهر الأمثلة على هذا عرضهم الآراء في حكم القناع "النقاب"، فيصورون المسألة للسامع كأن القول بوجوب تغطية الوجه هو الأصل وهو قول أكثر العلماء، على الرغم من أن من قالوا بإباحة كشف الوجه هم الأكثر، وهي طريقة غير موضوعية ولا محايدة.

الهرم المقلوب

تأخذ المعرفة في أي علمٍ من العلوم أو فنٍ من الفنون شكل "هرم مقلوب"، رأسه الصغيرة بأسفل وقاعدته بأعلى، وذلك لأن أي علم يبدأ بسيطاً، كنظرية أو كقواعد محدودة، ثم يبدأ هذا العلم في الاتساع، عن طريق إضافة التطبيقات إلى هذه النظرية، واقتناع العديد من العلماء والمفكرين بهذه الأصول، فينطون تحتها، ويعملون على إضافة قواعد وتأصيلات وتفريعات أخرى منطوية تحت الأصل الجامع الذي اقتنعوا به، كما يعملون على إزالة الإشكاليات التي قد تواجه النظرية الأصلية، لأدلة عقلية أو علمية مقابلة قد تعارض النظرية أو لفهمٍ خاطئ لها، ومن ثم فيعملون على إظهار انسجام النظرية مع العقل والعلم، وإظهار عدم الدقة في الفهم، وبهذا يردون على

الشبهات المثارة حول النظرية الأصل.

وهذا واقع ثابت لم يشذ مع أي فلسفة أو علم أو فن أو دين! ولهذا كلما كبرت الفجوة الزمانية بين الأصل والحاضر ازدادت صعوبة دراسة أي فرعٍ من هذه الفروع على المتأخرين، لأنه يتحتم عليهم دراسة الأصل وما تشعب عنه، والمقارنة بينهما لأخذ ما يصلح من النتاج –وليس النظرية– والحكم ببطلان الباقي أو عدم مناسبته ومن ثم رَده[38]، وللاعتماد عليه في إضافة جديد إليه. إلا أن لهذا التأخر مزية عظمى في مواجهة هذه الصعوبة، وهي القدرة على الفهم الأفضل والأدق للنظرية الأصل، وذلك لأن كل جيل يقدم فهماً للأصل أو لأجزاء منه، وكلٌ يقدم فهماً تبعاً لخلفيته المعرفية وواقعه ومجتمعه، وهكذا تتراكم المعرفة تراكماً هرمياً مقلوبا، تتسع بتقدم الزمان.

إلا أن السلفيين لا يعنيهم هذا –أو لم يلحظوا هذا!– ويجزمون بأن الدين الإسلامي استثناء كبير للقاعدة، ويصرون على أن أفضل العلم الشرعي الحقيق الواسع العظيم هو ما كان مع السلف، وأن العلم تناقص بمرور الزمن! كما يصرون على أن المعاصرين لواضع النظرية هم أفقه وأعلم بها من كل من درسوها ودرسوا تفسيراتها المختلفة لقرون طويلة! وهو زعم مصادمٌ للأسس والنُظم العلمية والفكرية! فلا يعني معرفة الصحابة بمدلول بعض المفردات بينما خفي هذا المدلول على كبار المفسرين أنهم أفضل منهم علما!

إن الصحابة –مع احترامنا وحبنا لهم– كانوا مجموعة من أهل البادية يعيشون في مجتمعات بسيطة، لديهم بعض العلوم والمعارف القليلة، فلما أُنزل عليهم القرآن أذهلهم محتواه والأدلة التي يقدمها، فأقروا بأنه لا يمكن أن يكون من عند البشر فآمنوا، والواضح من الروايات أنهم أنفسهم لم يكونوا يفهموا بعض المواطن في

---

[38] ولهذا فإن فكر فرقة "القرآنيين" محكومٌ عليه بالشذوذ، ولن يُكتب له انتشارٌ واسع بين المسلمين، لأنه –كما بيّنا في كتابنا: القرآنيون مصلحون أم هادمون– فكر قائم على الصدام وقطع أواصر الصلات بين الحاضر والماضي، بل ومطالبٌ بمحو كل التراث القديم والبدء من الصفر في التعامل مع القرآن!

القرآن! (وهذا مما لا حرج فيه، لمعرفتهم بالمرحلية في فهم القرآن وأن هذا مما لم يأتهم تأويله)، والتراث الذي تركوه وقدموه هو تراث بسيط، لأن المجتمع العربي لم يكن بحاجة أصلاً لأكثر من هذا، فكيف تكون هذه الكلمات البسيطة هي العلم الوفير أو دالة على أنهم أعلم من كل الأجيال وأنه لن تُدرك منزلتهم العلمية؟! نعم نحن نقر أن لهم منزلة إيمانية وأخلاقية عالية لا تنازع، أما المحتوى العلمي الذي قدموه فهو بسيط تابع لمعارفهم! ولا يعني هذا أنه ليس لهم مزية تفردوا بها، فالمزية الكبرى في تراثهم هي اللغة التي تركوها، وذلك لأن كلامهم كان بنفس الطريقة والدلالات التي استعملها القرآن، قبل أن يطرأ الانحراف على مدلولات الكلمات – لأسباب عدة– فتُستعمل على غير ما وضعت له، ومن ثم تُفهم بفهم مختلف عما كان على زمن النبي الكريم وصحابته، لذا فإن علينا أن نصحح المقولة السلفية الشهيرة: "قرآن وسنة بفهم سلف أهل الأمة"، إلى: "قرآن وسنة بلغة زمن سلف أهل الأمة"

فليس فهم أحد حجة على غيره، وإنما العبرة باستعمال الكلمات، كيف كانت تُستعمل في زمانهم، فكثير من التفسيرات الخاطئة للقرآن وللسنة منذ بدء ظهور كتب التفسير راجعة إلى أن المفسر لم ينظر كيف استعمل القرآن ولا السلف هذه الكلمة، وإنما فهمها كما نستعملها في زماننا أو في زمانه فخرج بأقوالٍ عجيبة.

تقديس بشر

تقوم عقيدة السلفية على تنزيه الله وتقديسه وإفراده بما له من حقوقٍ على عباده، الذين عليهم الطاعة التامة، فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. والسلفيون وإن كانوا أقل مغالة في البشر من فرقٍ أخرى مثل الصوفية، إلا أنهم كان لهم نصيب في المغالاة، فمثلاً لأن الله هو الملك والحاكم ملك، وهو ظل الله في الأرض (كما جاء في الحديث الضعيف الذي رواه البيهقي: "قَالَ أَبُو بَكْرَةَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يَقُولُ: السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ أَكْرَمَهُ أَكْرَمَهُ اللهُ، وَمَنْ أَهَانَهُ أَهَانَهُ اللهُ[39]")، جعلت السلفية للحاكم منزلة خاصة ومعاملة خاصة فيلينون له ويدينون له بالطاعة التامة بل ويلتمسون له المبررات لأفعاله، ومن ثم فإنه لا يجوز الخروج عليه مهما فعل إلا أن يكفر، ولهذا كان له أحكاماً فقهية خاصة تختلف عن باقي المسلمين! وهكذا أصبح رجال الدين السلفيين! عوناً للحاكم بدلاً من أن يكونوا نصيري الرعية!

وليست إشكالية السلفية في معاملة الحاكم بالدرجة الأولى فهي لا تصل إلى درجة التقديس، فهذه الدرجة وهبها الفكر السلفي لبشر مخصوصين، وهم آبائنا الأولون "الصحابة والتابعون"، فجعلوا لهم منزلة تفوق منزلة المنهج نفسه (القرآن)، فالسلف وأفهامهم قاضون على النص، فتكفي مقولة من أحدهم ليصبح معناه شرقاً حتى لو كان صريح الدلالة في أنه في الغرب ولو كانت كل السورة ناطقة بأنه على عكس ما نُسب إليهم! فهم الأعلم والأدرى به!

ولا يقتصر الأمر على المخالفة في فهم القرآن فلو حدث وانتقدت فعلاً دنيوياً لواحدٍ من الصحابة فالويل كل الويل لك، أما لو سببتهم فأنت كافر أو على شفى حفرة من الكفر! أما أن تضع أقوالك مقابل أقوالهم فهذا يعني أنك تجاوزت كل الحدود والخطوط الحمراء والسمراء كذلك! فمن أنت حتى تقارن نفسك بتابعي التابعين، فكيف تجرؤ وتضع نفسك نداً للصحابة؟!

إن البشر بطبعهم يميلون إلى تمجيد آبائهم وأجدادهم والتمسك بما ورثوه عنهم، وإظهارهم بمظهر "الجيل الفريد" عن طريق عرض المناقب وإبرازها والتجاوز عن الأخطاء. ولم يكن المسلمون استثناءً، فظهرت هذه "الآبائية" بإعطاء الجيل الذي صاحب الرسول الكريم منزلة خاصة ليست لكل المسلمين بعدهم، وليس هذا بتقدير وإنما هو تقديس، فالتقدير يتعلق بالاحترام وليس بالأحكام! فلا يعني حبي الشديد لأبي –أطال الله عمره وأصلح حاله– ألا أخالفه أو أن أجعله مميزاً عن باقي الناس في

(39) أحمد بن الحسين البيهقي، شُعب الإيمان، الجزء التاسع، ص.478.

الحقوق.

ولا يقتصر الأمر على السلف وإنما يتعداه إلى الرسول الكريم نفسه، فنجد أن السلفيين يقدسون الرسول الكريم بدرجة قد تزيد عن الرب العظيم! وحتى لا يعترض السلفي أو ينفعل ندعوه لقراءة السطور القادمة:

إذا ذُكر اسم النبي "محمد"، ماذا يفعل المستمعون أو المتكلم نفسه؟ يتبعه بالصلاة والسلام عليه[40]، ومهما تكرر ذكر اسمه فمن المستحب أو الواجب على المؤمن أن يصلي على النبي الكريم، وإن لم يفعل فهو من الخائبين الخاسرين! (كما ورد في حديث مختلق منسوب إلى الرسول وجبريل!)، بينما نسمع اسم الله الأعلى يُذكر أمامنا مرارا وتكرارا فلا نحرك ساكنا ولا ننطق بكلمة، فلماذا التأدب مع الرسول دون الله؟! (قد يقول قائل: الصلاة على النبي الكريم دعاء له، والله لا يحتاج إلى هذا الدعاء! فنقول: لو كانت هذه هي النية لما كان هناك إشكال كبير، ولكن من يقولها يذكرها كتأدب مع الرسول ومن لا يفعل فهو لا يقدر النبي، فأصبحت في النهاية كذكر للنبي!!!) نرى الشيء الجميل فنقول: "اللهم صل على النبي" بدلا من أن نذكر الله، فنقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله!

يصعد الخطيب المنبر ويبدأ خطبته بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله! فيحمد الله في كلمات قلائل، ويأخذ الدقائق في الدعاء للنبي والثناء عليه وعلى آله وعلى أصحابه! أليس من الأولى أن يكون العكس، فيُثني على الله ويقدسه في دقائق ثم يدعو للنبي ولإخوته الغر الميامين من الأنبياء في كلمات قليلة!!

من غير المقبول أن يذكر مسلم اسم الرسول هكذا بدون أن يلقبه بلقب، فلو قال: قال محمد كذا، لاعتُبر مسيئا للأدب ولا يحترم مقام النبي الكريم! بينما يقول: قال

---

[40] يظن من يقول: اللهم صل وسلم على سيدنا محمد، أنه يمتثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ٥٦﴾ [سورة الأحزاب ,٥٦]، والله تعالى لم يقل أنه يسلم على الرسول، وإنما قال أنه وملائكته يصلون عليه، بينما أمرنا أن نصلي عليه، ونسلم تسليما ليس بقولنا السلام عليكم وإنما أن نسلم له، أي أن نخضع له ونطيعه، أي نسلم له نواصينا فيقودنا بما أمرنا الله به! لذا فإن التسليم هو تسليم للنبي وليس على النبي!!

الله بدون تحرج!! نعم هناك من يقول: قال الله تعالى[41]، ولكن المسألة نفسها عدم التحرج في أن يُذكر اسم الله بدون تقديس! والأولى تقديس الله العظيم فلا يُذكر اسم الله إلا ويتبع باسم من أسمائه الحسنى أو يسبق به، ويستحب التنويع، فيقال مرة: الله العليم، ومرة: الرحمن الخبير، ومرة: الخلاق العليم ... ولا يُذكر مجردا! وإذا حدث ونسي المتحدث فلا إشكال، فالأهم أن تكون القاعدة هي الثناء على الله.

كذلك يرى كثيرٌ من المسلمين أنه من إساءة الأدب "نداء" الرسول الكريم باسمه، ويرون أنه من الواجب أن يُسبق ب: "سيدي" أو بأي لقب، فيقولون: سيدي يا رسول الله! ولو قال شخص: يا محمد، لاحتاج إلى تقويم!! ولست أدري لماذا ينادون الرسول أصلا؟ إن الرسول ميت لا يسمع دعائهم! ولو سمع ما استجاب لهم، فليس له من الأمر شيء! ولكنهم جعلوا الرسول حيا في قبره يسمع من يصلي عليه، بل وتُعرض عليه أعمال أمته!! فإن رأي خيرا حمد الله وإن رأى غير ذلك ..!!

ولست أدري كيف تُعرض على الرسول أعمال أمته!! إن هذا لا يدركه ولا يتحمله إلا إله!! وعلى النقيض من ذلك نجد هؤلاء يدعون الله ليل نهار بقولهم: يا الله[42]! أليس من الأولى أن يُنادى الله مقدسا معظما، أليس الله هو الأولى بأن ينادى ب: يا سيدنا!

يستحلف أكثر العوام الآخرين بقولهم: والنبي! والنبي! بل ونجد كثيرا منهم يدعو ويقول: والنبي يا رب!!! فلماذا القسم بالنبي أصلا؟! والسلفيون وإن كانوا لا يقولون هذا إلى أنه راجع إلى أسلافهم في مدرسة أصحاب الحديث –وكذلك الصوفية– الذين عملوا على تقديس وتعظيم ما يختصون به، فأصبحت هذه الأشياء هي مظهر الدين عند العوام! ولذلك نجد المصريين يقولون: "هو أنا غلطت في البخاري"، مع أنه

---

[41] ارتبط ذكر اسم "الله" ب "تعالى" فلا يكاد يُذكر اسم الله إلا ومعه "سبحانه وتعالى" على الرغم من أن "تعالى" ليست من أسماء الله الحسنى!!

[42] بيّنا على صفحات موقعنا الشخصي: www.amrallah.com في بحث مطول بعنوان: التأدب مع الله، أنه لم يرد في القرآن ولا في حديث الرسول الصحيح ولا في الشعر الجاهلي قول: يا الله! والأخطاء التي تحدث من قولنا: "يا الله"وأنه من إساءة الأدب مع الله، وأن صيغة المخاطبة الصحيحة التي أمر الله بها هي: اللهم! أو نداءه ب: "رب" بدون: يا، فيرجع إليه من أراد التفصيل والاستزادة.

من المفترض أن يقال: وهل أخطأت في القرآن!!

يُسب الله عيانا بيانا جهارا نهارا ويُصور بما لا يليق به، ويُساء إلى دينه، ولا يحرك المسلمون ساكنا، بينما ينتفضون ويهبون في غضبة كبيرة إذا أُسيء إلى النبي، فهل النبي أكثر قداسة، أليس من الأولى أن نهب لربنا ولديننا؟! كما أنهم يرون أن من يسب الله إذا تاب تُقبل توبته ولا يُقتل، وكذلك تُقبل توبة من سب الرسول، إلا أنه يُقتل!!

يحرص المسلمون عامة والسلفيون خاصةً أشد الحرص على تطبيق السنن وعلى معرفتها والإلمام بها، ويرونها باب الدرجات العلى ومعيار التزام المسلم، على الرغم من أنهم لم يلموا بالقرآن ولم يعرفوا ما فيه، بينما يهملون ويتهاونون في تطبيق فرائض قرآنية لأنهم لم يعرفوا القرآن ولم يدرسوه! فهل الأولى تطبيق أمر الله المفروض المكتوب، أم ترديد بعض الأدعية والقيام ببعض الشعائر التي لا يأثم الإنسان بتركها؟! والقيام ببعض الأفعال التي ارتبطت بمناسبات وأسباب مخصوصة، ويرونها مقياس التدين؟! وحتى لا يتحذلق متفذلك فيقول: وما العيب في الجمع بينهما؟ نقول: لو فعل لكان حسن، بشرط أن يقدم أمر الله ويحافظ عليه ويداوم، فإذا حدث تهاون يكون في السنة، لا العكس! (وهذه النقطة نابعة من التعلم المقلوب للدين، فمن يطلب الدين يطلبه عند شيوخ السنة، فتراه يدرس الروايات والأسانيد، والأقوال في الأحاديث والروايات وتفسيرها! ورفع التعارض بينها! ولا يكاد يكون نصيب القرآن من هذا كله إلا الحفظ! أو دراسة مادة التفسير –المعتمدة على الروايات بشكل كبير!!–، باختصار: يتعلم المسلم دينه عبر الأحاديث بالدرجة الأولى والقرآن في الدرجة الثانية!) للنبي الكريم حضور بارز في حياة المسلم قد يفوق حضور الله نفسه! فنجد المشائخ يقولون أننا أتباع رسول الله! ويخاطبونا ب: أحباب رسول الله! ونجد من يقول: إذا أردت أن يحبك رسول الله فافعل كذا وكذا! ومن يقول أننا نتبع دين محمد! مع أن الدين لم يكن في يوم لمحمد فهو دائما وأبدا لله! فلماذا نُغيب الله عن عقل وقلب المسلم ونستحضر محمدا؟! لماذا لا يكون الله أولا وآخراً ودائما وأبدا؟!

أصبحنا ندعو للنبي في كل صلاة في التشهد فنقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ... الخ، وهذه الصيغة مما نجح الشيعة أو غيرهم من المقدسين للرسول وبيته وآله، -وتقديس الشيعة للرسول وآله من الوضوح بمكان، حتى أن المرء لا يحتاج إلى التعليق عليه!!- مما نجحوا في دسه على أهل السنة، الذين لم يفهموا معنى أمر الله للمسلمين بالصلاة على النبي ومن ثم جعلوا صلاتنا عليه أن نسأل الله أن يصلي عليه وعلى آله كذلك!

إذا قارنا كمّ الكتب عن النبي الكريم والكتب عن الرب العليم لوجدنا أن ما كُتب عن النبي أكثر مما كتب عن رب العالمين! وحتى لو كانا متساويين أو المكتوب عن الرب العليم الرحيم أكثر، فإن هذه الكتب لا تصل إلى العوام، بحجة أنها مما يصعب عليهم فهمه، فيُقدم لهم السهل اليسير!

وهكذا أصبح المسلمون يعرفون نبيهم ولا يعرفون ربهم! وعلى الرغم من أن الله عرف الناس به -بقدر ما يطيقون- في كتابه، إلا أننا اكتفينا من كل هذا بآية واحدة، وهي أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير! فلماذا أهملنا معرفة هذا وعرفنا تفاصيل دقيقة في حياة الرسول!! (ونغض الطرف هنا عن شطحات الشيعة والصوفية في حق النبي وقدره، مثل الذين يدعونه ويطلبون به وبآل بيته، ومثل الذين يتحدثون عن أزليته وأنه سبب خلق الأكوان، ... الخ، لأن هذا مرفوض من السلفيين ومن أكثر المسلمين! وإن كان من أكبر مظاهر تقديس النبي)

ونحن لا نريد أن نفرق بين الله ورسله ولا نريد أن نقلل من شأن الرسول الحبيب، فالله يعلم كم أحبه، (وقد بيّنت في كتابي "السوبرمان بين نيتشه والقرآن" أنه هو السوبرمان الأعظم)، ولكننا نريد ألا تزيد هذه المنزلة عن منزلة الله، نريدها أن تكون دوما تابعة لله وبعده فعلاً لا قولا! فلكي نعدل الكفة ونعيدها إلى الأصل الذي ينبغي أن تكون عليه، نقول لكل مؤمن: قدس الله وعظمه وأحبه من كل قلبك، واجعل كل ما عدا الله بعده -حتى الرسول- بعده، فهذا هو أصل الدين أن تحب الله من كل قلبك!

القرآن والسنة

الأصل في الإسلام هو القرآن والسنة تابعةٌ له، هذا ما يقر به كل المسلمين، إلا أن الناظر في سلوك السلفيين يجدهم يقدمون السنة على القرآن، لأنهم يرون أنها المدخل لفهم القرآن وأن محاولة فهم القرآن بدونها خطرٌ عظيم –إن لم يكن ضلالٌ مبين! "ولن تستطيع أن تفهم آية واحدة من القرآن بدون السنة"، كما قال لي أحد السلفيين!–، لذا يعتنون بحفظ المتون والأسانيد والاختلاف في الرجال، ويكتفون –غالباً– بحفظ القرآن في صدورهم، وذلك لأنهم رأوا أن السنة حاكمة على القرآن، وأن القرآن يحتاج إليها وهي لا تحتاج إليه!! وأن السنة تُحلل!! وتُحرم كما يُحلل القرآن ويُحرم، بل والسنة تنسخ القرآن وتُلغي أحكامه وتخصصها وتعممها ... الخ. وعامة المسلمين مذعن بأن السنة وحي وإن كان أقل درجة من القرآن!! لأنه وحي بالمعنى وليس باللفظ مثل القرآن!! والسؤال المحوري في هذه المسألة:

ما هي السنة؟!

هل كل ما قاله النبي الكريم وفعله هو من باب الوحي، أم أن بعضه وحي وبعضه ليس كذلك؟! لو قيل أن كل ما قاله أو فعله النبي الكريم كان وحياً فهذا يعني أن الدين لم يصلنا كاملاً وأنه قد ضاع جزء كبيرٌ من الوحي، فلم يصلنا بداهة كل ما قاله النبي الكريم وفعله، و"الدليل على ذلك جلي، وأبرز ما يؤكد هذا هو غفلة الروايات عن الجزء المكي من حياة الرسول، فلم يُنقل منه إلا الجزء اليسير جدا، وعامة النقل فيه على شكل رواية لوقائع، وقليلٌ ما ورد بصيغة أقوال عن النبي الكريم، فأين سنة العهد المكي؟ فإذا تركنا العهد المكي وقصدنا العهد المدني سنجد أن الأمر لم يسلم من الترك، فلقد خطب النبي الكريم في المدينة مئات من خطب الجمعة، ولم تصل إلينا هذه الخطب، أليست هذه الخطب أولى من غيرها من الأقوال لتكون سنة؟! فالرسول يُعرف المخاطبين بالدين، لا أنه يتكلم في مواقف مخصوصة! أضف إلى ذلك أن هناك الكثير من أقوال الرسول لم تنقل، وذلك لأن الرواية كانت ترتبط بالحاجة والموقف،

فقد يحدث الموقف الذي يستدعي أن يروي الراوي الحديث عن رسول الله، فإن لم يحدث فقد لا يروي، أضف إلى ذلك أن هناك بعض الأحاديث الضعيفة سندا والصحيحة متنا قد تكون صدرت عن النبي الكريم، ولا يُستند إليها، لضعفها.

والعقل يقول أنه طالما زِيد في الشيء فهو قابل للنقص، ولقد زيد في مادة الحديث بكثير من الروايات الموضوعة المختلقة، فالمقابل أن يكون فُقد الكثير من الأقوال النبوية الشريفة، فأي أقوال تنقل لمئات السنين لزاما أن لا تنقل كاملة، وإنما يهمل بعضها.

أضف إلى ذلك توزع السنة على الفرق الإسلامية المختلفة، فهناك من الروايات ما يتفرد به أهل السنة، ومنها ما تفرد به الشيعة ومنها ما تفردت به الإباضية ... وبداهة ليس ما تحصل عليه أهل السنة فقط هو الصحيح، فهناك صحيح عند غيرها، قل أو كثر، المهم أنه موجود، فما هي حجية هذه السنة عند أهل السنة، أيعدونها سنة أم يرفضونها لأنها لم تأت إليهم من رجالهم؟[43]" اهـ

كما يعني أن الرسول الكريم قد قصّر، عندما لم يأمر الصحابة بكتابة وتدوين كل سكناته وحركاته وإشاراته وكلماته، وناقض نفسه عندما نهاهم عن كتابة شيء عنه غير القرآن!! كما أن "بداهة العقول تقول أن النبي الكريم كان يأمر بأوامر بصفته قائد المسلمين وليس بصفته الرسول، ولقد وردت الأحاديث التي تؤكد هذه البدهية، ومن ذلك ما رواه مسلم وغيره –واللفظ لمسلم–: "عَنْ جُدَامَةَ بِنْتِ وَهْبٍ الْأَسَدِيَّةِ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنْ الْغِيلَةِ حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ."

وما رواه الترمذي في سننه: "عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ لِيَتَّسِعَ ذُو الطَّوْلِ عَلَى مَنْ لَا طَوْلَ لَهُ فَكُلُوا مَا بَدَا لَكُمْ وَأَطْعِمُوا وَادَّخِرُوا"

---

[43] عمرو الشاعر، القرآنيون: مصلحون أم هادمون؟ ص 210–211.

فالنبي الكريم همّ أن ينهى عن الغيلة، -وهي أن يجامع الرجل زوجه في فترة الرضاعة- ثم ذكر أن الروم وفارس يفعلون ولا يضر أولادهم، فترك النهي. وبداهة كان أمره هذا بصفته قائد المسلمين كتنظيم للمجتمع، فلو حدث وأمر النبي الكريم بهذا الأمر لوجدنا من يقول أنه أمر واجب! ومن يخفف فيقول أنه سنة! وينشأ الجدال والاختلاف.

ومن ذلك أيضا ما ورد في الحديث الثاني أن النبي الكريم نهى عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث أيام، وكان هذا بسبب قلة الطعام في ذلك العام، ثم أذن لهم في العام الثاني أن يأكلوا ويدخروا.[44]" اهـ

إلا أن عامة السلفيين يتمسكون في هذا المقام بآية النجم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [سورة النجم ,٣-٤]، ويقولون أن هذا ليس استنتاجاً وإنما القرآن هو من نصّ على ذلك.

"والاستدلال بهذه الآية لا يستقيم بحال، فسورة النجم سورة مكية، ولم يكن أهل مكة يجادلون بأي حال من الأحوال في مسألة حديث النبي الكريم، وإنما كان الجدال كله حول القرآن الكريم، فأتت الآيات لتؤكد أن الرسول الكريم ليس مختلقا لهذا القرآن، وإنما هو من عند الله عز وجل. وتبعا لقولهم هذا فلقد تلبس جبريل عليه السلام في النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأصبح النبي أداة يحركها جبريل كما يشاء، فلا يصدر عنه أي قول إلا وهو وحي! ولا أعتقد أن هناك عاقل يقول بهذا القول، أو يقول أن جبريل كان ملازما للنبي الكريم، فإذا حدث أي موقف أمام الرسول محمد، أخبر محمداً ماذا ينبغي عليه أن يقول أو يفعل! (...) والقائلون بأن السنة وحي لا يجادلون في هذا، ولا يقولون أن النبي الأكرم تحول إلى بوق، أو أنه شخصيته ذابت وضاعت، فما فكّر ولا خطط، وإنما يدخلونها من باب آخر، فيقولون: "مما يستدل به على أن من السنة ما ليس بوحي ابتداءً: الأفعال التي يفعلها النبيّ -صلى الله عليه وسلم-

---

[44] المرجع السابق، ص 215-216.

بمقتضى الجبّلة البشرية، ونقل ما يستدل به على أنها ليست وحيًا. وهذا مما لا أخالف فيه، لكني أسأل الدكتور: ألا يستدلّ العلماء كلُّهم على إباحة تلك الأفعال التي كان يفعلها النبيّ –صلى الله عليه وسلم– على وجه البشرية؟ هل كان أحدٌ منهم يقول أو يعتقد: أن هذه الأفعال يُمكن أن تكون محرّمة مع كون النبيّ –صلى الله عليه وسلم– كان يفعلها؟!! إذن فإقرار الله –تعالى– لتلك الأفعال الجبليّة من النبي، يجعل أقل ما يُستفاد منها الإباحة، والإباحة تشريع. كما أن الإقرار الإلهي لنبيّه – صلى الله عليه وسلم– وَجْهٌ من وجوه الوحي، كما قدّمناه. ولذلك نزلت تشريعاتٌ وقيود في بعض الأمور العاديّة البشرية: في الأكل والشرب واللباس.. وغيرها، ولا تردَّدَ أحدٌ من أهل العلم في الاحتجاج بها. وبذلك يتّضح أن قولي بأنّ السنة كلّها وحي حالاً أو مآلاً، يتناول أيضًا الأفعال التي كان النبيّ –صلى الله عليه وسلم– يفعلها على وجه الجبلّة والعادة؛ لأنّها مع الإقرار الإلهي تدل على الإباحة في أقل الأحوال.[45]" اهـ

وكما رأينا فالعلماء مقرون بأن ليس كل السنة وحي، إلا أنهم يجعلونها "وحي إقراري"!! أو دليلٌ على الإباحة! والإباحة لا تحتاج إلى دليل! وبغض النظر عن الإباحة فليس الاختلاف حولها، وإنما الاختلاف حول الأحاديث التي تأمر وتنهى، كيف نميز إذا كانت وحياً أم قالها النبي بصفته قائد المسلمين مثلاً؟!

لا يُشغل السلفيون أنفسهم بمثل هذا السؤال، ويقولون أننا نتبع النبي الكريم في كل ما ورد عنه! فنقول: لكلٍ الخيار في أن يُلزم نفسه ما يشاء، أما أن يُلزم الآخرين من باب الأخذ بالأحوط، ويُحرم ما أحل الله من باب "الأحوط"، ويرمي الآخرين بالمعصية والضلال من باب "الأحوط" فهذا ما لا يُقبل بحال، من أجل أمر لحالة مخصوصة بصفةٍ مخصوصة؟!!

ولكي يتجنب المرء التقول على الله عليه أن يكون على بيّنة فيما يقول، ومن ثم نعود إلى نفس السؤال: كيف نميز بين الصنفين؟! ليس لدى السلفيين ولا علماء أهل السنة

[45] المرجع السابق، ص 213–214.

عامة جواباً لهذا السؤال، لأنهم رفضوا منذ قديم الزمان الآلية المنطقية في التمييز، وهي: عرض السنة على القرآن، فما وافق أُخذ وما خالف رُد، وما تابع كان تأويلاً للقرآن وما انفرد كان من باب سنة العادة أو بصفة القائد فتعد من باب السياسة وليس الدين[46].

ويرفض السلفيون هذا المنهج، ويردون الروايات الواردة في المسألة لضعفها، ويصرون على قبول الأحاديث منفردة بذاتها بدون عرضها على القرآن. وأعجب من مسلك أهل الحديث في هذه المسألة، أليس الحديث الضعيف مقدماً على الرأي عند أحمد بن حنبل، لماذا لم يُقدموا هذه الأحاديث على آرائهم ويأخذوا بالأمر النبوي الوارد فيها بعرض الأحاديث على القرآن؟! هل لأن هذا المسلك كان سيقلل من دورهم في التصحيح والتضعيف أم لأنه رأوا أنه سيرد كثيراً من الأحاديث التي صحت عندهم سنداً؟ الله أعلم لماذا يرفضون ويتعصبون أمام هذه المسألة.

وليس في رفضهم عرض السنة على القرآن أي دليلٍ وإنما الرأي، لذا فيحق لنا أن نخالفهم فيه، ونتمسك بعرض السنة على القرآن، فليس لهم أن يُلزمونا بمنهجٍهم في التصحيح والتضعيف! إن "المشاهد هو قبول الاختلاف في المسائل الفقهية، بل وفي أصول الفقه، أما علم مصطلح الحديث وتصحيح الأحاديث وتضعيفها، فهو منطقة محظورة محاطة بسياج شائكة، لا بد أن تُدمي من يحاول الاقتراب منها! ولنا أن نسأل دارسي الحديث: لماذا التعامل وكأن قواعد علم مصطلح الحديث، منزلة من عند الله أو أن واضعها هو الرسول؟! إن واضعها بشر في مراحل زمنية طويلة متوالية، إلى أن استقرت على شكلها الحالي، فإذا خالفناها فلا حرج علينا في ذلك، طالما أن لنا مستندا في قولنا. ولو كان المنهج الذي ندعو إليه هو الذي التزمه علماء الحديث منذ بدء التأصيل لما وجدتم في نفوسكم أي حرج من هذا[47]!" اهـ

---

[46] عرضنا لمسألة "عرض السنة على القرآن" في كتبنا السابقة، مثل: "عقائد الإسلاميين، و: القرآنيون"، وبيّنا فيها وجوب عرض السنة على القرآن فمن أراد الاستزادة في المسألة فليرجع إليها هناك.

[47] المرجع السابق، ص 247.

السياق المفقود

بيّنا سابقاً أن الإشكالية الكبرى في التعامل مع القرآن كانت: التعضية، وذلك لأن بعض السلف فهموا أن القرآن مبني على القطع وليس الوصل، ومن ثم حاولوا أن يفهموا كل مجموعة آيات أو حتى كل آية بمفردها.

ولمّا رأوا أن كلام الله "معجز[48]" وهو قِطع متناثرات من الآيات جُمعت لسببٍ ما في سياقٍ واحدٍ فشكلت سورة، كما أنه فيه السور القصيرات، لم يتحرجوا من أن يقولوا أن أقوال الرسول الكريم هي الأخرى وحي مُلزم، على الرغم من كونها لا تختلف كثيراً عن مثيلاتها من كلام الحكماء والأدباء، إلا أنها لصدورها ممن قال القرآن فهي وحي!

والقول بأن السنة وحيٌ من الله أوحاه إلى الرسول الكريم بالمعنى وصاغه الرسول بكلماته، كلامٌ غير علمي ولا يمكن قبوله بحال، فالإنسان لا يمكنه أن يفكر إلا عن طريق مفردات، ومن ثم لا يمكن أن يكون هناك شيء اسمه وحي بالمعنى!! من الممكن أن يكون أوحي إلى النبي "صُور"! والصورة الواحدة يمكن أن يُفهم منها احتمالات متعددة، فما بالنا لو كان المشهد متحركاً! فكم يبلغ عدد الاحتمالات الممكنة لفهمه؟! ناهيك عن أن أقوال الرسول في نهاية المطاف من كلام البشر المحكوم بالنقصان، والذي لا يمكن بحال أن يصل لدرجة الكمال: 100% في التعبير عن المراد، ومن ثم فلا يمكن أن يقدم للمسلمين نصاً كاملاً محكماً. وحتى لو صاغه النبي صياغة محكمة 100% فإنه يجابه نفس الإشكالية، وهي:

ما هو "وجه الإعجاز" فيه؟! فهو كلام حكيم بليغ، إلا أنه كلامٌ ككلام البشر، فهل يعني إيماننا لأسباب عقلية منطقية بأن القرآن وحي من عند الله، أنه يجب الإيمان أن "جُمل وأقوال" الرسول المتناثرات وحيٌ تباعاً (كما جعل السلفيون الإيمان بالقرآن مبرراً لإتباع أقوال السلف)؟!!

[48] كتاب الله ليس "معجزاً" وإنما هادياً وهو آية من الله، وبيّنا في كتابنا: "قصص القرآن" الفارق الكبير بين القول بالإعجاز والقول بالآية في الغرض منها في الرسالة.

إن هؤلاء النفر من السلف على الرغم من قولهم بالقطع في القرآن إلا أنهم لم يُعرضوا تماماً عن السياق الذي وردت فيه الآيات وإنما كان للسياق دورٌ في فهم الآيات، ناهيك عن وجودها في كتاب (القرآن) وصل تاماً، محتوياً كل الآيات المتعلقة بالموضوع، بينما يختلف الحال تماماً مع أقوال الرسول، فكثيرٌ منها لا يُعلم المناسبات التي قيلت فيها، وبعضها سمعها الراوي مجتزئة، فسمع بعضها وفاته بعضُها، وأعلمه صحابي آخر بما لم يسمع، كما أن بعض الأحاديث قيلت في مناسبات مخصوصة، فعُممت لعدم وجود السياق.

والعنصر الحاسم هو أنه لم تصلنا كل أقوال النبي الكريم، فكثيرٌ منها لم يُرو، ومن ثم تبقى الإشكالية الكبرى أن يكون النبي الكريم قد قال ما يخالف هذه الأحاديث ولم يصلنا، أو يكون قد وصلنا إلا أنه جاء عن طريق ضعيف فلم يُعمل به! والقول بأن أقوال النبي لا بد أن تصل بطريق صحيح فلا يُحكم عليها بالضعف أو الوضع، هو مثل القول بأن كتَّاب الأناجيل (سيرة المسيح) كانوا ملهمين من الرب!

ولا مُعين لمعرفة السبب الذي ورد فيه نصيبٌ كبيرٌ من الروايات، ولم يتحرج أرباب مدرسة الحديث أن يقبلوا بالروايات، وبكل التفاتة وبكل إشارة وردت عن النبي الكريم ويجعلوها بمفردها منزوعةً من سياقها كافية للتحريم والفرض، وأن يجعلوها حكماً مطلقاً صالحاً لكل زمان ومكان، وليس حكماً على حالة بعينها، على الرغم من أن الروايات تقول أن الرسول الكريم كان يتغير حاله عندما يُنزل عليه الوحي، مثل ما رواه مسلم: "عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِالْجِعْرَانَةِ عَلَيْهِ جُبَّةٌ وَعَلَيْهَا خَلُوقٌ أَوْ قَالَ أَثَرُ صُفْرَةٍ فَقَالَ: كَيْفَ تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي عُمْرَتِي؟ قَالَ: وَأُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيُ فَسُتِرَ بِثَوْبٍ وَكَانَ يَعْلَى يَقُولُ: وَدِدْتُ أَنِّي أَرَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ قَالَ فَقَالَ: أَيَسُرُّكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ قَالَ فَرَفَعَ عُمَرُ طَرَفَ الثَّوْبِ فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ لَهُ غَطِيطٌ قَالَ وَأَحْسَبُهُ قَالَ كَغَطِيطِ الْبَكْرِ قَالَ فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ عَنْ الْعُمْرَةِ؟ اغْسِلْ عَنْكَ أَثَرَ الصُّفْرَةِ. أَوْ

قَالَ: أَثَرَ الْخَلُوقِ وَاخْلَعْ عَنْكَ جُبَّتَكَ وَاصْنَعْ فِي عُمْرَتِكَ مَا أَنْتَ صَانِعٌ فِي حَجِّكَ[49]" اهـ.

(فكيف تكون كل أقوال النبي وحركاته وحياً؟ وشتان بين أن يكون الفعل صحيحاً مخصوصاً غير مخالفٍ للقرآن وبين أن يكون مطلقاً ملزماً لجميع الأمة.) وانقلب الحال عندهم في أقوال النبي، فجعلوها تُفهم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، بينما مع القرآن هناك أسباب نزول لا بد أن تُراعى عند فهمه، وبدونها يضل الإنسان في فهمه، كما أن هناك سياقٌ يحكمها، بينما لا حرج في أن تُفهم السنة منزوعة من أي سياق!

وهذا عاملٌ إضافي يؤكد أن السنة في حاجة إلى القرآن، فالقرآن وصل كاملاً بينما قد يكون الرسول قال قوله لحالة خاصة، أو في سياقٍ خاص، وبدون معرفة السياق الذي قيلت من أجله قد يساء الفهم! وبعرض كلام الرسول على القرآن يُعرف إذا كان ديناً أم بصفته إنسان.

وسيرى القارئ على صفحات الكتاب نماذج لعدد من الروايات نُزعت من السياق الذي وردت فيه وفُهمت بشكلٍ عام، ومن ثم قيل بأقوال لو جُمعت باقي الروايات الواردة في المسألة لما قيل بها!

النظرية والتطبيق

بيّنا سابقاً أن الأعم الغالب في القرآن هو التذكير، أي أنه خاطب الناس بما هو متعارف عليه لديهم، وبيّنا كيف أن السلف تعاملوا مع القرآن والدين انطلاقاً من كونه قائمٌ على "التلقين". والقرآن أوحي إلى بشرٍ (محمد) طبّقه في دنيا البشر، وتبعاً لمنظورهم القائل بالتلقين، اعتبُرت كل الأفعال والأقوال النبوية وحي كذلك، يجب

[49] مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الثاني، ص.836

على المسلم الالتزام بها، أو على أقل تقدير يُقاس بها مقدار تقواه وورعه، فهل هو مُلتزم بالسنة أم مكتفٍ بالفرض؟!

إن الإشكالية الكبرى في المنهج السلفي هي أنها اعتبرت النظرية "القرآن" وحياً، والتطبيق النبوي وحياً كذلك! وهكذا لم يعد أمام المسلم ما يفعله أمام الدين سوى الإتباع، فلقد طبق الرسول أوامر ربه التطبيق النهائي! كما أنه فسّر القرآن وما لم يفسره فسّره السلف، ومن ثم فاتبع ولا تبتدع! ولأنهم رأوا أن التطبيق وحي كذلك، وجدوا أن كل أقوال وأفعال النبي الكريم لم تُنقل إلينا، فكان الأمثل أن تُؤخذ أقوال وأفعال الصحابة كذلك فتُعد من أصول المنهج، لأنهم رأوا الرسول الكريم يعمل ويقول ومن ثم فهم سائرون على الدرب، وعلينا أن نفعل مثلهم حتى نكون على الصراط المستقيم.

والقول بأن الله أوحى النظرية والتطبيق يدفعنا إلى التفكر في حكم جميع مجالات الحياة، التي لم تكن موجودة على عصر النبي الكريم، فلو كان الدين "نظرية/ قواعد" لأدرجناها تحتها، أما طالما أن الدين اشتمل النظرية والتطبيق فكيف ندخلها فيه؟! ومن ثم يجب رفضها!! وهذا يفسر لنا موقف السلفيين من مستجدات الحياة والنظم الاجتماعية، فهم يرونها "بدعة" أو مكروهة أو غير مستحبة، لأنها لم تكن موجودة في عهد النبي الكريم ولا الصحابة، ومن ثم فمن الأفضل تركها والتمسك بما كان عليه السلف!!!

واعتبار السلفية "التطبيق" وحياً ليس مجرد تأطير فكري وإنما يستندون إلى بعض أدلة من السنة التي دعت إلى هذا، أبرزها حديث التمسك بسنة النبي والخلفاء، والذي رواه الترمذي –وغيره–: "عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: (...) أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ

الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ[50]".

فإذا كان النبي قد حذر محدثات الأمور ودعا للتمسك بتطبيقاته وتطبيقات الخلفاء الراشدين بعده، فإن هذا يعني أن هذا هو المنهج الأقوم الذي يجب على الأمة التمسك به وإلا فإنها ستضل ضلالاً بعيداً. فنقول: هذا الحديث مخالف لمنهج القرآن كله في الإيمان القائم على النظر والتدبر، كما أن الحديث نفسه ضعيف سنداً، ولحسان بن عبد المنان رسالة في تضعيف هذا الحديث بعنوان: (حوار مع الشيخ الألباني حول حديث العرباض بن سارية) ضعّف فيه الحديث، كما ضعفه غيره من علماء الحديث، كما أن الصحابة أنفسهم خالفوا الشيخين أبي بكر وعمر في عديد مسائل، وخالف الثاني الأول في عديد من المسائل، والإمام علي بن أبي طالب نفسه رفض أن يتولى الحكم بعد وفاة الفاروق عمر، عندما اشترط عليه عبد الرحمن بن عوف أن يسير في حكمه بكتاب الله وبسنة نبيه وبسيرة أبي بكر وعمر، ولو كان هناك أمر نبوي في المسألة لكان الإمام علي أول الملتزمين له.

كما أن هذا الحديث يخالف أحاديث أخرى أصح منه، مثل ما رواه الإمام مسلم في حديث الحج الطويل عن جعفر: "... وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ[51]"، فجعل الرسول التمسك بالكتاب فقط كفيل بعدم الضلال، ويزيد الحديث الذي رواه أحمد –وصححه الألباني– المسألة إيضاحا: "سَمِعْت عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا كَالْمُوَدِّعِ فَقَالَ أَنَا مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ قَالَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ وَعَلِمْتُ كَمْ خَزَنَةُ النَّارِ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ وَتُجُوِّزَ بِي وَعُوفِيتُ وَعُوفِيَتْ أُمَّتِي فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ أَحِلُّوا حَلَالَهُ وَحَرِّمُوا

[50] محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، الجزء الخامس، ص.44.

[51] مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الثاني، ص. 886.

حَرَامَهُ[52]"

فالرسول كان له الطاعة على الصحابة في حياته، سواءً كان في المسألة قرآن أم لا، أما بعد وفاته فعلينا التمسك بكتاب الله. فإذا كان الرسول الكريم –كما صح عنه– جعل التمسك بكتاب الله هو الفلاح والنجاح، فإن هذا يعني أن تطبيقه ليس تطبيقاً مطلقاً يجب على الأمة إتباعه في كل العصور، وإنما يعني أن فعله كان التطبيق الأمثل في زمانه، وأن علينا أن نستخلص منه المبادئ التي قام عليها ونُعملها في حياتنا، وننظر في هيئات أفعاله فإن كانت مناسبة لنا قمنا بها، وإن لم تكن أعملنا روح التطبيق لا نصه، وإذا كان هناك ما هو أفضل أتينا به، وبهذا نكون مقتدين بالنبي الكريم، وبهذا يمكننا أن ننظر إلى كثير من الأحاديث الواردة عنه بمنظور مختلف، فمثلا:

كان الرسول الأكرم يستعمل السواك لتنظيف أسنانه، فهل تنظيف الأسنان بعود الأراك هو الأفضل لكل مسلم على مر العصور، أم أنه من الأفضل أن تُنظف الأسنان بالفرشاة والمعجون؟ وكان التنظيف بالمسواك هو فقط الأفضل في زمان الرسول[53]؟!

نهى النبي الأكرم عن تطويل الثياب وتوعد في ذلك الوعيد الشديد، ولا نجد لهذا أي أثر في القرآن، بل نجد الإباحة بشرط عدم الإسراف، –وكذلك في السنة: كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة–، فهل تقصير الثياب من الأخلاق والأهداف والهيئات التي أتى بها الإسلام، ليلتزمها المسلمون في كل عصورهم، أما أن نهي النبي الكريم كان من أجل النهي عن الإسراف والكبر؟! وهل يمكن النهى تباعا عن الثياب الفاحشة السعر، لاشتراك العلة بين الأمرين؟!

حدد النبي الكريم ثوابا عظيما لبعض الأفعال، التي أصبحت بسيطة في زماننا هذا، –

---

[52] أحمد بن حنبل، المسند، الجزء الثاني، ص. 172.

[53] الذين يتمسكون بعود الأراك ويقولون أن السنة فيه، يظنون أن السواك هو اسم علم لهذا النبات! والأصح أنه اسم للفعل نفسه، فابن فارس يقول في المقاييس: "السين والواو والكاف أصلٌ واحد يدلُّ على حركةٍ واضطراب.يقال تساوَقَت الإبل: اضطرَبَتْ أعناقُها من الهُزال وسوء الحال. (...) ومن هذا اشتق اسم السِّواك، وهو العُود نفسُه. والسِّواك استعماله أيضاً. قال ابن دريد: سُكْتُ الشيءَ سَوكاً، إذا دَلكتَه." اهـ. فالرسول الكريم أمر بتدليك الأسنان لتنظيفها، وكان المتاح وقتها هو عود الأراك، ويبقى الأمر للمسلم بالتدليك!

أو لم نعد في أشد الحاجة إليها، مثل بناء المساجد، التي كثرت وانتشرت في كل مكان، على العكس من زمن صدر الدعوة، والحاجة إلى بناء المساجد–، فهل مقدار الثواب الذي ذكره النبي الكريم لفعل في زمان معين وظروف معينة سيستمر مهما اختلفت الأزمنة والظروف، أم أنه مرتبط بمدى تأثير الفعل والانتفاع به؟!

كانت إمكانيات تطبيق أوامر القرآن في زمان النبي الكريم محدودة، وكانت تطبق بشكل فردي، وفي زماننا الذي تعقدت فيه سبل الحياة، هل ترى أنه من السنة أن نستمر في التطبيق الفردي للدين، أم نتجه إلى التطبيق الجماعي والاندماج تحت راية بعض المؤسسات والجمعيات؟! لذا فهل يمكننا القول أن بناء بعض الجمعيات والمؤسسات الخيرية هو من السنة، لأنها تضمن استمرار وثبات فعل بعض وجوه الخير ووصوله إلى مستحقيه، أم ترى أن السنة في أن نستمر على الهيئة الفردية لفعل الرسول والصحابة، والتي كانت صالحة في ذلك الزمان؟!!

وحتى لا يقال أن هذه دعوة لتهميش السنة، نقول: إن النبي الكريم لم يكن يعتبر تطبيقه هو المنهج الذي يجب على الأمة الانتظار للتعرف عليه لتطبق القرآن، وإنما كان يرى أنه على كل مسلم أن يتعامل معه حسبما يفتح الله عليه، فعندما كان يرسل الصحابة إلى البلدان والأمصار وكان يظلون هناك بالشهور أو السنين كان يرسلهم بالقرآن، وهم كانوا يجتهدون في تطبيقه في مجتمعاتهم الجديدة، وكان همّ الصحابة هو التعرف على "جديد القرآن"، فعندما كانوا يعودون من بعثاتهم كانوا يدرسون القرآن الجديد الذي نزل في غيابهم وليس أكثر.

الأصل في الأشياء الإباحة!

تبعاً لتصور السلفيين أن الله أنزل "القاعدة وتطبيقها"، يمكننا فهم موقف عامة السلفيين في مطالبتهم بالدليل في كل شيء، فلأن الميزان عندهم هو التقليد يود

أحدهم أن يكون ثمة دليل على كل ما يفعل، حتى أنه "إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل"، أي أن يكون كل فعلك بدليل، فإن استطعت ألا تقوم بشيء بسيط فطري تفعله الحيوانات، وهو حك الرأس إلا مستنداً على أثر من السابقين فهذا أفضل! وهكذا وصل السلفيون إلى مرحلة "الانسحاق أمام الدليل"، فالغ نفسك والآخرين وأخرهما وقدّم الدليل، فهو الأحق بالتقديم وبالحياة[54]!

ولأن السلفي يُربى على الإتباع وطلب الدليل تجده يود لو قدمت له دليلاً من الكتاب والسنة على أن الشمس ساطعة!! ولهذا لا نجد اهتماماً من بعض شباب السلفية تحديداً بكون العلاقات الإنسانية قائمة بالدرجة الأولى على الحب والذي قد لا يكون معللاً ويودون لو قامت بالنظر إلى الموقف من الدين، كما لا يكترثون لكثيرٍ من الجوانب الإنسانية مثل جلسات السمر واللهو البريء، ويودون لو تركها الناس وأصبحت كل عبادتهم عمل وعبادة!

لأنها مما لم يجر لها ذكرٌ مفصل في الأدلة الشرعية، على الرغم من أن العلاقات الإنسانية لا تقوم عادة إلا على هذه الجوانب التي تركها النص في منطقة المباح، وهي مما يقوم به البشر بالفطرة، إلا لأنها لم يأت عليها دليلٌ فالأفضل الترك!

ولهذا نفهم استهزاء بعض عوامهم بالقاعدة الأصولية التي تقول: "الأصل في الأشياء الإباحة"، بقولهم: "الأصل في الأشياء الأباحة" (قلة الأدب وسوء الخلق، بالعامية المصرية)، تقليداً لبعض مشائخهم الذين أفتوا لهم بأن الأصل في الأشياء الحرمة إلا ما قام الدليل على حِله!!

والحق أن ليس كل السلفيين يقولون بأن الأصل في الأشياء الحرمة، فمنهم من يرى أن الأصل في الأشياء التي سكت عنها الشرع والتي لم يثبت نفعها ولا ضرها هو الإباحة،

---

[54] لا نعيب على السلفيين "الانسحاق"، فما أروعه انسحاق أمام "النص القرآني" —وليس: الدليل الفقهي—، والفارق أن انسحاقنا لا يعني إلغاء عقولنا أو الآخرين، وإنما نُعمل عقولنا لفهم "النص القرآني" لنزداد إيماناً ويقيناً ولنقدم للناس ما يُحركهم وليس ما يقيدهم!

استناداً إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ... ﴿٢٩﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٩]، وإلى ما روي عن النبي الكريم، مثل ما رواه عبد الرزاق في مصنفه: "عن ابن طاووس عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في مرضه الذي مات فيه: لا يمسكن الناس علي بشيء، فإني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه، ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه. (...) سمع عبيد بن عمير يقول: أحل الله حلاله، وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو. (...) عن عبيد بن عمير أنه كان يقول: إن الله أحل وحرم، فما أحل فأحلوه، وما حرم فاجتنبوه، وترك من ذلك أشياء لم يحرمها ولم يحلها، فذلك عفو من الله، ثم يقول: (يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء) الآية.[55]"

ويرون أن الأصل في المنافع الحل وفي المضار التحريم، إلا أن المشكلة في تلك العقلية الرافضة للجديد المقتنعة بأن التطبيق الأول للدين هو الأمثل والأصلح عبر كل العصور، ومن ثم يبتدعون عللاً يتحججون بها في تحريم الأشياء وردها! والعلة الأولى الجاهزة هي أن هذا لم يفعله السلف!

ولهذا وجدنا رسالة للشيخ الكبير مقبل بن هادي بعنوان: "الصواعق في تحريم الملاعق"!! وفتوى للجنة الدائمة للإفتاء بالسعودية بتحريم إهداء الزهور! وفتوى للشيخ الفوزان بتبديع الأناشيد الإسلامية، وفتوى لمفتي الديار السعودية بتحريم الهواتف الخلوية ذات الكاميرا! وفتوى لهيئة كبار العلماء في السعودية بتحريم لعبة البوكيمون! وفتوى للشيخ عبد الله النجدي في رسالة مكونة من ست وثلاثين صفحة في تحريم لعب كرة القدم! ونجد نفس هؤلاء الأشخاص الذين يحرمون ما أحل الله، يستخدمون أحدث الأجهزة التقنية ولا يجدون في ذلك حرجاً، بحجة أن هذا من المباح، ولست أدري على أي أساس حرموا هذا ولم يجدوا في ذلك حرجاً! ولماذا أقلعوا عن ركوب الجمال والمعيشة في الخيام!!

---

[55] عبد الرزاق الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، الجزء الرابع، ص. 534.

وحقيقة لست أدري كيف غاب عن هؤلاء سيرة الفاروق عمر بن الخطاب، والتي تعد أكبر مبطل لرفض المنهج السلفي "الدنيويات" باسم الدين تبعاً لأصول عجيبة، فلقد أخذ الفاروق ومجتمع الصحابة –من غير نكير– من غير المسلمين نظما إدارية وتقسيمات وأدوات لم تكن موجودة على عهد النبي بدون تحرج، ولم يقل أي واحد منهم أن هذا مخالف لهدي النبي، ولم يصدر أحدهم فتوى تُحرم المنخل مثلاً بحجة أنه لم يكن موجوداً على عهد الرسول الكريم!!

أوتيت القرآن ومثله معه

لا يكفي رد حديث التمسك بسنة النبي والخلفاء، للحكم ببطلان وحي "التطبيق"، فهناك الروايات التي تقول أن الرسول أوتي القرآن ومثله معه، والتي تعد من أعمدة السلفية، لأنها تبني عليها وجود وحي آخر –والذي هو السنة– ومن ثم فلا يجوز لنا أن نُعمل عقولنا أو نطبق بغير ما طبق النبي، فالسنة التي هي وحي مثل القرآن ملزمة مثله. فنقول: لا يمكن أن تكون هذه الكلمة صدرت عن النبي الكريم بحال! فليس هناك أي مثل للقرآن، ولو كان قالها فإن هذا يعني أنه لا فضل للقرآن على كلام النبي! وهو ما لا يقول به مسلم! ولا يعني ردنا لهذه الجملة أننا نكذب ونرد الأحاديث الواردة بهذا الشأن كما يفعل القرآنيون، ويقولون أنها مختلقة لتؤصل مكانة للسنة بجوار القرآن! وإنما نقول أن لها أصلاً في كلام رسول الله، ولكن ما قاله الرسول، بُدل وغير –عمدا أو سهوا أو تجاوزا– من الرواة!

وننظر في الروايات الواردة عن الرسول الكريم بهذا الشأن: أول ما يلحظه الناظر في هذه الروايات هو عدم ذكرها في البخاري ومسلم، وهذا يعني أنهما قد رأيا في سندها مطعنا، لذلك لم يعرضا لها! إلا أننا سنتجاوز نقطة السند هذه وسنتعامل معها على أنها صحيحة –ولا يعني هذا أن تكون كل كلمة فيها صحيحة–، ونقارن بين الروايات لننظر ماذا تقول: يروي ابن بطة في الإبانة الكبرى: "عن المقدام بن معدي كرب، أن النبي

صلى الله عليه وسلم قال: «أوتيت الكتاب وما يعدله يوشك شبعان على أريكته يقول: بيننا وبينكم هذا الكتاب فما كان فيه من حلال أحللناه، وما كان فيه من حرام حرمناه، وإنه ليس كذلك»[56]

فنجد أن هذه الرواية عن المقدام قالت: "وما يعدله" وليس: "ومثله معه"، ولا يقتصر ابن بطة على هذه الرواية فيرويه بالرواية الأخرى كذلك، التي فيها "ومثله معه": "عن المقدام بن معدي كرب، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا أن يوشك شبعان على أريكته يقول: عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل الحمار الأهلي» وذكر الحديث[57].

فنجد في هذه الرواية أن "ما يعدله" قد تحولت إلى: "ومثله معه"! فإذا نظرنا في السنن الكبرى للبيهقي، نجد أنه قد ذكر ذلك التحوير صراحة، فقال: "عن عبد الرحمن ابن أبى عوف الجرشي عن المقدام بن معد يكرب الكندي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أوتيت الكتاب وما يعدله – يعنى: ومثله– يوشك شبعان على أريكته يقول بيننا وبينكم هذا الكتاب فما كان فيه من حلال أحللناه وما كان من حرام حرمناه ألا وانه ليس كذلك ألا لا يحل ذو ناب من السباع ولا الحمار الأهلي ولا اللقطة من مال معاهد إلا أن يستغنى عنها و أيما رجل أضاف قوما فلم يقروه فان له أن يعقبهم بمثل قراه.[58]"

بينما يروي الترمذي: "عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الْحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلَالًا اسْتَحْلَلْنَاهُ وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ. وَإِنَّ مَا

[56] أبو عبد الله عبيد الله بن محمد الكعبري، الإبانة الكبرى، الجزء الأول، ص.230.

[57] المرجع السابق، ص.229.

[58] أحمد بن الحسين البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، الجزء التاسع، ص. 332.

حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ"[59]

ويروي أحمد في مسند: "عن عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَافِعٍ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا أَعْرِفَنَّ مَا يَبْلُغُ أَحَدَكُمْ مِنْ حَدِيثِي شَيْءٌ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ فَيَقُولُ مَا أَجِدُ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى[60]"

فالإمام أحمد يروي الحديث بدون أي زيادة وإنما يتحدث عن استنكار الرسول على عدم امتثال بعض صحابته لأوامره ونواهيه! (والملاحظ أن هذه الروايات كلها واردة عن المقدام، ومرة تقول: "وما يعدله" ومرة تقوله: "ومثله معه" ومرة لا تعرض لهذه المثلية بتاتا وإنما تقول أن ما حرم رسول كما حرم الله! (وهذه الجملة هي التي جعلت الرواة يقولون أن الرسول أوتي القرآن ومثله معه!)، كما أنها تتغير بين "أحدكم" وبين "رجل"! فلأن الحديث صدر أول ما صدر كان يخاطب الصحابة، ولأن الرواة رأوا أن كلمة "أحدكم" قد تجعل الحكم خاصا بالصحابة أو ليست دليلا لهم فيما يستدلون به، تحولت –عمدا أو لا شعوريا– إلى "رجل" ليصبح لها حكم العموم!)

وتوضح رواية البيهقي المناسبة التي قيل فيها هذا الحديث: "حدثني ابن جابر أنه سمع المقدام صاحب النبي صلى الله عليه وسلم يقول: حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلي، وقال: يوشك الرجل متكئ على أريكته يحدث بحديثي فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال أحللناه ومن حرام حرمناه. ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حرم الله عز وجل.[61]"

فمناسبة الحديث كانت غزوة خيبر! إلا أن الرواة غيروا في الهيئة التي قيل بها الحديث[62]! وتبين لنا رواية الطبراني جانباً آخر للجو التي قيلت فيه: "عَنِ الْعِرْبَاضِ بن

[59] محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، الجزء الخامس، ص.38.

[60] أحمد بن حنبل، المسند، الجزء السادس، ص. 8.

[61] أحمد بن الحسين البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، الجزء السابع، ص.76.

[62] ثمة روايات في الباب تعاكس تماماً توجههم هذا، فنجد ابن بطة يروي في: الإبانة الكبرى، الجزء الأول، ص.231: "عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عسى أحدكم يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته، فيقول:

سَارِيَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:"لا يَحِلُّ لَكُمْ مِنَ السِّبَاعِ كُلُّ ذِي نَابٍ، وَلا الْحُمُرُ الأَهْلِيَّةُ، وَلا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْكِتَابِيِّينَ، وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلا مَا طَابُوا بِهِ نَفْسًا، وَلا تَضْرِبُوا، أَيَحْسَبُ امْرُؤٌ مِنْكُمْ قَدْ شَبِعَ حَتَّى يَظُنَّ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا إِلا فِي الْقُرْآنِ، أَلا وَأَنِّي وَاللَّهِ قَدْ حَدَّثْتُ وَأَمَرْتُ وَوَعَظْتُ[63]".

فهنا نجد أن الرسول يقول أن الله قد حرم أشياءً في غير القرآن، ولم يعرض لأنه أوتي مثل القرآن بحال! فإذا نظرنا في سنن الدارمي، ألفيناه يقول: "عن الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَّمَ أَشْيَاءَ يَوْمَ خَيْبَرَ الْحِمَارَ وَغَيْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: "لَيُوشِكُ الرَّجُلِ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدَّثُ بِحَدِيثِي فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ مَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ. أَلا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ هُوَ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ.[64]"

فالناظر في هذه الرواية الميزان –التي يجب أن تقاس عليها باقي الروايات– يجد أن الرسول لم يتكلم عن تحريم الله أشياء خارج القرآن وإنما يتكلم عن أنه حرم أشياء، وأن هذه الأشياء في الحرمة مثل ما حرم الله! وبعد هذا التناول لأهم الروايات التي تتحدث عن وجود وحي مماثل للقرآن نصل إلى الرواية الحاسمة التي ستبين لنا أين ومتى ولماذا قيلت هذه الجملة، وكيف نفهمها في سياقها، فلقد روى الإمام أبو داود في سننه: "عن الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ السُّلَمِيِّ قَالَ: نَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ وَمَعَهُ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَكَانَ صَاحِبُ خَيْبَرَ رَجُلًا مَارِدًا مُنْكَرًا فَأَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَلَكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا حُمُرَنَا وَتَأْكُلُوا ثَمَرَنَا وَتَضْرِبُوا نِسَاءَنَا؟ فَغَضِبَ يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ، ارْكَبْ فَرَسَكَ ثُمَّ نَادِ أَلا إِنَّ الْجَنَّةَ لا تَحِلُّ إِلا لِمُؤْمِنٍ وَأَنْ اجْتَمِعُوا لِلصَّلَاةِ قَالَ فَاجْتَمَعُوا ثُمَّ صَلَّى بِهِمْ

هات به قرآنا من كتاب الله، إلا ما كان من حق قلته أو لم أقله، فأنا أقوله»، فهذه رواية تؤصل لقبول الأحاديث عن الرسول طالما أنها حق!!

[63] سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، الجزء الثامن عشر، ص.258.

[64] عبد الله الدارمي، سنن الدارمي، الجزء الأول، ص.153.

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: "أَيَحْسَبُ أَحَدُكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ قَدْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا إِلا مَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ أَلا وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ وَعَظْتُ وَأَمَرْتُ وَنَهَيْتُ عَنْ أَشْيَاءَ إِنَّهَا لَمِثْلُ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا بِإِذْنٍ وَلا ضَرْبَ نِسَائِهِمْ وَلا أَكْلَ ثِمَارِهِمْ إِذَا أَعْطَوْكُمْ الَّذِي عَلَيْهِمْ[65]"

وكما رأينا فلقد قال الرسول "أحدكم"، أي أن الرسول الكريم كان يخاطب الصحابة، يضاف إلى ذلك التعبير النبوي "متكئا على أريكته"، أو "شبعان"، –والذي ورد في روايات أخرى–، والذي يظهر أن النبي الكريم يتحدث عن واقعة حصلت، حيث كان المعترضون على أمر النبي الكريم المخالفون له من الأغنياء، لذلك عبر ب: المتكئ على الأريكة أو الشبعان! والموقف الذي قيل فيه هذا الحديث كان غزوة خيبر!

ولقد صدر عن الرسول الكريم بعض التعليمات والأوامر للصحابة رضوان الله عليهم، فحرم عليهم أشياء في يوم خيبر، لظروف الغزوة، تحريما مؤقتا، إلا أن بعض الصحابة لم يستجيبوا لهذا الأمر، بل وصدرت بعض التجاوزات من بعضهم عندما فتحوا خيبر، فذبحوا حمر اليهود ودخلوا بيوتهم وضربوا نسائهم وأكلوا من ثمارهم، فأتى صاحب خيبر –الحاكم– يشكو ذلك إلى النبي الكريم، فاغتاظ النبي الكريم من موقف هؤلاء الصحابة من أوامره ومن تجاوزاتهم.

ويبدو من موقف هؤلاء أنهم فهموا أن الطاعة للرسول الكريم بما ذُكر صراحة في القرآن فقط، وأن ما عدا ذلك فليس طاعته واجبة! فأمر الرسول الكريم بجمعهم ليعلمهم أن له السمع والطاعة في القرآن وفي غيره، وذلك لأنه يأتيه الوحي في غير القرآن، كما أنه أعلمهم بكتاب الله وكيفية إسقاطه على أرض الواقع (تأويله)!

ويؤخذ من هذا الحديث أنه لا يجب الاقتصار على المذكور المباشر في كتاب الله، فكثير من أوامر الرسول الكريم مندرجة تحت القرآن، إلا أن أكثر المتبعين يغفلون عن وجودها في القرآن. إذا فالرسول الكريم قال كلمة تعليقا على مخالفة بعض أغنياء

[65] سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، الجزء الثاني، ص. 186.

الصحابة له، فأصبحت جملة عامة، كأن الرسول الكريم يتنبأ بما سيحدث في المستقبل، وحُرفت الجملة تحريفات عديدة، وأخذ أصحاب الحديث يؤصلون استناداً عليها لمنهجهم!

إذن فالحديث لم يختلف عما رواه أحمد –وذكرناه سابقاً– من أن الرسول الكريم في حياته كان السمع والطاعة له في كل كبيرة وصغيرة، لأنه يأتيه القرآن والوحي الموجِّه في المواقف المختلفة، والذي ليس بمطلق لعموم الأمة وإنما لهذه المواقف تحديدا، كما أتاه الوحي بالخروج إلى بدر، وبأن يقول لمن معه آمرا: كفوا أيديكم، وكما وعد المسلمين بالنصر في أُحد إذا هم أطاعوا، وكل هذا الوحي كان من أجل نصرة النبي الكريم والرسالة، وباقي الأجيال غير مخاطبة به بداهة، ولكن كان الصحابة ملزمين بذلك!

التورّع الكاذب

على الرغم من أن السلفيين يؤمنون بأن من أصول التوحيد "الإيمان بأن لله وحده سبحانه وتعالى وليس لأحد سواه حق التشريع للبشر في شؤون دنياهم."، إلا أننا وجدناهم يصدرون تلك الفتاوى المتشددة التي تحرم على خلق الله ما لم يحرمه، ويرجع ذلك –بالإضافة إلى ميلهم إلى تحريم ما لم يأت في النظرية أو التطبيق– إلى اقتداءهم بما روي عن بعض السلف، مثل ما روي عن عمر بن الخطاب: "كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام"! وما روي عن أبي بكرٍ الصديق –رضي الله عنه–: "كنا نترك سبعين باباً من الحلال مخافة باب واحد من الحرام."

وبغض النظر عن صحة الروايات أو ضعفها، وعن صدورها عن الشيخين، وعن كون قولهم عن أمر عام، أم عن مسألة مخصوصة، كان الفاروق عمر يود أن يبين الرسول فيها قولاً حاسما وهي: الربا، كما روى عبد الرزاق في مصنفه عن الشعبي قال: "قال

عمر: تركنا تسعة أعشار الحلال مخافة الربا[66]"

بغض النظر عن هذا كله، فإن وجود مسلك كهذا بين الصحابة يُعد من باب الزهد والتورع غير المحمود، ولا يعني صدوره من بعض الصحابة أو كبارهم أن يصير محموداً –هذا على فرض صدوره منهم– فالله لم يبح لنا الحلال لنحرم تسعة أعشاره ولا حتى عُشره على أنفسنا! ولقد خاض القرآن معركة حاسمة ضد الذين يحرمون على خلق الله ما لم يحرمه ربهم، وإذا كان بعض الصحابة فعل هذا فهم لم يلزموا غيرهم بهذا، وإنما كان فعلهم على أنفسهم.

أما المتمسلفون فقد اتبعوا هذا المنهج في استخراج الأحكام، فحملوا النصوص ما لا تطيق ولا تحتمل! وحرّموا على الناس أموراً من باب أن الوقوع في الشبهات وقوع في الحرام، وأن ما (قد) يفضي إلى الحرام فهو حرام، ومن ثم فمن الأفضل للناس أن يتركوا هذا الأمور الجديدة بدلاً من أن تجرهم إلى ارتكاب الحرام!!

وهكذا أخذوا في استخدام عقولهم لإيجاد مبرر لتحريم ما لم يقم عليه نص! وهكذا أودى العداء المختلق بين العقل والنقل، والذي أدى إلى تهميش العقل، إلى استخدامه مرة أخرى كمبرر لهذا المنع!

وإني لأعجب حقاً كيف يروي السلفيون عن السلف الروايات التي تبين أنهم كانوا يتورعون عن الحكم على الشيء بالحرام أو الفرضية، وكيف كان يكثر في كلامهم قول: يعجبني كذا وكذا، أو استحب كذا وكذا، ولا يصرح بالوجوب إلا ما علم جزماً بوجوبه. وقولهم في جانب المنهيات: أكره كذا، ولا أحب كذا، ولا يعجبني كذا، ولا يصرحون بالتحريم، إلا ما علم جزماً بتحريمه، وأعجب كيف لا يتردد أولئك المتمسلفون في الحكم بالحرمة على أمور لم يرد فيها نصٌ من كتاب ولا سنة؟!!

[66] المرجع السابق، الجزء الثامن، ص. 152.

وصائي وقائي

لا يعاني الفكر السلفي من أزمة التورع الكاذب فقط، وإنما يتعداه إلى أزمة أكبر وهي كونه منهجاً "وصائياً وقائياً"، فلأنهم أتباع مدرسة الحديث، وعلماء الحديث هم أتباع السلف عامة والصحابة خاصة، والذين كان لهم وضع ومنزلة خاصة في التاريخ الإسلامي، فهم الذين شاهدوا النبي الكريم وهم الذين بلغوا الدين لغير المسلمين ومن ثم كانوا بمثابة المعلمين والمعرفين لهم، يأمرونهم وينهونهم ويصححون لهم أفعالهم.

وهم الحاملون لهدي الصحابة الذين لم يحيدوا عنه، فمن ثم ينبغي أن يكون للسلفية وللسلفيين نفس المنزلة والدور، فهم القائمون على الأمة المعلمون لها والمقدمون للدين الصحيح، والذين يجب أن تكون لهم الصدارة والذين يحددون ما الصالح من الطالح في الجديد الطارئ على الأمة. وينسى السلفيون أن عصر الصحابة المبلغين قد انقضى وأننا كلنا الآن أصبحنا سواء في تلقي الدين، ومن ثم ليس لأحد منزلة أعلى من الآخر.

ولم تقتصر هذه الوصاية على الأفراد وإنما تعدته إلى كتاب الله تعالى نفسه، فأصبحوا هم الأوصياء عليه، فلأنه وصلتهم بعض الروايات عن الصحابة -وليس عن النبي- والله أعلم بصحتها، تقول بنسخ بعض الآيات، وفهموا هم أن النسخ بمعنى التعطيل وإبطال العمل، أي أن الآيات تكون موجودة في كتاب الله ولا يُعمل بها، فتُقرأ للتبرك أو ما شابه، أما أن يُعمل بها فهذا ضلالٌ مبين، فعطلوها!

وهكذا أصبح القول بالنسخ هو الحل والمخرج في قبالة الكثير من الآيات التي تخالف أقوالهم، فإذا كان بعض السلف قد قالوا -عن جهل أو تعصب- بأقوالٍ تخالف القرآن، فحتماً هذه الآيات معطلة، وليس أن السلف هم من أخطئوا ولا أن هذه الروايات مكذوبة يجب ردها لمخالفتها القرآن! وإذا استُدل عليهم بالآيات قالوا أنها مُعطلة!

وإذا لم يستطيعوا هم أنفسهم التوفيق بين بعض الآيات قالوا بالنسخ، وعلى الرغم من أن مسلكهم هو مسلك العلمانيين حذو القذة بالقذة في تعطيل آيات في كتاب الله (مع الفارق أن العلمانيين يطالبون بالتعطيل لأنها لم تعد مناسبة، بينما حكم السلفيون أنها معطلة فعلاً)، إلا أنهم يرون قول العلمانيين هذا كفراً بواحاً نابعاً عن هوى وكره لمنهج الله، أما فعلهم هم فلا حرج فيه، لأنهم عطلوا الآيات بدليل ولأنهم متبعون لا مبتدعون!!!

والآفة في هذا المنهج الوصائي أنه قائم على فكرة تخمرت عند السلف بلا مستند في كتاب الله وهي أن الدنيا دار فتنة، وأنها لا تساوي جناح بعوضة، وأن هناك فارق كبير بين طريق الدنيا وطريق الآخرة، ومن ثم فلا حرج في تركها، "فالسلامة فيها ترك ما فيها" فلأن يترك الإنسان بعض المباح الذي سيؤتَى أضعافه في الجنة خيرٌ له من أن يقع في الحرام، الذي سيجعله من أصحاب النار، وهكذا مال السلفيون إلى التحريم والمنع في الجديد المستحدث وإلى كثيرٌ من المباحات، لما قد يكون فيها من إفضاء إلى الحرام.

وهذا منهج لا يتفق مع كتاب الله الذي ينبغي أن يتبعه البشر ويكون حاكماً عليهم، وليس تابعاً لهم ولا لأهوائهم، التي تخالف نهج الله فيه!

الثابت والمتغير

يوصف المنهج السلفي بأنه منهج قائمٌ على التفسير الظاهري للنصوص! وليس الأمر كذلك، فالسلفيون وإن كانوا لا يقولون بتأويل النصوص، إلا أنهم لا يقتصرون في فهمها على ما تقول، وإنما يقحمون أفهامهم وتصوراتهم المحكومة بالعناصر السابقة مثل التورع الكاذب والوصائي الوقائي، ومن ثم يستخرجون منها أحكاماً عسيرة، يرونها هي منطوق النص وأنها هي الإمكانية الوحيدة لفهمه ومن ثم يُعتبر الفهم والنص سواء،

وهذه من كبرى إشكاليات السلفية.

والمنهج السلفي وإن كان قائماً على التقليد (وأعجب ممن يدعون أنه قائم على الاجتهاد!!) يحاول قدر المستطاع محاكاة التجربة الأولى الناجحة، في تطبيقاتها وتفاعلها مع النص، بل وحتى في ألفاظها، إلا أنه لم يستطع الثبات بشكلٍ تامٍ على الهيئة الأولى، ومن ثم اضطر أتباعه لقبول بل والقيامِ ببعض التغييرات الطارئة، ومن ذلك مثلاً قبولهم بلفظ "السلفية"، وعدم اعتبارها بدعة، وتقديم المبررات العديدة التي تسوغ هذا!

وبعد الثورة المصرية المؤيَّدة غيّر السلفيون فتاواهم السابقة، ولم يتحرجوا من هذا ولم يعدوه من باب النفاق! وإنما قالوا أن الفتوى تتغير باختلاف الزمان والمكان، كما حدث الاختلاف بين أبي حنيفة وصاحبيه: أبي يوسف ومحمد، على الرغم من قرب أزمنتهم، وذلك لاختلاف الأحوال، مما أوجب قراءة جديدة للنصوص.

والقاعدة وإن كانت معروفة عند السلفيين إلا أنها لم يكن لها حيزٌ من التطبيق، إلا أنها فُعلت بعد الثورة، وهكذا وجدنا السلفيين يقدمون خطاباً يكاد أن يكون "نسخة مكرورة" من خطاب الإخوان المسلمين، فمثلاً بعد أن كانوا يرفضون العملية الانتخابية ويعيبون استشهاد العلامة القرضاوي بقوله تعالى: ﴿... وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾ [سورة البقرة, ٢٨٣]، على وجوب المشاركة في العملية الانتخابية، وجدت أحدهم يستشهد بها على المنبر!

وهذا التحول الكبير في النهج السلفي يدفعنا لسؤالهم: ما هي قاعدتكم في الثبات على قديم الأقوال وقبول جديدها؟! لقد عبتم على غيركم وسلقتموهم بألسنة حدادٍ عندما قالوا سابقاً بمثل ما تقولون الآن، –ولا تزالون تعيبون عليهم غيرها من الاجتهادات–، بينما لم تعيبوا على مشائخكم اجتهادهم، فهل أصبح الحق يُعرف بالرجال؟ أم "اعرف الحق تعرف الرجال"؟!

إن هذا القبول يعني أن السلفيين يعرفون الحق بالرجال وليس بالعكس، فالمسألة مسألة ثقة في أفرادٍ بعينهم تُقبل أقوالهم، وليست العبرة بالمنهج ولا بأصول استنباط الأحكام! وهكذا يمكننا القول أن القاعدة لدى السلفيين في قبول المتغير هي في صدوره من شيخ سلفي العقيدة! فنقاء العقيدة كافٍ لقبول الاجتهاد! أما أن يصدر من غير السلفي فثمة شكٌ في عقيدته، لذا لا يؤخذ منه!

وبغض النظر عن هذا، فإن "العقل السلفي المصري" سيرسخ لديه إمكانية وجود قراءة "تفسير" مختلفة للنصوص بدون أن يكون هذا نوع من الزيغ أو الضلال أو التأويل، وإنما هو اختلاف في المنظور وفي كيفية إسقاطها على الواقع، وبهذا ستخفت حدة النقد السلفي للغير، فالاجتهاد للجميع، وليس حكراً عليكم!!

وبهذا تهاوى عمود ركين من أعمدة السلفية "المصرية" تحديداً، لن تصبح بعضه السلفية كسابق عهدها، وإنما سلفية قد تجد في يوم من الأيام أن اسم "سلفية" لم يعد مناسباً لها، فتكتسب اسماً جديداَ.

"أسلمة" أم "أسلفة"؟

بعد ظهور التيارات الإسلامية على الساحة السياسية كلاعب محوري، ومناداتهم بإقامة الدولة الإسلامية، والعودة إلى التحاكم إلى كتاب الله واتخاذه منهجا ودستورا! كثر الحديث عن الدولة الإسلامية أو: "أسلمة" الدولة، وكيف أن دولنا العربية ستحول إلى النموذج الأفغاني، وكان رد الإسلاميين عامة والسلفيين خاصة أن هذا لن يكون، وأن عملية أسلمة الدولة ستنشئ دولة حضارية متقدمة لا تشابه بينها وبين النموذج الأفغاني، وأن الأيام ستُري المشككين أن لا مبرر للخوف من الإسلاميين ولا من أسلمة الدولة.

والحق أن العودة إلى كتاب الله هي دعوة لا غبار عليها، وهي الأصل في حال أمة

مخرجة للناس، مندوبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر! ولكن الإشكال الكبير هو تصور الإسلاميين –والسلفيين خاصة– للدولة الإسلامية، فتصور أكثرهم للدولة الإسلامية يمكن تسميته بدون تجن ولا ظلم: "الدولة التاريخية التراثية"!

وذلك لأنه ليس لدى الكثير منهم تصوره الخاص عن الدين وتطبيقه، والذي يُفترض استخراجه من الكتاب الأصل "القرآن"، وإنما لديهم تصور مأخوذ من كتب التاريخ، فإذا كان حال المسلمين في عصور صدر الإسلام كذا وكذا ... فعلينا أن نقتدي بهم لننشأ دولة إسلامية! فنجد كثيرا منهم يحاربون الثياب العصرية، ويرون أنه علينا التمسك بالزي الإسلامي، ومن ثم يرون أنه إذا قامت الدولة الإسلامية فسيعود المسلمون إلى لبس الجلباب! –ونحن وإن كنا ندعو إلى التمسك بالثياب العربية وإلى جعلها القاعدة وليس الاستثناء– إلا أننا لا نجعلها من الأمور الفاصلة، ولا من المسائل المتعلقة بحل أو حرمة! ولا من لوازم الدولة الإسلامية، فلا يعني قيامها أن يتجلبب الناس ويتعمموا ... كما يظن بعض وغير الإسلاميين!

ولا يعني قيام الدولة الإسلامية أن تقوم أو تُنشأ دولة الخلافة! فلا يعني أن الحكومة الإسلامية بعد الرسول تكونت بهذا الشكل أن تصبح هي الحل الأنجع طيلة العصور! (والذي لا يعرفه أكثر المسلمين هو أن الخوارج المحكوم عليهم بالضلال! قدموا منذ العقود الأولى للإسلام تصورا شُوريا للحكم، وطبقوه على أرض الواقع– لم نجد قريبا منه –وليس مثيلا له– إلا في زماننا هذا)

ولا يعني قيام الدولة الإسلامية أن يُهمل الطب الحديث، ويُزكى ويُقدم ما يُعرف ب: "الطب النبوي[67]"، (والذي لعب ابن القيم الدور الأكبر في التأصيل له بتأليفه كتاب: الطب النبوي، والذي جمع فيه الروايات المنسوبة إلى النبي الكريم، والمتعلقة بالأمراض والمشاكل الصحية وكيفية علاجها وعدّها من الدين!) ولن نقول أن إشكالية

---

[67] يُعد مصطلح "الطب النبوي" تعبيراً مستحدثاً لم ينشأ إلا في القرن الرابع الهجري، وأول من صنف فيه بهذا الاسم هو أبو عبيد بن الحسن الحراني (ت: 369 هـ)، بينما كان علماء الحديث يصنفون الأحاديث المتعلقة به قبل ذلك تحت باب أو كتاب "الطب" فقط.

هذا النوع هو تساهل القائمين عليه في ذكر العديد من الأحاديث الضعيفة والشديدة الضعف باعتبارها لا تؤصل حكماً فقهياً شرعياً (وكأن صحة الناس ليست بالأمر الخطير الذي سيُسألون عنه)، وإنما نقول أن إشكاليته ترجع في منظورهم إلى الدين كأصل جامعٍ فيه كل العلوم والفنون، أتى ليعالج كل أمور الحياة بالتفصيل –وليس بإرساء قواعد عامة–. ولإيمانهم بأن الله أوحى النظرية والتطبيق والتفصيل عمدوا إلى اعتماد أقوال الرسول التي قالها بصفته إنسان كجزء من الدين –وذلك لرفضهم عرض السنة على القرآن واعتماد ما له أصلٌ فيه وما عداه يكون تراثاً–، فإذا كان الرسول قال كذا فهو وحي يجب على الأمة تطبيقه، –على الرغم من أن النبي لم يأت بجديدٍ فيه، وإنما ذكر الآراء الطبية الموجودة في بيئته وعصره تبعاً للمستوى العلمي الموجود– إلا أن البعض رأى أن مجرد صدوره عن النبي يجعله أفضل من كل الاكتشافات العلمية الحديثة، ومن ثم فعلينا التمسك به، ولذا ظهر العلاج بالحجامة، وظهرت الكتيبات –المؤلفة من غير متخصصين– التي تبين الفوائد الجمة للعلاج بالعسل والتمر وحبة البركة ... وبول الإبل!

فلا يعني قيام الدولة الإسلامية تقديم هذه الروايات، فهي ليست سنة بحال، وإنما أن يؤخذ بأفضل المتاح من العلم، ويُبحث عن اكتشاف أدوية للأمراض المستعصية، فالطبراني يروي في المعجم الأوسط عن النبي الكريم: "ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله إلا السام" قيل: وما السام؟ قال: "الموت"[68] والمسلم الحقيق لا يرضى بالجهل طالما أن هناك سبيل للعلم.

إن الإسلاميين يقدمون في عصرنا هذا نماذج لما يظنونه التطبيق الإسلامي أو البديل الإسلامي وهي لا تمثل إلا جانباً واحداً وهو الديني مع أن كل جوانب الحياة التي لا تخالف الإسلام منطوية تحته ويمكن اعتبارها إسلامية.

فإذا أخذنا الجانب الترفيهي نموذجا وجدنا أن الأناشيد الإسلامية هي الأناشيد الدينية

[68] سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، الجزء الثالث، ص.75.

والمتعلقة بالأخلاق الحميدة! والأدب الإسلامي يدور كذلك في نفس النطاق! ونغض الطرف عن الطُرف "النكت" الإسلامية فهي تكاد تكون محصورة في الشعبي وجحا وما شابه من الشخصيات القديمة!! المشكلة أن كثيراً من الإسلاميين يظنون أن عليهم تقديم بديل لشامل لجل –إن لم يكن كل– المطروح على الساحة، فلا بد من تقديم البديل الإسلامي!

والذي يجعل الحياة كلها خاضعة للدين! وينسون أن نصيباً كبيراً من الموجود على الساحة فعلا هو "إسلامي" ولا يحتاج إلى الجلببة أو التسمية باسم تراثي ليصير إسلاميا!! إن مصطلح الدولة الإسلامية يعني أن تكون الدولة مسلمة لله، أي خاضعة لأوامره التي أمر بها في كتابه، فلا تخالفه ولا تعطله! وتتحرك به وله، وتقدم بنفسها لغيرها الصورة التي تعرفها بالإسلام! فهي بأعمالها وإنجازاتها أكبر داعٍ ومعرِّف بالإسلام بشكل غير مباشر قبل أن يكون مباشراً!

ولا يعني هذا في عين الوقت أن تكتسب كل أوامر وأحكام الدولة الصبغة الدينية، فالدين لم يأت إلا إطارا منظما، لنتحرك في نطاقه، وليس خطوطا مستقيمة علينا ألا نحيد عنها! وفي نطاق هذا الإطار هناك ما يسمى ب: منطقة العفو –وهي التي ترك المشرع العليم لنا حرية الحركة فيها– بحيث تكون منسجمة مع باقي الأوامر فلا تناقضها ولا نخرج من الإطار العام!

ومنطقة العفو في الدين جد كبيرة، تركها الله العليم لنا، لتصرف كل أمة أمور حياتها تبعا لظروفها!! وشتان بين الدولة الإسلامية والدولة الدينية، فالدولة الإسلامية هي دولة تنظم أمور الناس الدنيوية، بينما الدولة الدينية هي التي تجعل كل حياة الناس دينا!

ولو عدنا إلى الجانب الترفيهي والذي أخذناه نموذجا لظهر لنا الفارق: الأغاني الإسلامية الحالية هي تابعة للتصور الديني، فجلها يتحدث عن الدين وعن الإنسان الصالح، وعن علاقته بربه ... ونحن وإن كنا ندعو إلى تزكية هذه الجوانب إلا أننا نتساءل: أين الجانب الإنساني؟ أين الأغاني أو الروايات التي تتحدث عن المشاعر

الإنسانية النبيلة وعن المشاكل الاجتماعية ... بل وعن التناقضات الموجودة في حياتنا ... والتي قد تقدمها في شكل طريف مضحك؟! لماذا لا ننشأ أدبا معاصراُ، وشخصيات ونماذج من واقعنا المعاصر، لماذا يُربط الإسلامي دوما بالقديم؟!

ولا يعني في عين الوقت أن نجعل عملية الأسلمة مجرد تغيير للغلاف الخارجي، فنقدم عين الشيء بشكل ديني! (كما يفعل بعض أفراد الجماعات الإسلامية، والذين يأخذون لحن ونغمة أغاني ناجحة فيغيرون كلماتها ويجعلونها عن الدين! ولست أدري كيف تستقيم السرقة مع الدعوة إلى الالتزام والتمسك بالدين!!)

إن كثيرا من المسلمين يخشون قيام الدولة الإسلامية (وإن كانوا لا يرفضونها ويتمنون قيامها في عين الوقت!!) وذلك لظنهم أن الدولة الإسلامية هي الدولة السلفية أو التراثية! تلك الدولة التي ستضيق على الناس في كثير من جوانب حياتهم –خاصة الجانب الترفيهي– بالإضافة إلى كثير من التعنتات الشكلية والتي يظنون أنهم سيلزمون بها، على الرغم من عدم حاجتهم إليها!! وهذا التصور مأخوذ من قراءتهم لدعاوى الإسلاميين ومن النماذج التي يقدمونها للحياة في المجتمع الإسلامي!!

إن علينا أن نعي جيدا أن المجتمع الإسلامي مجتمعٌ مثل أي مجتمع، ولو أخذنا المجتمع الإسلامي في زمان الرسول لوجدناه خيرَ مثال للمجتمع الإسلامي الإنساني، ففي ذلك المجتمع كان يعيش المسلمون مع النصارى واليهود والمشركون! كلٌ في حاله ... وعلى دينه! لكلٍ مسعاه الذي يسعى له. وعلى الرغم من انشغال الناس بالدين، وقتالهم من أجل الدفاع عنه وعن أنفسهم، إلا أنهم كانوا يعيشون حياتهم الطبيعية، فيسمرون ... ويغنون ويدقون في الأفراح ... وفي أثناء سفرهم ينشدون للإبل ... وبالتأكيد لم تكن أغانيهم في سمرهم وأفراحهم ولا حدوهم للإبل دينيا .. وإنما كانت كلماته المستقاة من بيئتهم!

وعندما استمع الرسول الكريم إلى الجاريتين اللتين كانتا تغنيان عن السيدة عائشة لم يقل شيئا ولم يعترض إلا على: وفينا نبي يعلم ما في غد! فنفى أن يكون يعلم الغيب!

وأمرهم أن يقولوا كل ما يقولونه إلا هذه الجزئية!!

وكما رأينا فلم يكن ترفيههم دينيا ولم يتدخل الرسول فيه، وإنما نهاهم عن المغالاة فيه وعن قول غير الحق! وعندما سأل عن يتيمة فعلم أنها أُرسلت لزوجها، فقال: "فهل بعثتم معها بجارية تضرب بالدف وتغني؟ قالت: تقول ماذا؟ قال: تقول "أتيناكم أتيناكم فحيّونا نحييكم ولولا الذهبُ الأحمر ما حلّت بِواديكم ولولا الحبة السمراء ما سمنت عذاريكم[69]"، فلم يأمرها أن تغني عن الدين وإنما مثل ما يغني الجميع في هذه المواقف عن جمال العروس، بل وربما يستحي البعض في أيامنا هذه من أن يغني عن امتلاء جسد العروس! وأنها "ملفوفة العود". ومن ثم فالسنة أن يُغنى في الزواج ما يتناسب مع جو الفرح فيه، لا أن تُنشَد هذه الجملة من الفرق الإسلامية باعتبارها ديناً ... وسنة! فهذا ما ينبغي أن يكون عليه الترفيه والمرح في الدولة الإسلامية!!

نعطي الناس الحرية ليكونوا ما يكونوا ... منطوين تحت لواء الله وشرعه! فالدين لم يأت ليجعل الناس كلهم قالبا واحدا، وإنما لينظم لهم حرية اختيار القوالب التي يكونونها والتي يحيون بها! وأرباب الدولة الدينية يظنون أن النموذج الإسلامي نموذج واحد ... مكرور! وعليهم إقامته! فإذا كانت الخطة قد نجحت مرة فعلينا إعادة تطبيقها إلى الأبد!

إن على الإسلاميين والسلفيين في زماننا هذا، الذي ظهرت فيه الكثير والكثير من النماذج والتصورات للحياة أن يكفوا عن تقديم الإسلامي بأنه التراثي وعن جعل الإسلامي مساو للديني، وإنما أن يُفهموا الناس ويعرفوهم أن الإسلامي هو الخاضع لله على أي هيئة كان، وأن الذي يبدع في أي مجال غير مصادم للدين هو إسلامي.

عليهم أن يفهموهم أن هناك الكثير من الأمور والأعمال الدنيوية والتي يحصل بها الإنسان المسلم على الدرجات العلى ويكون بفعلها مسلما صالحا، بعيدا عن الجانب الشعائري –ولا يعني هذا أننا ندعو لإهمال الشعائر أو التقليل من شأنها–، كما أن

(69) المرجع السابق، ص. 315.

عليهم أن يفهموهم أن كيفية القيام بالأعمال الصالحة في الآثار أو حتى الأحاديث النبوية لم تعد هي الوسيلة الأمثل! فلم يعد إعطاء تمرات أو كسرات خبز ولا التنافس على إطعام صائم –سيصل إلى بيته بعد دقائق– تمرة وسقيه شربة، لم يعد هو ذلك العمل العظيم!

علينا أن نعي جيدا أن ظروف وأحوال مجتمعاتنا تختلف كثيرا عن مجتمع الرسول والتابعين ... فنأخذ من كلامهم العبرة والعظة وليس التطبيق النصي! فلم يعد الفردي التطوعي هو الحل الأمثل ... وإنما العمل المؤسساتي الجماعي!! علينا أن ندرك أن الدولة الإسلامية هي المستخرجة من كتاب الله، وليس من كتب الفقهاء والأصوليين القدامى، فليس لهذه الكتب القداسة، وإنما هي اجتهادات بشرية مناسبة لعصورهم، وعلينا أن نجتهد نحن أيضا لنقدم أفضل التصورات .. الإسلامية .. المناسبة لعصرنا!!

كما أن علينا أن ندرك أن الدولة الإسلامية لا تعني دولة إقامة الحدود، فكثير من المسلمين وغيرهم يظن أن إقامة الدولة الإسلامية يعني قطع يد السارق وجلد الزاني ... وإقامة باقي الحدود! وهذا هو الفارق الذي يرونه بين الدولة الإسلامية والدولة المدنية!! وينسى هؤلاء أن الدولة الإسلامية تختلف عن غيرها من باقي الدول في كونها دولة ترى أن من أهم أدوارها تربية مواطنيها والعمل على نشر الأخلاق الحميدة بينهم! فهذا هو الدور الأول لها والذي تتميز به عن غيرها! والذي يجب عليها القيام بها مع اليوم الأول لقيامها، كصراط أساسي تلتزمه! ثم يأتي بعد ذلك بفترة مسألة تطبيق الحدود العقابية .... المحدودة جدا!! والتي ليس منها جلد شارب الخمر أو قتله بعد تكرار شربه عدة مرات، أو قتل الساحر أو رجم الزاني المحصن أو قتل المرتد (بدون حرابة) والمنسوبة إلى الإسلام زورا وبهتانا!

قد يرى القارئ أننا ركزنا على الجانب الترفيهي بشكل كبير على الرغم من حديثنا عن الدولة الإسلامية والتصور الإسلامي، وهناك الكثير من الجوانب الأخرى التي تستحق التناول والعروض لها! فنقول: هذا التركيز راجع إلى أن هذا الجانب من أكثر الجوانب

التي تثير قلق المسلمين ويتفكرون بشأنها، ماذا وكيف تكون عند قيام الدولة الإسلامية! كما أنها من أبرز المظاهر المنسوبة إلى الإسلام، والتي نراها في أيامنا هذا، فعرضنا لنقول أنها ليست إلا تركيزا على جانب واحد، وأن ما عداها ليس بمحرم بل مطلوب بقدر! كما أن ما سواها لن يحتاج إلى تغييرٍ إلا بشكل طفيف عند قيام الدولة الإسلامية.

أولويات السلفية

بيّنا في سفرنا الضخم "عقائد الإسلاميين" أن الفرق الإسلامية المختلفة –ويصدق هذا على السلفية– لا تقدم الإسلام تقديماً سليما لأتباعها وإنما تعرفهم بأصول الدين، ثم تعمل بعد ذلك على غرس عقائدهم –التي خالفوا فيها الفرق الأخرى– في عقولهم وقلوبهم، وجعلها في وجدانهم من المسلم به مثل أصول الدين، فإذا أراد المسلم أن يتعلم دينه عُلم هذه المسائل من وجهة نظر الفرقة، ومن ثم لا يعرف عن الدين إلا أصوله وما يُميز فرقته.

وهذا ما حدث مع السلفية، فلقد ظهر عندهم خلل رهيب في ترتيب الأولويات، لأنها لا تزال تتعامل بعقلية مجتمعات السلف، حيث الشيعة لا يزالون يسبون الصحابة، وحيث هناك المعتزلة والمرجئة والجهمية، وتبعاً لترتيب بشر –لم يحيطوا خُبرا ولا علماً بما يدور حولهم– لخطورة الأمور، فضخموا وهوّلوا أمور بسيطة على حساب أخرى عظيمة، فجعلوا لمحاربة الصوفية الفضل الكبير والمنزلة العظيمة في الدين، من باب محاربة الشرك!

كما اهتموا بالسنن والمندوبات والهيئات ونسوا كثيراً من الواجبات التي تحتاجها الأمة من الاهتمام بالعلم وبمنزلة الأمة بين الأمم، لأنها مما لم تكن على زمان النبي الكريم، ولم يقل فيها لا هو ولا السلف قولاً ومن ثم لا تثيرهم ولا تحركهم.

ولن نعرض هنا للمثال الشهير الذي يقول أنهم يهتمون بلحاهم ولا يهتمون بتزوير الانتخابات ولا يهتمون بحقوق الإنسان، ويتحركون لنصرة اللحية والنقاب ويدعون لمقاطعة من يهاجمهما بينما لم يقاطعوا من يساند أعداء المسلمين! وإنما سنعرض لمثال آخر، متعلق بالعدالة عامة والاجتماعية خاصة، رأوه جميعاً ولم يحركوا له ساكناً، بينما يهتزون وينفعلون للقول بحِل حلق اللحية، وهذا المثال هو: "نظام الكفالة" أو بتعبير أدق: العوالة[70].

ذلك النظام الذي ابتدعته الدول العربية، وجعلت من يعمل فيها قريبا من العبيد عند أهل البلد! ولست أدري كيف ولماذا نلوم ونعتب على الغرب –الكافر!– لأنه يمتص دمائنا ويستنزف ثرواتنا لصالحه، ويتركنا هكذا في تخلفنا! فإذا كنا نستعبد إخواننا من جلدتنا وقوميتنا ومن أتباع نفس ديننا ونأبى إلا أن نعاملهم كعبيد! فننسى تعاليم ديننا وننسى أقوال نبينا وأفعال صحابته الأخيار الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ونأبى إلا امتصاص الأموال والدماء وإذلال العباد والعيال تباعا!

وأصبح لسان حال الخليجين –ونخص منهم السعوديين! أصحاب الحرم والمدعين التمسك بالشريعة والالتزام بالسنة والذين أغرقوا العالم الإسلامي كتيبات تتحدث عن السنة وأهميتها وحتميتها ثم ألقوها وراء ظهورهم واتخذوها ظهرياً– يقول: مثل المؤمنين في ابتزاز إخوانهم واستعبادهم كمثل الوحش الكاسر إذا وجد فريسة تداعى عليها كما تداعى الأكلة إلى قصعتها!

وخرج علينا بعض علماء الدين –الخليجين والسعوديين!– يبيحون ويجيزون هذا الإذلال بمبررات عدة وبتخريجات فقهية جهبذية المنحى والمنهج! وليس في هذا أي عجب، أليسوا هم من أجازوا الاستعانة بالكفار في محاربة المسلمين؟!

---

(70) نحن لا نلوم الفقراء الذين يقبلون العمل بهذه الشروط المذلة المجحفة! فلقد أصبحت الحياة الكريمة في عامة دولنا العربية المحسوبة على الإسلام أمرا صعبا عسيرا! وأصبح الزواج في أيامنا هذا حلما عسير المنال، فمن يتخرج في بلده ويستطيع الزواج بدون سفر إلى دولة من دول الخليج الغنية ... الجشعة؟! فلا يفعل هذا إلا من كان ممن ولدوا وفي أفواههم طاقم من الملاعق الذهبية وباقي أدوات المائدة! أو ممن اضطر إلى العمل في مجال السياحة –في مصر تحديدا– فهكذا فقط تستطيع الزواج والعيش عيشة كريمة، أما بخلاف ذلك فسيكون من "الفرقة الناجية" التي استطاعت أن تفعلها!

وإني أشهد الله أني براء ممن يجيز لإنسان أن يأكل عرق إنسان آخر بدون أي وجه حق! ولست أدري صراحة كيف يقبل الكفلاء –الكففاء، العولاء– الخليجيون أن يأخذوا من أجر إنسانٍ عمل واجتهد نسبة من ماله! ماذا فعل هذا الخليجي العويل حتى يأخذ منه؟ هل نسوا قول الرسول الكريم: "أعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه!" يبدو أنهم جعلوا لهم نسبة في حقه وظنوا أن هذا من حقهم! ولست أدري بأي مبرر يكون هذا؟!

وليت الأمر اقتصر على مسألة أخذ نسبة من ربح العامل الحلال –والذي هو للخليجي نار في بطنه!– وإنما تعدى الأمر ذلك إلى التحكم في العامل نفسه وفي تصرفاته وهذا هو عين الاستعباد، ولست أدري ما الفرق بين نظام العوالة –المسمى زورا وبهتانا: الكفالة– وبين العبودية؟! وفي السعودية لا حق للأجنبي أن يتعامل مع أي جهة حكومية إلا عن طريق الكفيل؛ فإذا كان عندك مشكلة مع الكفيل تطلب من الكفيل أن يقدم شكوى على نفسه نيابة عنك! وهكذا أصبح الكفيل هو الخصم والحكم!

ويتحجج هؤلاء العولاء بأن هذا ضروري حتى لا تغرق بلادهم بالأجانب ويحدث تغير في ديموغرافية البلاد! فيصورون الأمر كأن إلغاء الكفالة سيلغي معه السفارات والمطارات والحدود وعقود العمل، وتُفتح البلاد الخليجية على مصراعيها لكل من هب ودب فيأتون إلى الدولة زرافات ووحدانا!

ولست أدري ما المانع من وجود قدوم منظم للعمالة إلى الدولة المرغوب فيها، وأي دولة تعلم كم هو حجم العمالة الذي تحتاجه، فتعلن عنه وتستقدمه عن طريق مكاتب العمل! بحيث يعمل فيها هذا العامل تحت رقابة الدولة، ولا مانع أبداً من دفع جزء من ربحه إلى الدولة وليس إلى أفراد! على الرغم من أنه من الأولى ألا يدفع إلا مقدار الرسوم العادية من ضرائب ورسوم إقامة وما شابه، فهذا القادم يقوم بتنفيذ كثير من الأعمال والتي لو لم يقم بها لتعطل سير المشاريع والأمور في هذه الدول، فالدولة لا

تتصدق عليه بتشغيله عندها، بل هي في حاجة إليه –لأنه عمالة رخيصة أرخص من المواطن– وهو في حاجة إليها لأن العمل في بلده ما عاد يجدي!

وبما إنه احتياج متبادل فلما الظلم والاستعباد؟! يبدو أن الجميع نسو قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [سورة الملك, ١٥] فيريدون أن يستعبدوا من يريد أن يمشي في مناكبها ليأكل من رزق الله، وظنوا أنهم هم الرازقون! ونسوا قول الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [سورة الرحمن, ١٠] فلم يضعها لفلان أو علان فقط! ولكن للأسف الشديد أرادت الدول الخليجية أن تجعل مواطنيها مجموعة من الكسالى الذين يأتيهم المال بلا عمل، فلا يسألون حكامهم عما يفعلون، ولو سألوا لرفعوا عنهم بعض الامتيازات وأهمها العوالة! الكفالة.

والسؤال هنا: لقد رأى السلفيون هذا الموقف وأمثاله ولم يحرك له لا سلفيو السعودية ولا سلفيو مصر ساكناً، فماذا سيكون الحال بعد توليهم الحكم، هل سيعملون على إلغاء مثل هذه القوانين الجائرة واستصدار قوانين تتفق مع روح الإسلام أم سيظلون منشغلين بالفرعيات؟

إن علينا أن نعترف أن السلفيين تغير حالهم بعد خوضهم غمار السياسة، وفارق بين أن نعرض للسلفيين كأفراد وبين أن نعرض لهم كفصيلٍ سياسي له برنامجٌ يبدو جيداً، ومن ثم يحق لنا أن نتساءل: هل سيعملون على تطبيق هذا البرنامج فعلاً كحزب سياسي، أم أنهم سيظلون يفكرون باعتبار أنفسهم جماعة دعوية؟

وعود السلفية

ما الذي يبشر به السلفيون وما هي الوعود التي يقدمونها للمجتمع؟!

إن السلفيين يشعرون "بانجذاب" إلى الماضي لأنه أفضل من المستقبل –من وجهة نظرهم هم والعجائز–، وذلك صدقوا بالصورة السوداوية التي قدمتها الرواية التي رواها البخاري عن الزبير بن عدي، يقول: "أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ: فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى مِنْ الْحَجَّاجِ. فَقَالَ: اصْبِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ. سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[71]" اهـ

ولست أدري كيف قال النبي الكريم هذه الكلمات لأصحابه ولماذا قالها لهم وما معناها؟! إن هذه الكلمة مثل قولي لمريض: اصبر فلا علاج لك! ومن ثم تحمل حتى تموت! وهذا معنى هذه المقولة، وكان من الأولى أن يقال: "افرحوا بما أنتم فيه، فالقادم أسود وأسوء!"

وبهذا أصبح الزمان عبارة عن "منحدر" بدء مع عهد النبي (وإن كان من المفترض طبقاً لهذه الرواية أن يكون عهد النبي أسوء من الجاهلية!! معاذ الله)، وهذا المنحدر مستمر في انحداره حتى قيام الساعة، وهو أمر يكذبه الواقع والتاريخ، فالأيام كلها تتأرجح بين كونها حسنة وسيئة، وما من زمان كله خير ولا شر، فطالما هناك بشر فهناك صراع.

فإذا قلنا أن هذا الحديث كان مخصوصاً بالصحابة فقط وليس عاماً في كل الأزمنة والقرون، ومن ثم فليس للسلفية هذا الموقف المتشائم، نتساءل: هل ستقدم السلفية مجتمعاً "سليماً صحيحاً"؟!

إن الناظر في الوعود الوردية التي تقدمها السلفية كحلول للمجتمع، يجد أنها دعاوى

---

[71] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء التاسع، ص. 49.

فارغة، فالسلفية ليست نظرية لمّا تُطبق بعد، وإنما طُبقت –ولا تزال– في المملكة العربية السعودية ورأينا آثارها، فماذا قدّموا للبشرية أو حتى لإخوانهم من المسلمين؟ هل قدموا لهم حصاداً علمياً أو حتى أدبياً؟ لم يقدموا لهم إلا الكعبة! فإذا تركنا الجانب العقلي والذي لن نتوقع فيه إبداعا، لأن السلفيين يُربون على الإتباع وعدم إعمال العقل، وقصدنا الجانب الأخلاقي وتساءلنا: هل المجتمع السعودي –كمجتمع وليس كأفراد– مجتمع ذو أخلاق حميدة؟!

الناظر يجد أن حال المجتمع السعودي لا يختلف في درجة السوء عن غيره من المجتمعات غير السلفية –إن لم يكن أسوء– فلم يؤد التضييق الذي مارسه مشائخ السلفية على المجتمع السعودي النتيجة المقصودة، وإنما أتى بنتيجة عكسية، فأوجد التزاماً ظاهرياً، واقعه حالة كبيرة من الكبت عند السعوديين، أدت إلى ظهور "الشذوذ" وانتشاره في المجتمع السعودي، كما لم يمنع هذا الحصار المفروض على المرأة من وقوع الفاحشة والخيانة، فتحايلوا عليه بمختلف السبل، حتى وصل الحال بالسعوديين والسعوديات أنهم أصبحوا يتواعدون في المسجد الحرام!! ووصل الحال بالمرأة السعودية أنها فقدت عزتها وكرامتها وأصبحت هي من تغازل الشباب وتطلب ودّهم، فترمي لهم أرقام هواتفها حتى يحادثوها ويغازلوها!

ولا يقتصر الأمر على الجانب الجنسي، وإنما يتعداه إلى جوانب كثيرة سلبية، مثل البذخ والإسراف المستشري في المجتمع السعودي، وازدياد أعداد أفراد المجتمع بشكلٍ سريع، بدون وجود أواصر أسرية قوية ناتجة عن التربية السليمة التي تحدث بتفرغ الآباء للأبناء، ناهيك عن غلظة الطباع وجفاءها وقسوة القلوب واستغلال الآخرين وامتصاص دماءهم، وغير ذلك من العيوب والسلبيات.

والسؤال هنا: هل يرى السلفيون أن تطبيق السلفية سيؤدي إلى إصلاح حال المجتمع؟! إن النموذج السعودي يعطي إجابة صارخة بلا، ومن ثم فعليهم تطبيق سلفية مبدلة أو معدلة غير تلك المطبقة في السعودية، حتى يمكن لهم الإدعاء بأن "السلفية

هي الحل"، فما هي ملامح تلك السلفية المعدلة؟ هذا ما سترينا إياه الأيام والسنون القادمة!

نقض أدلة وجوب إتباع السلف

بعد أن بيّنا أن وجوب الإيمان بأقوال السلف لا يعني إلا إلغاء العقل الذي بواسطته آمن الإنسان، نتوقف مع الأدلة التي يستدلون بها على وجوب إتباع السلف، لننظر هل لهم دليلٌ "نقلي" في دعواهم هذه، أم أنه تأصيل عقلي مقلوب؟!!

الناظر في هذه الأدلة لا يجد فيها دليلاً واحداً صريحاً، وإنما هي أدلة حُملت ما لم تأت من أجله، ولو كان هناك دليلٌ واحدٌ صريح لما احتاجوا أن يكاثروا بهذه الأدلة، فأول دليل يحتجون به من القرآن، هو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [سورة النساء, ١١٥]

ولا دليل في الآية فهي تتحدث عن مشاقة الرسول وهذا فعل المحاربين للدين وليس المخالفين لاجتهاد مؤمنين! وحتى كتب التفاسير وأسباب النزول نجد أنها قالت أنها نزلت فيمن ارتد عن الدين واتبع غير سبيل الإسلام، فأين الدليل على وجوب إتباع أفرادٍ بعينهم؟!

العجب كل العجب أن نفس هذه الآية تُستخدم كدليل على حجية الإجماع، والذي كان الإمام الشافعي مقتنعاً به عقلاً ثم أخذ يبحث له بعد ذلك عن دليل في كتاب الله حتى وجد هذه الآية فجعلها حجة له!! (وردّه في هذا أئمة من مذهبه مثل الجويني!) وإذا كان أهل العلم قد خالفوا قديماً وحديثاً أحاديث نبوية صحيحة لعلل عديدة تبعاً لقواعد أصولية، من باب الجمع بين الأدلة، فكيف لا يمكن مخالفة أقوال السلف،

الذين اختلفوا هم أنفسهم؟! واختلافهم على أن أقوالهم اجتهاد، فكيف نضعها كلها في خانة واحدة ونلزم المتأخرين به؟!!

ومن أدلتهم كذلك: ﴿... وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ... ﴿١٥﴾﴾ [سورة لقمان, ١٥]، فيقولون أن كل الصحابة منيب إلى الله، فيجب إتباع سبيلهم! وليس في الآية دليلٌ على ذلك، وإنما هي فيمن يريد والداه إجباره على الشرك، حيث قال الله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ... ﴿١٥﴾﴾ [سورة لقمان, ١٥]، فهنا حديث عن حكم عام وهو إتباع سبيل المؤمنين في مقابل المشركين، الذين يحثون على الكفر، فليس للآية أي علاقة بالاجتهادات الفقهية!!!

ومن أدلتهم كذلك: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [سورة البقرة, ١٣٧] وليس الحديث هنا عن الصحابة كجيل مقابل للأجيال التالية، وإنما الحديث عن المؤمنين في مقابلة اليهود والنصارى، الذين يدعون أن الاكتفاء بما لديهم هو الهداية، فيبين الله أنه يجب الإيمان بكل الأنبياء وما أنزل إليه، فإن فعلوا فقد اهتدوا، فالله يقول: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [سورة البقرة, ١٣٥-١٣٧] فليس الحديث هنا عن التزام عقائد الصحابة وإنما عن الإيمان بكل الأنبياء.

ومن أدلتهم كذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة البقرة, ١٤٣] وهنا لا يزال الحديث عن أمة

المسلمين كمقابل لليهود والنصارى وكذلك المشركين، والآية السابقة لهذه تقول: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٤٢﴾ [سورة البقرة, ١٤٢]، فليس الحديث عن الصحابة أو السلف وإنما على كل أمة المسلمين كمقابل لغير المسلمين، يشهدون عليهم.

كما يستدلون بالآيات التي تثني على الصحابة، مثل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [سورة التوبة, ١٠٠] وهنا ليس الحديث كذلك عن الصحابة في مقابل الأجيال التالية، وإنما الحديث عنهم في مقابل الأعراب المنافقين، حيث يقول الله في الآية السابقة: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٩٩﴾ [سورة التوبة, ٩٩]، فالمؤمنون المتبعين الذين سبقوا في الدخول في الإسلام والذين تأخروا في الدخول في الإسلام لهم أجرهم عند ربهم، فليس الحديث هنا عن إتباع في الآراء وإنما عن إتباع في الإيمان بالله ورسوله وعدم النفاق.

فإذا تركنا أدلتهم القرآنية والتي ليس فيها دليلٌ واحد لهم، وانتقلنا إلى أدلتهم من السنة، وجدناهم يستدلون بروايات كذلك تتحدث عن فضل الصحابة، مثل الرواية الشهيرة التي رواها مسلم: "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ النَّاسِ[72] خَيْرٌ؟ قَالَ: قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَبْدُرُ

[72] ورد الحديث بأشكال عدة، فنجد عند البخاري ومسلم: "عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم". قال عمران: فلا أدري أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا." وكذلك: "سَمِعْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قَالَ عِمْرَانُ فَلَا أَدْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ وَيَنْذُرُونَ وَلَا يَفُونَ وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَنُ"، وبهذا النص فليس فيه دليلٌ على أفضلية جيل الصحابة على كل الناس في مختلف العصور، وإنما المقارنة داخل أمة الرسول، فالمقصود بالناس هم المسلمون وليس كل البشر.

شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَتَبْدُرُ يَمِينُهُ شَهَادَتَهُ."

والحديث كالآيات يتحدث عن خيرية وأمانة الصحابة وصدقهم، إلا أنه لم يقل أنهم أعلم المسلمين، ولم يُلزم بأخذ أقوالهم كحجة.

ومن أدلتهم كذلك ما رواه مسلم: "عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: (...) وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ"، وليس الحديث هنا عن العلم والتعلم، وإنما الحديث –على فرض صحته– عن ضرب من ضروب "البركة"، فالعذاب لا ينزل لوجود الرسول، فإذا مات رسول حدث للأمة بعض الحوادث، وإذا انقضى جيل الصحابة نزل بالأمة بعض النوازل، ومن ثم فالرواية تقول أن الرسول والصحابة نافعون في حياتهم، بينما لا ينفعون بعد موتهم، فكيف ننسب لهم نفعاً بعد الموت؟!!

كما يستدلون بأدلة أخرى، سنعرض لها منفردة أو أثناء حديثنا عن نقاط أخرى، ونختم بالقول: نتفق مع ما روي عن الإمام مالك: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"، فلقد أصلح حالها أنها تمسكت بكتاب الله، فصلاح حالنا في عودتنا إلى كتاب ربنا وتمسكنا بها وليس وقوفنا عند أفهام آخرين، فلقد عاب الله على الكافرين تمسكهم بما ورثوه عن آبائهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [سورة الزخرف ,٢٣]، وروي عن السلف أنفسهم أنهم نهوا عن تقليد الرجال وأمروا بالأخذ من حيث أخذوا، فكيف نخالفهم أنفسهم ونصر على تقليدهم؟!!!

كما نجد في الرواية الأولى أن الرسول يخاطب أصحابه قائلاً أن خيرهم قرنه، وهذا يعني أن المقصود بالقرن ليس المعاصرين للنبي، فكل الصحابة معاصرون له، وإنما المقصود بذلك أقران النبي، أي المشابهون له في الحال والعمل أو أكثرهم اقتراناً أي ملازمة وصحبة، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، فالعبرة بالاقتراب من حال النبي وعمله وملازمته، وليس بالفترة الزمنية.

الفرقة الناجية

بالإضافة إلى الأدلة السابقة يستند المؤصلون للمنهج السلفي إلى رواية الفرقة الناجية كدليلٍ على وجوب اعتماد فهم الصحابة والسلف، كما أن أتباع المنهج السلفي أنفسهم يتخذونها كدليلٍ تميز لهم باعتبارهم أتباع الصحابة وورثة مدرسة الحديث، التي كانت تعتبر نفسها الفرقة الناجية، حتى أنه روي عن أحمد بن حنبل: "لو لم تكن الفرقة الناجية أهل الحديث، فلا أدري من هم؟!"

ولعبت هذه الرواية دورا كبيرا في تزكية التعصب في نفوس المتدينين، فلقد جعلت كل المسلمين في النار إلا فرقة واحدة، ومن ثم حرص الكل أن يكون هو هذه الفرقة! واتكأ عليها في رمي الآخرين بالضلال! ومن ثم لم يعد عامة المسلمين على خير، وإنما "فرقة" واحدة منهم! أما الباقون فهم من أصحاب النار مهما عملوا ومهما قدموا! فلن ينفعهم أن آمنوا بالله وبالرسول وباليوم الآخر وبالكتب وبالملائكة وعملوا صالحا، إن لم تكن باقي عقائدهم بشكل من الأشكال لم يبينه الله ولا رسوله للمسلمين! لذا نفردها بتناولٍ مخصوص:

إذا نظرنا في هذه الرواية وجدنا أنها وردت بأشكال عدة، فنجدها عند أبي داود: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَتَفَرَّقَتْ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً[73]"

فالحديث عن مجرد افتراق بدون تصويب لإحداها وتضليل لآخرين، بينما نجد الوضع يختلف عند ابن ماجه، فنجده يروي: "عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَافْتَرَقَتْ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ

[73] سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، الجزء الثاني، ص. 608.

فِي الْجَنَّةِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: الْجَمَاعَةُ[74]"

ويروي كذلك ابن ماجه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ الْجَمَاعَةُ[75]"

فالروايات تنسب إلى الرسول[76] أن الأمة تختلف على واحد أو اثنين أو ثلاث وسبعين فرقة، وبعضها يتحدث عن مجرد افتراق وبعضها يقرن الافتراق بالضلال، فإذا تساءلنا: هل سند هذه الروايات الخطيرة، التي حكمت على أكثر المسلمين بالضلال، هل هي صحيحة السند؟

الناظر في تخريجات أصحاب مدرسة الحديث لها نجد أنها تتأرجح بين الحكم عليها بالصحة والضعف بل والوضع! ولن نتوقف طويلا مع مسألة السند هذه فسنجد من أرباب الحديث من يتفنن لتصحيحها، أو من ينقل بدون بينة عن مشائخه، وننتقل لنقد متن الحديث لننظر، هل هذا المعنى صحيح متفق مع أصول الدين أم هو مما ظهر في عصور التمزق والاختلاف ، فزادها حدة!!

الناظر في الروايات يجد أنها تقرن مسلك الأمة الإسلامية باليهود والنصارى، فكما أن اليهود والنصارى تفرقوا فكذلك المسلمون! ولا إشكال في هذه النقطة، وهذا حادث وواقع ومتوقع! وإنما الإشكال كله في تحديد عدد الفرق! ولو قيل أنهم تفرقوا على سبعين فرقة ونحن سنزيد عنهم لكان من الممكن القول بأن المراد من العدد الكثرة وأننا سنزيد عنهم!

[74] أبو عبد الله محمد بن ماجة، سنن بن ماجة، الجزء الخامس، ص. 128.

[75] المرجع السابق، ص.130.

[76] ونغض الطرف عن بعض الروايات التي نسبت هذا القول إلى غير الرسول، مثل ما رواه ابن بطة في الإبانة الكبرى، الجزء الأول، ص.375: " أن عبد الله بن قيس، قال: اجتمع عند علي رضي الله عنه جاثليتو النصارى، ورأس الجالوت، فقال الرأس: أتجادلون؟ على كم افترقت اليهود؟ قال: على إحدى وسبعين فرقة، فقال علي عليه السلام: «لتفترقن هذه الأمة على مثل ذلك، وأضلها فرقة وشرها الداعية إلينا أهل البيت وآية ذلك أنهم يشتمون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما»"

أما أن تحدد الرواية عدد فرق اليهود والنصارى والمسلمين، فهذا مخالف للواقع! فلم تكن فرق اليهود ولا النصارى ولا المسلمين بهذا العدد! ناهيك عن أن عدد الفرق الإسلامية في ازدياد، فما حكم هذه الفرق الإضافية؟! هل تُلغى من تلقاء نفسها أم أنها واجبة الإدراج التلقائي في فرق أخرى؟! إن هذا التحديد وحده كفيل بإسقاط هذه الرواية وعدم الالتفات إليها!

فإذا تركنا مسألة العدد الباطلة، وجدنا أن الرواية قد حكمت على ما يزيد عن 98% من المؤمنين بالله في العصور الأخيرة بالنار! ولن يدخل منهم إلا ثلة لا تناسب بينها وبين عدد المؤمنين الإجمالي!! ولم يهتم المسلمون بمعرفة سبب دخول اليهود أو النصارى أو حتى المسلمين النار، وإنما سألوا عن الفرقة الناجية!! مع أنه كان من المفترض أن يسألوا لماذا أصبح كل هؤلاء المسلمين من الضالين أصحاب النار؟! إن هذه الرواية تؤصل لقاعدة أن دخول الجنة أمرٌ عسير يستلزم معرفة دقائق في الدين ومعرفة تاريخه والاعتقاد بأقوال طائفة معينة من العلماء! مع أن الله تعالى قال في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة البقرة ,٦٢]، ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [سورة البقرة ,١١٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٧٧]

فالعبرة بالإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، أما فروع المسائل فلا تقدم ولا تؤخر! فهي مسائل خلافية! وعلى الرغم من ذلك حكمت الرواية على الأكثرية الساحقة بالنار!

فإذا تركنا هذه النقطة وجدنا أن الحديث عن "فرقة ناجية" هو كلام متناقض، لا يمكن قبوله بحال! فالفُرقة مرفوضة مذمومة في دين الله العلي، فطالما حدث اختلاف وتفرق

فهذا بُعد عن دين الله الواحد! فكيف تكون فرقة وتكون ناجية؟! طالما أنها فرقة فهي ليست أصلا! وهي فرقة مثل غيرها وهذا يعني وجود نسبة ضلال! ولو كان الرسول أفصح العرب هو من قال هذه الحديث لما صاغه بهذا الشكل، ولقال –مثلا–: "يزيغ عن الحق من أمتي كذا فرقة، وتظل عليه جماعة أو أمة ... الخ!"، أما أن ينعت الجميع بالافتراق فهذا يعني أن كل الفرق قد خالفت وحادت عن الحق بشكل من الأشكال، وهذا كلام متناقض، فمن المفترض أن الممسكين بالحق لم يفترقوا وإنما افترق غيرهم عنه، وهم ظلوا وتمسكوا، ومن ثم فكان من الواجب أن أن يكون هناك حديث عن تفرق طوائف وتمسك أمة أو جماعة بما هي عليه!!

فإذا غضضنا الطرف عن هذا الخطأ التركيبي الذي لا يقع فيه الرسول الكريم ونظرنا في كتاب الرب العظيم وجدنا الله العليم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ [سورة الأنعام, ١٥٩]، فنجد أن الله تعالى ذم التفرق في الدين، إلا أنه لم يقل أن المتفرقين من أصحاب النار، وإنما قال في الآية التالية: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [سورة الأنعام, ١٦٠]، فقانون حساب الأعمال ساري في جميع الأحوال، فلن يبطل التفرق الأعمال ولن يجعل أصحابه من أصحاب النار حتما!!

إذا فالتفرق ليس حاكماً بكون الإنسان من أصحاب النار وإنما مرجع هذا إلى الله، فجل إن لم يكن كل أصحاب الفرق يظنون أنهم يتبعون الدين الصحيح، والله وحده هو الأعلم بما في الصدور، ومن ثم سيحاسبهم على هذا!!

"فمن أهم سمات الجنس البشري الاختلاف، الاختلاف في وحول كل شيء، وذلك راجع لتفاوت الأفهام، ولاختلاف المنظور الذي يرى به كل إنسان الأمر المطروح أمامه، وبسبب اختلاف منظور البشر إلى الشيء اختلفت ألسنتهم وتنوعت، وفي هذا يقول الرب العليم: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ

وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾] سورة الروم, ٢٢]

وعلى الرغم من أن الله عز وجل ذم الخلاف، ودعا إلى الوحدة وأرسل رسله لرفع الاختلاف بين الناس، إلا أنه قضى أن هذا الخلاف سيستمر ولن يُرفع، ولن يتدخل سبحانه لرفعه، وإنما سيكون هذا الإلغاء والرفع في يوم الفصل، حيث يقضى على هذا الخلاف قضاءً أبديا، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾] سورة هود, ١١٨]، ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾] سورة يونس, ١٩]، ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾] سورة الحج, ٦٩].

وكما حدث الاختلاف بين الأمم السابقة لطبائعهم البشرية، حدث الاختلاف بين الفرق الإسلامية لأسباب عدة، ليس هذا مكان أو زمان تفصيلها، إلا أن العنصر الرئيس للاختلاف هو فهم كل فرقة لكتاب الله عز وجل؛ فكل فرقة تدعي أنها تفهم كتاب الله على الوجه الأمثل، وأنها تتعامل معه كما ينبغي، أما الفرق الأخرى فهي التي تؤوله ولا تنزله منزلته الحقة.[77]" اهـ

إن السلفية تريد أن تنتج أجيالاً من البشر يكونون "قالباً واحداً"، يفكرون بطريقة واحدة، يتصرفون بطريقة واحدة! وهذا ما لم يدع إليه الإسلام بحال، فلقد تقبل اختلاف الأعراف والطباع والعادات والتقاليد ولم يطالب بإلغاء هذا كله من أجل الدخول في الإسلام، وإنما وضع الإطار العام للحياة الذي يجب ألا يحيد عنه المسلم أو يصادمه.

فإذا تركنا بطلان كون فرقة ناجية وانتقلنا إلى الجواب المفترض أن الرسول الكريم قدمه، وجدناه يجعل مقياس الفلاح هو الجماعة!! أي أن العبرة بالكثرة!! ولست أدري أي جماعة يقصد الرسول؟! فإذا كنت في بلد شيعي فالشيعة هم الجماعة والسنة قلة!

[77] عمرو الشاعر، القرآنيون: مصلحون أم هادمون؟ ص25-26.

وإذا كنت في بلد إباضي فكذلك! ونجد أن رواية أخرى قالت أن العبرة بما كان عليه الرسول وأصحابه! ونعجب ونتساءل: من كان الرسول يكلمه أصلا؟ فمن المفترض أن الرسول كان يكلم الصحابة، فمن المفترض أن يقول: من هو مثل ما أنا وأنتم عليه!! ولست أدري لماذا يُدخل الرسول أصحابه في الدين؟! فلو كان قال أن العبرة بمن اتبعني، لكان الأمر مقبولا بدرجة! أما أن يجعل لأصحابه نصيبا من الدين فهذا هو العجب العجاب! فلقد اختلف الأصحاب، فمن نتبع؟!

إن هذه الإجابة شبيهة بالرواية التي قالت أن الرسول لما ذهب ليقرأ القرآن على الجن ليؤمنوا فقالوا له من يشهد لك؟ فقال هذه الشجرة، فأتت الشجرة لتشهد للرسول!! فإذا كان الرسول قد أقر أن القرآن ليس بكاف واحتاج لآية حسية ليؤمن الجن، فهذا يعني أن الدين كله قد سقط، فلا بينة في القرآن نفسه!

وكذلك هنا، فبدلا من أن يقول الرسول أن الطائفة الأصل هم الذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة، أو يقول: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ ... ١٠٣﴾ [سورة آل عمران, ١٠٣]، فبدلاً من أن يقول أن العبرة بحبل الله القرآن، يقول لهم أن العبرة بمن كان على مثل ما هو عليه وأصحابه! وهكذا أصبح الرسول وأصحابه هم المعيار، وهؤلاء لن يعرفهم الإنسان بالقرآن، ومن ثم فعلى المؤمن حقيق الإيمان!! أن يلجأ إلى أرباب الحديث ليخبروه بما كان عليه الرسول وأصحابه حتى يفعل مثلهم!!

إذاً وكما رأينا فالرواية باطلة من جميع النواحي، فكل جملة من جملها مناقضة للواقع وللتاريخ وللقرآن ولأصول الدين بل ولروايات أخرى –أصح منها سندا!– قالت أن من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه دخل الجنة!! وعلى الرغم من ذلك نجد من يتمحك من أجل تصحيحها بشكل من الأشكال!! وهكذا رأينا صراعا مريراً بين المسلمين، كلٌ يحاول أن يجعل نفسه هو الفرقة الناجية أو منها! ونشأت أجيال من المتعصبين تنظر

إلى غيرهم باستعلاء لأنهم هم الفرقة الناجية ... مع أنه لا يمكن أن تكون فرقة ... وتكون على صواب!!

استباحة المخالف

من الآثار السيئة لإيمان السلفيين بحديث الفرقة الناجية أن جعلوا لأنفسهم منزلة خاصة، فهم على الحق، ومن ثم يباح لهم أن يدافعوا عنه بكل الطرق حتى لو وصل ذلك إلى السباب، ومعهم في هذا الدليل، فأسقطوا أحاديث متعلقة بسباب جاهليين على مخالفيهم، فاعتمدوا ما رواه الطبراني مثلاً:

"عن عجرد بن مدراع التميمي أنه نازع رجلا عند أبي بن كعب، فقال: يا آل تميم، فقال أبي: أعضك الله بأير أبيك، فقالوا يا أبا المنذر، ما عهدناك فحاشا، فقال: «إن نبي الله صلى الله عليه وسلم أمرنا من اعتزى بعزاء الجاهلية أن نعضه ولا نكني[78]» حيث تزعم الرواية أن النبي أمر بالسباب! كما تدعي رواية أخرى أن الصديق سب في حضرة النبي ولم ينهه النبي عن ذلك، مثل ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه: "... فخرج عروة حتى نزل برسول الله (ص) بالحديبية فقال: يا محمد! هؤلاء قومك كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد خرجوا بالعوذ المطافيل، يقسمون لا يخلون بينك وبين مكة حتى تبيد خضراءهم ، وإنما أنت من قتالهم بين أحد أمرين: أن يجتاح قومك، فلم تسمع برجل قط اجتاح أصله قبلك، وبين أن يسلمك من أرى معك، فإني لا أرى معك إلا أوباشا من الناس، لا أعرف أسماءهم ولا وجوههم، فقال أبو بكر وغضب: أمصص بظر اللات، أنحن نخذله أو نسلمه، فقال عروة: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك فيما قلت، ...[79]" اهـ

---

[78] سليمان بن أحمد الطبراني، مسند الشاميين، الجزء الرابع، ص.39.

[79] أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: محمد عوامة، الجزء 14، ص.446-447.

ومن ثم قالوا أن الرسول الكريم أمر أن نسف باللفظ إسفافاً ما بعده إسفاف لمن تعزى بعزاء الجاهلية وأن نقول "عظ على فرج أبيك ومص بظر أمك! وأن لا نستعمل الكناية في ذلك بل اللهجة الدارجة، وهذا فيمن أخطأ خطاءً ميسوراً في نظر كثير من الناس، فما بالك بأخطاء الاعتقاد والكفر والزندقة؟! كما يقولون أن الصحابة سبوا بعض المخالفين، ناهيك عن سلفهم من علماء مدرسة أهل الحديث الذين كانوا يسبون خصومهم، ولهم فيهم القدوة الحسنة.

ومن ثم جعلوا المسلم مأموراً بأن يكون سباباً –وليس لعّاناً!!!– في مواجهة الضالين المنحرفين، ولربما تكون هذه هي الحكمة والموعظة الحسنة التي أُمر المسلم أن يدعو بها إلى الله، ولهذا وجدنا السلفيين يكيلون السباب لخصومهم بلا تحرج، والنماذج على ذلك كثيرة، فنجدهم يصدرون كتبهم في تخريج الأحاديث بالرد على خصومهم –من السلفيين– والجرح فيهم وسبهم!!

فيسبون بعضهم بعضاً –كسلفيين–، فقال أحدهم في حق الشيخ ياسر برهامي: "صبي العالمة"! وقال آخر في حق الشيخ ربيع بن هادي المدخلي أنه جاهل أو متجاهل، وقال أحدهم في حق الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق وأبي إسحاق الحويني أنهما من المبتدعة! وهذا بينهم، بينما تزداد الشتائم حدة مع المخالف، فنجد أن أحدهم ألف كتاباً بعنوان: "إسكات الكلب العاوي يوسف القرضاوي"، وقال آخر في حق عمرو خالد أنه من فسقة الدعاة! ولا يرفع بالدين رأساً، ويقول آخر في حق الإمام الشافعي: "هذا الشافعي أفتى ..!!" كأنه نكرة! بل ويصل الأمر بسب بعض المخالفين بأنهم "إخوان مسلمون" وما أكبره من جرم وما أفظعه من ضلال، فهم من المحاربين للسنة وليسوا من أهل السنة! ودعا أحد السلفيين المصريين على الشيخ الشعراوي –رحمه الله– في مسجد غمرة: اللهم أهلك الشعراوي القبوري.

ولو شئنا أن نسود الصفحات الطوال في ذكر سباب السلفيين لغيرهم لفعلنا، ولكنا نكتفي بهذا القدر، ونتساءل: هل هذا هو المنهج الإسلامي في التعامل مع المخالف؟

إن الله تعالى نهانا أن نسب آلهة المشركين: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ ... ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٠٨]، وأمرنا بالدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة وأن نأخذ بالعفو وأن نعرض عن الجاهلين، فهذا هو هدي ربنا، أما سباب المخالف الضال فليس هدياً إسلامياً بحال وإنما هو تعصب ممن يدعي امتلاك الحقيقة المطلقة، فهل يغير السلفيون منهجهم هذا ويعفّوا لسانهم ويلتمسوا لإخوانهم بضعاً وسبعين عذرا ويحملوا آرائهم على أنه تأويل مقبول، أما سيظلون على موقف المتشددين من أهل الحديث والحاكم بأن من وما خالفهم فهو ضلال؟!

إن الدين يسر

يؤمن المسلمون جميعاً أن الدين يسر، استناداً إلى الحديث الذي رواه البخاري: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ[80]" فيؤمنون بأن الدين الإسلامي أتى بأحكام ميسرة ولم يأت بأحكام تُعسر على الناس حياتهم، وبغض النظر عن أن المقصود من أن الدين يسر ليس سهولة أحكامه، وإنما أنه هو تيسير على الناس وبدونه تكون حياتهم عسيرة، فأكثر الناس ينظرون إلى أن الدين تقييد لأفعال ولحرية البشر، فيبين الله لهم أنهم في الحقيقة تيسير، فالله يُشرع لعباده ليخفف عنهم وليس ليضيق عليهم أو ليعسر عليهم حياتهم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة النساء, ٢٨]، ﴿... يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ... ﴿١٨٥﴾﴾ [سورة البقرة, ١٨٥]

وبغض النظر عن هذا فإن السلفيين يؤمنون بأن الدين يسر كذلك، ولا يرون أن فتاواهم

[80] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء الأول، ص. 16.

أو أحكامهم الذي يقولون بها تعسر على الناس أو تضيق عليهم! ولا يرون أنهم متشددون، وإنما يرون أنهم ملتزمون بأحكام الدين، وأن التيسير لا يعني ترك أحكام الدين أو التساهل فيها. والواقع يقول أن التيار السلفي أصيب بالداء اليهودي، داء التشدد، وأصبحوا هم –وعامة المسلمين تبعاً لهم– يؤمنون بأن "المعسرين المضيقين" هم الأكثر إيماناً والتزاماً، أما المُيسّرون فهم متساهلون مفرطون! ولذا يُذم المتساهل ويهاجَم بينما يُبحث عن تخريج وعذر للمتشدد ولا يُضلل ولا يُبدّع!

والحق أن ليس كل السلفيين سواء، فالسلفيون المصريون أخف وطأة من السلفيين السعوديين الذين يتفننون في التحريم والتبديع والتكفير والحكم بجواز قتل المُكفّر! ولأن السلفيين –وغيرهم– يعتمدون على أن المخاطَب لا يستطيع أن يكون صورة عامة عن الموضوع الذي يخاطَب بشأنه، ومن ثم يقولون له أن الدين يسر على الرغم من أنهم عسّروا على الناس في كثير من أمورهم، ونقدم للقارئ بعضاً من الفتاوى السلفية –التي خولف فيها– التي تُلزم المسلم، من أي ثقافة أو حضارة كان، وعلى أي أعرافٍ يسير، أن يلتزم بها، لنبصر هل ييسر التيار السلفي:

فإذا بدأنا بجانب الهيئة وجدنا أنه يجب على المسلم في أي عصر ومن أي بلدٍ أن يكون ذا لحية كبيرة وأن لا يحلق شاربه وإنما يأخذ منه ما زاد عن الشفة، فإنه حلقه فإن بعض الأقوال تقول أنه يُعذّر (يعاقَب)، والحليق يجب هجره وعدم الصلاة وراءه! ولا مانع من تسميته فاسقاً! ولا يجوز صبغ الشعر بالسواد وله أن يصبغ بغير ذلك! كما أن عليه أن يكون قصير الثياب، ويا حبذا لو كانت الجلباب! وحتى لو ارتدى الملابس أسفل الكعبين بغير كِبر فهو وهي في النار! ولكن قِصر الملابس لا يعني أن يكشف الرجل فخذه في ممارسة الرياضة، فالفخذ من عورة الرجل!

فإذا انتقلنا إلى الصلاة وجدنا أنهم يفتون بفسخ عقد زواج المرأة ممن لا يُصلي ولا يُعاش مع الأهل تاركي الصلاة، فتارك الصلاة نفسه كافرٌ لا يُغسل ولا يُصلَى عليه! ويجب منع العمال من العمل وقت الصلاة وإلزامهم بأدائها في أول وقتها! ولا يصح

صيام ولا حج من لا يصلي، وصلاة الجماعة في المسجد فرض عين على كل مكلف، ولا تجوز الصلاة في المساجد التي بها قبور، والمصافحة بعد الصلاة بدعة مذمومة! كما أنه لا تجوز الصلاة بدون أذان، وكذلك فإن غسل الجمعة واجبٌ على المسلم!

فإذا انتقلنا إلى مجال النجاسة وجدنا بعضهم أفتى بأنه لا يجوز استعمال الكحول في العطور لأنه نجس ومسكر! ولا يجوز اقتناء كلب إلا للصيد أو للحرث أو للماشية وما شابه، أما تربيته هكذا فلا يجوز! ومن ثم فيجب على كثيرٍ من الأوروبيين ترك كلابهم وإطلاقها في الشوارع!

فإذا انتقلنا إلى المرأة وجدنا أنهم يقولون أنه يجب على المرأة أن تغطي كل جسدها عند خروجها، ولا يجوز لها لبس البنطال حتى لو كان واسعاً فضفاضا، ولا تخرج من بيتها إلا للضرورة، ومن الأفضل أن تظل في البيت، ولا حاجة لتعليمها، (كما عارض علماء السعودية فكرة إنشاء مدارس للبنات حتى لا تؤدي إلى التبرج! ثم وافقوا بشروط! والمصلحون منهم! كانوا يرون أنه من الممكن أن تُعلم الفتاة التوحيد والطهارة والصلاة وأحكام الحيض والنفاس، وأمور دينها الواجب عليها، وتربية أولادها وتدبير منزلها) وإذا مشت فتمشي في جانب الطريق ولا تكلم الرجال ولا يصافحونها، ولا تنافسهم في مجال عملهم ولا يحدث أي اختلاط بين الرجال والنساء! ناهيك عن فتاوى السعوديين بتحريم قيادة المرأة للسيارة! والميل إلى عدم إصدار بطاقة شخصية للمرأة! كما أن المرأة لا تكون رئيسة على الرجل في عمله! كما أنه لا يجوز لها المشاركة في المجالس النيابية! كما أنه لا يجوز للمرأة أن تسافر بدون وجود محرم أكثر من مسيرة ثلاثة أيام (من المنصورة إلى القاهرة مثلاً!!) وختان الإناث سنة أو واجب –على الرغم من أن النبي لم يفعله!–، والخاطب يرى مخطوبته مرات معدودة وليس له أن يكلمها ولا أن يجلس معها في مكان مفتوحٍ مكشوف في البيت بدون محرم، كما أن "الدبلة" بدعة وقد تكون حراماً! كما أن الزغاريد لا تجوز لأن صوت المرأة عورة! و"زفة" العروس لا تجوز لأنها بدعة! كما أنه لا يجوز نسبة المرأة إلى اسم زوجها –كما يفعل الغربيون– لما فيه من نسبة الإنسان إلى غير أبيه وهو حرام!

فإذا انتقلنا إلى الجانب الترفيهي نجد أن النرد (الطاولة) والشطرنج حرام، وهناك من حرم "الدومينو والكوتشينة" و"السلم والثعبان"! ناهيك عن أن الموسيقى حرام والغناء حرام والتصوير حرام والنحت حرام، والزخرفة مكروهة وهي في المساجد بدعة حرام! ولا يجوز الاشتراك في المسابقات في المجلات وما شابه إلا إذا كانت دينية! فإذا انتقلنا إلى القبور وجدنا أن الأمر لم يقتصر على تحريم التبرك بها –ومعهم الحق– وإنما تعداه إلى تحريم رفع القبور نفسها! وتحريم بناء القباب عليها لأنه من ذرائع الشرك! كما لا يجوز وضع الزهور على القبور لأنه بدعة.

فإذا انتقلنا إلى مجال العمل والتجارة وجدناهم يقولون بأنه لا يجوز العمل في البنوك الربوية، –وهذا قد يُقبل– إلا أنهم قالوا كذلك بأنه لا يجوز العمل في الجرائد لغلبة الشر ونشر الفجور! كما أنه لا يجوز العمل كمحاسب قانوني لما فيه من التعاون على الإثم والعدوان!! والبيع بالتقسيط حرام لأنه من التحايل على الله لأكل الربا الحرام! ولا يجوز وضع حسابات للتبرعات في البنوك الربوية.

ولأن العقل والفكر قد يؤدي إلى الزيغ والضلال، فإن النظر في كتب الكلام حرام، ولا يجوز مناظرة أهل الكلام ولا البدع حتى لا تُلقى الشبهات في القلوب فلا تُنزع! ويُكره التصفيق كراهة شديدة لأنه من مظاهر الجاهلية، وكذلك القيام للمعلم! فإذا انتقلنا إلى جانب العلاقة بغير المسلمين وجدنا أنه لا يجوز حبهم! بل ويجب بغضهم وبغض كفرهم، ولا نسلم عليهم ولا نهنئهم بأعيادهم، ولا نسافر إلى بلادهم إلا للضرورة، ولا نقيم بين ظهرانيهم لا للعمل ولا للتجارة ولا للدراسة، ولا نُعجب بهم ولا بأعمالهم! ومن ثم لا يجوز بداهة التجنس بجنسية غير إسلامية.

كما أنه لا عذر في الجهل بالعقيدة! فمن ارتكب شيئاً من المكفرات عن جهل يُكفَّر ولا يُعذر بجهله! ومنكر رؤية الله في اليوم الآخر والقائل بخلق القرآن كافر! وبغض النظر عن حرمة التصوير فإنه لا يجوز مشاهدة التلفاز لضرره على العقيدة!!!

ونكتفي بهذا القدر من المحرمات والواجبات عند السلفيين، ونتساءل: هل بعد هذا

كله يكون الدين يسر، ولا يكون هناك تضييق على الناس في حياتهم؟!

ولن نقوم بالرد على كل هذه النقاط بداهة، وإنما سنعرض لبعضها ولغيرها من فتاواهم في الباب القادم لنبين من خلال تناولنا الحرفي الظاهري للنصوص كيف أنهم لا يلتزمون بمنطوق النصوص وإنما يزيدون عليها ما ارتبط في أذهانهم بها، وأن فتاواهم العجيبة هذه ليست بسبب القراءة الحرفية أو الظاهرية للنصوص وإنما بسبب القراءة الموجهة.

الباب الثالث

إبطال دعوى القراءة الظاهرية للنصوص

الفصل الأول: المرأة

استغل الرجال المرأة قبل الإسلام واستعبدوها، فلما جاء الإسلام حرر المرأة وكرمها وأعطاها حقوقها ومنزلتها التي تستحق، فأعطاها الحق في طلب العلم وسؤال العلماء وفي الفُتيا، والصلاة مع الرجال في المسجد –بدون وجود فاصل– بحيث تشكل النساء الصفوف الأخيرة، وأن تؤم النساء ويرى البعض أنه يجوز أن تؤم الرجال الذين تصلهم بهم صلة رحم وتكون عجوز وقارئة وهم أميون، وأن تكون لها ذمتها المالية المستقلة فتتجر وتطالب بحقوقها في ساحات القضاء، وليس لأحدٍ أن يجبرها على الزواج، وتبايع الإمام وتشارك في الحروب ما استطاعت، سواء بالتمريض أو بحمل السلاح.

إلا أن الرجال المسلمين! سرعان ما سحبوا جزءً كبيراً من هذه الامتيازات والحقوق ومنوعها المرأةَ لحجج عديدة، وهكذا حُرمت المرأة كثيراً من حقوقها في عصور التخلف! فأُجبرت على تغطية وجهها، لأن منطق العقل!! يقول إن فتنة المرأة في وجهها، وفُصلت النساء عن الرجال في الصلاة –على الرغم من المفترض أنها بدعة–، لأن الزمان قد تغير ومن ثم يجب أن تتغير معه الفتوى! بل ومنع بعضهم المرأة من الصلاة في المسجد أصلا، استناداً إلى الحديث الذي رواه الإمام البخاري –وغيره–: "عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَوْ أَدْرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَحْدَثَ النِّسَاءُ لَمَنَعَهُنَّ كَمَا مُنِعَتْ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قُلْتُ لِعَمْرَةَ: أَوَمُنِعْنَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ.[81]"، وهكذا لم يختلف حال السلفيين عن العلمانيين، فأولئك يهجرون النصوص محللين، وأولئك يعرضون عنها مُحرمين!!

ومع الاحتكاك بالحضارة الغربية وقيام بعض المثقفين العرب بالدعوة إلى اعتماد النموذج الغربي للنهضة بالمجتمع حدثت بعض التغييرات في بنية المجتمعات العربية

[81] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء الأول، ص.173.

عامة –والمجتمع المصري خاصة–، وحصلت المرأة مجدداً على حقوقها التي أعطاها الإسلام إياها، بل وأُبيح لها –مثل الرجال– بعض المحرمات.

إلا أن السلفيين ظلوا على نفس موقفهم من قضية المرأة، فلم يغيروا من نظرتهم إليها شيئاً، لأنهم رأوا أن الوضع التي أنزلوها إياه هو ما جاء به الدين، ولهذا لم يختلف الوضع بالنسبة للمرأة السلفية في الوطن العربي عامة، والسعودية خاصة، التي لا يزال علماءها يفتون بأن المرأة تُقاد ولا تقود، لذلك يحرمون عليها قيادة السيارة!! بدون أي دليلٍ من كتاب أو سنة، ويبيحون لها في عين الوقت أن تركب السيارة مع سائق أجنبي عليها، على الرغم من الفساد العريض الذي نتج عن ذلك!

ولا تزال المرأة السعودية تعاني من الدعاوى السلفية، التي ترى أن "تعليم المرأة خطر عظيم على المجتمع، ومصيبة لا تجبر، وعاقبته سيئة؛ إن تعليم المرأة سبب لتمردها، وهن ناقصات عقل ودين"، وفيه "مجاراة الأمم المنحلة في تعليم بناتكم الحساب والهندسة والجغرافيا، ما للنساء وهذه العلوم!" وتلك النصائح العبقرية من عينة: "وإني أنصح لكل مسلم: أن لا يدخل ابنته أو أخته في هذه المدارس التي ظاهرها الرحمة، وباطنها البلاء والفتنة، ونهايتها السفور والفجور وسقوط الأخلاق والفضيلة".

وعلى الرغم من أن العلاقة بين الزوج وزوجه قائمة على المودة والرحمة، واللذان يُنتجان: الحب–، إلا أننا نجد من كثيرٍ من السلفيين –ولا نريد التعميم– عدم اهتمام بهذه المشاعر الإنسانية، ويقيمون بيوتهم على الأمر والنهي، بدون شورى وبدون اهتمام برأي المرأة، فللرجل على المرأة الطاعة المطلقة! ناهيك عن عدم مراعاة مشاعر المرأة في الزواج عليها، فهذا سنة –وليس: مباح– عن رسول الله وليس لها أن تعترض أو ترفض، ولذا متى واتت السلفي الفرصة يُعدد!

ولما قامت الثورة المصرية المؤيَّدة واقتحم السلفيون عالم السياسة، كان عليهم أن يخضعوا لقواعد اللعبة التي تحتم عليهم ترشيح المرأة على قوائمهم، وبعد أن كانت الدعوة السلفية قد أصدرت فتوى عام 2010 بعد جواز ترشح المرأة في المجالس

النيابية، أصدرت فتوى بعد الثورة بجواز المشاركة، وعللت الفتوى بأن هذا من باب الضرورة، لدفع مفسدة ترك البرلمان للعلمانيين والليبراليين، وهذا يعني أن الجواز من باب إباحة المحظور عند الضرورة، فإذا زالت الضرورة –وسيسعون غالباً لإزالتها– يعود الحكم الأصلي بعدم جواز ترشح المرأة.

ويستند السلفيون في قولهم بعدم جواز ترشح المرأة للمجالس النيابية ولا لتولي الرئاسة إلى الحديث الذي رواه البخاري: "عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَقَدْ نَفَعَنِي اللَّهُ بِكَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَّامَ الْجَمَلِ بَعْدَ مَا كِدْتُ أَنْ أَلْحَقَ بِأَصْحَابِ الْجَمَلِ فَأُقَاتِلَ مَعَهُمْ. قَالَ: لَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أَهْلَ فَارِسَ قَدْ مَلَّكُوا عَلَيْهِمْ بِنْتَ كِسْرَى قَالَ: لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً[82]"، ويعدون هذا من باب ولاية المرأة على الرجال، ولا ولاية للمرأة على الرجال –من وجهة نظرهم– ويختلف الفقه السني القديم في أنه يمنع فقط الولاية العظمى (رئاسة الدولة)[83]، استناداً إلى نفس الحديث، على الرغم من أنه على فرض صحته لا يؤصل لحكم شرعي، وإنما تعليق عفوي على وضع سياسي قائم، فإذا كانت المملكة العظمى في هذه المرحلة الخطيرة تولي امرأة لا خبرة عسكرية ولا قيادية لها فلن تفلح. (ولست أدري لماذا لم يقل الله ورسوله صراحة طيلة ما يزيد عن العشرين سنة: لا يجوز للمرأة أن تتولى الحكم!!) وفي العصر الحديث بدء بعض فقهاء أهل السنة في مخالفة هذا الحكم، فأفتى الشيخ القرضاوي والشيخ محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر السابق والشيخ جمال قطب مدير الإعلام الديني بالأزهر، والدكتورة سعاد صالح العميدة السابقة لكلية البنات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر بجواز تولي المرأة

---

[82] المرجع السابق، الجزء السادس، ص.8.

[83] وهناك من منع المرأة كذلك تولي القضاء، وأجاز آخرون توليها القضاء مطلقاً مثل محمد بن الحسن –تلميذ أبي حنيفة وابن جرير الطبري– وأجاز آخرون مثل أبي حنيفة والأحناف توليها القضاء، فيما عدا قضاء "القصاص والحدود قياساً للقضاء على "الشهادة"، فأجازوا قضاءها فيما أجازوا شهادتها فيه، أي فيما عدا "القصاص والحدود"، وبشكلٍ عام فليس ثمة أدلة على منع تولي المرأة أي منصب، وإنما هي نصوص توضع في غير موضعها، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ ... ﴿٣٤﴾﴾ [سورة النساء ,٣٤]، فبما أن الرجل قائم على المرأة زوجه في بيته بماله، فلا يجوز أن تصبح المرأة الأجنبية رئيسه في العمل!!

الولاية العامة، لأنهم رأوا أن الحديث ليس دليلاً عاماً وإنما تعليق قيل على موقفٍ معين!

ولست أدري كيف قال فقهاء السنة بهذه الفتوى مخالفين إجماع الصحابة على جواز تولي المرأة الولاية، فلم يعترض أحد من الصحابة على تولي السيدة عائشة، حتى أبو بكرة راوي الحديث نفسه لم ير أن الحديث يحرم تولي المرأة، وإنما رأى أن قيادة المرأة تعني الخسران! ومن ثم فإن الصحابة أجمعوا على الجواز فكيف تمنعه السلفية؟!!

ولا يعني دفاعنا عن جواز تولي المرأة الولاية العامة أننا ندعو لذلك، فنحن نرى فعلاً أنه من الأفضل أن يكون الحاكم رجلاً، إلا أننا نرفض التقول على دين الله وتقويله ما لم يقل به. وبعد أن عرضنا لموقف السلفيين من المرأة نعرض لبعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالمرأة، لننظر ما هو رأي السلفيين فيها، ولن نعرض في هذه الأحكام لحكم لباس المرأة، الذي قُتل بحثاً، وإنما سنعرض لمسائل أخرى، ربما يظن القارئ العامي/ غير المتخصص أن فيها قولاً واحداً هو ما يقول به السلفيون.

زينة المرأة

أول ما نبدأ به حديثنا هو مسألة زينة المرأة، فهل يجوز للمرأة أن تظهر متزينة أمام الأجانب من الرجال؟! بداهةً لا محل لهذا السؤال من الإعراب عند السلفيين، لأنهم يرون أن الواجب على المرأة أن تغطي جميع جسدها، فكيف تبرز زينتها للرجال؟! وإذا حدث وأخذت المرأة بالرأي القائل بجواز كشف الوجه والكفين، فعليها أن تخرج تفلة بدون أي زينة وبدون أي زي ملفتٍ للانتباه. فنقول: إذا رأينا أن كشف الوجه والكفين هو الحكم الراجح (وهو الذي يتيح للمرأة مجالاً للزيادة، مثل كل الأوامر الشرعية التي تتيح للمسلم مجالات للزيادة عن المفروض)، فما هو الدليل على أنه لا يجوز

للمرأة أن تتزين؟! هل ورد دليلٌ في القرآن أو عن الرسول يُلزم المرأة ألا تضع "مواد زينة"؟ فنقول: لم يأت نهي لا في القرآن ولا في السنة عن ذلك، وإنما استنتج الفقهاء المنع من آية القواعد: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٦٠﴾ [سورة النّور, ٦٠] فقالوا: إذا كان الله لم يبح للعجوز أن تتبرج بزينة، فهل يجوز للشابة أن تتبرج؟

ولن نقول أن التبرج هو التكسر والتغنج، وإنما سنقول: لو أراد الله أن يحرم ذلك لذكره مفصلاً: ﴿... وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝١١٩﴾ [سورة الأنعام, ١١٩]

والمشكلة هي في الظن بأن التبرج هو مجرد وضع الزينة، فإذا وضعت المرأة أي زينة كانت متبرجة! وحتى على هذا القول فلا دليل في الآية، فالله سبحانه أباح للقواعد وضع الثياب، ومن ثم فلا يجوز للشابات وضع الثياب أمام أجانب، وأباح وضع الثياب بشرط عدم التبرج، ومن ثم فإنه لم يمنع التبرج بزينة لكل عجوز، وإنما منعه في حالة التكشف، ومن ثم فيبقى حكمه في حالة التستر مباحاً يستوي في ذلك العجوز والشابة.

ويمكن القول أن المقصود من التبرج هو الزينة المبالغ فيها، كما ورد في تفسير ابن أبي حاتم: "عن أم الضياء، أنها قالت: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أم المؤمنين ما تقولين في الخضاب، والنفاض، والصباغ، والقرطين، والخلخال، وخاتم الذهب وثياب الرقاق؟ فقالت: «يا معشر النساء قصتكن كلها واحدة أحل الله لكن الزينة غير متبرجات أي: لا يحل لكن أن يروا منكن محرما»[84]

ومن ثم فليس أي وضع للزينة من باب التبرج، وإنما الزينة المبالغ فيها، ومن ثم فإن

[84] أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، الجزء الثامن، ص.2642.

الزينة الخفيفة التي لا تخالف العرف لا حرج فيها، ويدل على هذا ورود آثار كثيرة عن السلف! في جواز ذلك: فقد روى ابن أبي شيبة في مصنفه عن عطاء قال: «الزينة الظاهرة: الخضاب والكحل»[85]، وروى ابن جرير في تفسيره: "وقال مجاهد قوله: ﴿إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الكحل والخضاب والخاتم. حدثنا ابن حميد، قال: ثنا جرير، عن عاصم، عن عامر:﴿إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال الكحل، والخضاب، والثياب. حدثني يونس، قال أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ من الزينة: الكحل، والخضاب، والخاتم، هكذا كانوا يقولون وهذا يراه الناس[86]" اهـ

لاحظ قوله: "وهذا يراه الناس" فهذا يدل على جريان العمل من الناس على ذلك. كما روى البخاري: "حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ أَنَّ أَبَاهُ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَرْقَمِ الزُّهْرِيِّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى سُبَيْعَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيَّةِ فَيَسْأَلَهَا عَنْ حَدِيثِهَا وَعَنْ مَا قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ اسْتَفْتَتْهُ فَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَرْقَمِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ يُخْبِرُهُ أَنَّ سُبَيْعَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ بْنِ خَوْلَةَ وَهُوَ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا فَتُوُفِّيَ عَنْهَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهِيَ حَامِلٌ فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ فَقَالَ لَهَا: مَا لِي أَرَاكِ تَجَمَّلْتِ لِلْخُطَّابِ تُرَجِّينَ النِّكَاحَ فَإِنَّكِ وَاللَّهِ مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْكِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ. قَالَتْ سُبَيْعَةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ وَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي وَأَمَرَنِي بِالتَّزَوُّجِ إِنْ بَدَا لِي.[87]"

فكما رأينا فها هي الآثار تتضافر في حل ما لم يحرمه الله، وإذا كان الصحابة والتابعون

[85] أبو بكر بن أبي شيبة، مصنف بن أبي شيبة، الجزء الرابع، ص. 284.

[86] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء التاسع عشر، ص.158.

[87] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء الخامس، ص.80.

قالوا بجواز أصنافٍ معينةٍ من الزينة، فلأن هذا كان هو المألوف في زمانهم، ومن ثم فيجوز للمرأة وضع الزينة بشرط ألا تكون زائدة مبالغ فيها ... والله أعلم.

تعطر المرأة

على الرغم من أن تعطر المرأة يندرج تحت زينتها، إلا أنه لورود روايات بشأنه، والتي تُتخذ كدليل، بخلاف التزين والذي ليس فيه أي دليل منع، أفردناه بتناولٍ مستقل، فنقول: ليس في المسألة أي دليلٍ في القرآن فتبقى على الحكم الأصلي وهو الإباحة، وهو ما يجب أن تأكده السنة، وهو ما نجده فعلاً، فالإمام مسلم يروي: "عَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَتْ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلَا تَمَسَّ طِيبًا[88]"، ويروي النسائي في سننه: "عَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ صَلَاةَ الْعِشَاءِ فَلَا تَمَسَّ طِيبًا[89]"

فهنا نهي مخصوص وهو النهي عن التطيب إذا كانت المرأة ذاهبة إلى الصلاة، وإلى العشاء خاصة حيث الظلام وخلو الطريق. والنهي عن التطيب في أوقات مخصوصة يعني –بدليل الخطاب– أنه مباحٌ في باقي الأوقات، ومن ثم فيجوز للمرأة أن تتعطر بلا حرج.

ويرى السلفيون –وغيرهم– أنه لا يجوز أن تخرج المرأة متعطرة، ويستدلون على ذلك بالحديث الذي رواه أحمد –وغيره–، عن أبي موسى الأشعري: "عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا اسْتَعْطَرَتْ الْمَرْأَةُ فَمَرَّتْ عَلَى الْقَوْمِ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ كَذَا وَكَذَا.[90]" ويرويه بشكل آخر: عَن الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

[88] مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الأول، ص.328.

[89] أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي الكبرى، الجزء الخامس، ص.431.

[90] أحمد بن حنبل، المسند، الجزء الرابع، ص.400.

أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِقَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَة.[91]"

وعلى الرغم من أن مدار الحديث على: ثابت بن عمارة الحنفي، وهو مختلفٌ فيه، وعلى الرغم من روايته موقوفاً على أبي موسى نفسه –وهذا يعني أنه من قول الصحابي وليس النبي– إلا أننا سنقول أن الحديث صحيح وهو من قول النبي، ونتساءل: هل عجز النبي عن أن يقول: لا يجوز للمرأة أن تتعطر؟!

إن الحديث يتكلم عن امرأة غير سوية الطبيعة تطلب أن يوضع لها العطر –لاحظ أن الحديث قال: استعطرت، وليس: تعطرت– (أي أنها تلك التي تذهب إلى المزينة (الكوافير)، فهي امرأة تضع العطر بشكل مخصوص فائح لتثير الرجال وليست تلك التي تمس طيباً، وبداهة فإن هذه المرأة آثمة! فالعبرة في الحديث بالنية –ولهذا كان رأي ابن رشد "الجد وليس الحفيد" عدم حرمة خروج المرأة متعطرة، إلا إذا كانت نيّتها التعرّض للرجال–، فكيف نستخلص من الحديث حكماً عاماً بحرمة التعطر بأي شكلٍ وحال؟! وثمة أدلة أخرى في الإثبات والنفي يتعلق بها المثبتون والنافون، إلا أننا نكتفي بعدم ورود نهي في القرآن وبالأحاديث الصحيحة التي بيّنت أن الأصل هو الإباحة والاستثناء في مواقف بعينها. إن العقلية التحريمية التي تبحث عن أي مقولة لتحرم بها ما أحل الله تظهر ها هنا جلية وستجادل بأي حال، فهي تخشى على الرجال من فتنة عطر!! قد يشمونه فيثير شهواتهم! ولست أدري أي رجالٍ هؤلاء، إن هذا المسلك لا يخرج إلا رجالاً لا يستطيعون أن يقاوموا أنفسهم إذا رأوا ظفر امرأة!!

شعر وجه المرأة!

لأن ديننا شامل لكل جوانب الحياة نظم لنا كل شيء، حتى شعر وجه المرأة!! فأمرها وأوصاها ألا تقربه، فهذا من الثوابت ومما لا يجادل فيه!! لذلك لم يتحرج الشيخ

[91] المرجع السابق، ص.413.

الألباني من أن يفتي بعدم جواز حلق المرأة لحيتها –لو نبتت لها لحية–! وفتواه وإن كان الفقهاء يحكمون عليها بالشذوذ والتعنت إلا أنهم لا يجد حرجاً من يحرموا على المرأة ترقيق حواجبها، بل وأن يجعلوا ذلك من الكبائر! فما أخطر أن تأخذ المرأة بعض شعرات من حواجبها وما أكبره من تغيير لخلق الله!!

وليس للفقهاء في هذا الأمر مستندٌ من كتاب الله، ولا سنة رسول الله، وإنما هو قولٌ شاذ من "شواذ ابن مسعود"، قبله الفقهاء ولم يعتبروه من الشواذ، لأنه سيقع على المرأة! وجعلوه كافياً للحكم بالحرمة بل ولكونه من الكبائر! وعلى الرغم من ضعف الروايات الواردة في الباب لتفردها في طبقاتٍ عديدة ولعللٍ أخرى، فإننا سنتعامل معها باعتبارها صحيحة، ونبدأ بما يرويه أحمد في مسنده عن مسروق: "أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَتْ: أُنْبِئْتُ أَنَّكَ تَنْهَى عَنْ الْوَاصِلَةِ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَتْ: أَشَيْءٌ تَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَمْ سَمِعْتَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ: أَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدْ تَصَفَّحْتُ مَا بَيْنَ دَفَّتَيْ الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ الَّذِي تَقُولُ. قَالَ: فَهَلْ وَجَدْتِ فِيهِ: ﴿... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ... ﴿٧﴾﴾] سورة الحشر ,٧؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ النَّامِصَةِ وَالْوَاشِرَةِ وَالْوَاصِلَةِ وَالْوَاشِمَةِ إِلَّا مِنْ دَاءٍ. قَالَتْ الْمَرْأَةُ: فَلَعَلَّهُ فِي بَعْضِ نِسَائِكَ. قَالَ لَهَا: ادْخُلِي فَدَخَلَتْ ثُمَّ خَرَجَتْ فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ بَأْسًا. قَالَ: مَا حَفِظْتُ إِذًا وَصِيَّةَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ}[92]" اهـ

ونثني بما رواه عبد الرزاق في مصنفه: "عن علقمة قال: قال عبد الله: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله، قال: فبلغ ذلك امرأة من بني أسيد يقال لها أم يعقوب فقالت: يا أبا عبد الرحمن! بلغني أنك لعنت كيت وكيت، قال: وما لي لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه

[92] المرجع السابق، الجزء الأول، ص.415.

وسلم ومن هو في كتاب الله، قالت: إني لاقرأ ما بين اللوحين وما أجده، قال: إن كنت قارئة، لقد وجدتيه، أما قرأت (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قالت: بلى، قال: فإنه نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.[93]"

فنلاحظ من هذه الروايات أن هذا القول لم يكن معروفاً قبل ذلك وكانت النساء تفعل هذا بغير نكيرٍ من الصحابة، فلما اشتهر هذا القول عن ابن مسعود ذهبت المرأة تستفسر منه، ما هو مستنده في ذلك، ولأن ابن مسعود كان يشعر بضعف موقفه أراد أن يكسبه قوة بنسبته إلى كتاب الله! فالمرأة منذ مبتدأ الحديث سألته هل هو من القرآن أم من قول الرسول، فأصر على إرجاعه إلى القرآن وهو ليس فيه!!

ونلاحظ من رواية عبد الرزاق أن اللعن لمن تُغير خلق الله، أي أنه لمن تظهر المرأة على غير حقيقتها، فيكون في الأمر ضرب من الخداع.

ونلاحظ من رواية أحمد أن النبي الكريم ينهى عن أصنافٍ معينة من الزينة، إلا إذا كان هناك داء فيجوز هذا، ومن ثم يجب حمل باقي الروايات على هذا الشرط وذاك الاستثناء، فإذا كانت هذه الزينة تغيير لخلق الله فهي ممنوعة لكونها تغيير لخلق الله، وإن لم تكن فليس فيها شيء، وكذلك أن الداء معتبر في الاستثناء، فُتحمل الروايات المطلقة على الاستثناء، مثل ما روه البخاري: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ[94]"

وتُرد الروايات التي تمنعه مع وجود الداء -في نفس الصفحة-، مثل ما رواه البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ جَارِيَةً مِنْ الْأَنْصَارِ تَزَوَّجَتْ وَأَنَّهَا مَرِضَتْ فَتَمَعَّطَ شَعَرُهَا فَأَرَادُوا أَنْ يَصِلُوهَا فَسَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَعَنَ اللَّهُ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ."

لأن الله أباح للمضطر الحرام، وهذا أصل في الدين أن الحرام -بما فيه الشرك- يباح

[93] عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، الجزء الثالث، ص. 145.

[94] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء السابع، ص.165.

عند الضرورة، فهل يُستثنى الشعر؟!! إن الرسول نفسه قد استثنى حالة الداء، فتكون رواية الاستثناء هي المتفقة مع أصول الشرع وقواعد الدين، وتُرد الأخرى. ونقول: إن بعض النساء قد يصبهن خللٌ وراثي يؤدي إلى نمو الشعر في وجوههن، يؤدي إلى النفرة منهن، ويتحتم عليهن التخلص منه –حتى لا يكن من المتشبهات بالرجال!– ولا يمكن أن يلعن الله ورسوله نساءً يحاولن أن يحافظن على هيئتهن الأصلية كإناث، ولهذا ذهب المالكية إلى وجوب إزالة الشعر الزائد سواء في الوجه أو الظهر أو الساق لأنه مُثلة بالمرأة. وبعض النساء يحاولن التزين لأزواجهن بوصل الشعر –وليس فيه خداع ولا تلبيس– فيجوز هذا (كما أفتى ابن قدامة في المغني)، ويؤكد هذا الأمر البديهي ما رواه عبد الرزاق في مصنفه: "عن امرأة ابن أبي الصقر أنها كانت عند عائشة فسألتها امرأة فقالت: يا أم المؤمنين! إن في وجهي شعرات أفأنتفهن أتزين بذلك لزوجي؟ فقالت عائشة: أميطي عنك الأذى وتصنعي لزوجك كما تصنعين للزيارة وإذا أمرك فلتطيعيه، وإذا أقسم عليك فأبريه ولا تأذني في بيته لمن يكره.[95]" اهـ

ولأن اللعن ليس بالأمر اليسير مقابل هذا الفعل اليسير! حاول الفقهاء أن يجدوا تبريراً لهذا القول عن ابن مسعود، فنجد ابن حجر يقول في فتح الباري: "«قال بعض الحنابلة: "إن كان النمص أشهر شعاراً للفواجر وامتنع، وإلا فيكون تنزيها". وفي رواية: "يجوز بإذن الزوج، إلا إن وقع به تدليس فيُحرَّم". قالوا: ويجوز الحف والتحمير والنقش والتطريف إذا كان بإذن الزوج لأنه من الزينة[96]». اهـ

ويكتفي بعض المحرِّمين لهذه الأمور بتعليل ساذج هو أن هذا النتف تغيير لخلق الله وهو محرم!! ولست أدري كيف لا يكون "حلق الشعر وقص الأظافر" من أكبر الكبائر تبعاً لهذا المنطق، ولماذا لا يُحرمون الختان ووضع الأقراط في الآذان؟! بينما قال بعض الفقهاء أن هذا النهي واللعن كان لأن هذا كان شعار الفاجرات العاهرات، وزاد ابن عاشور، فقال أن هذا اللعن يكون إذا كان هذا الفعل شعاراً لملة وثنية أو شعيرة

[95] عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، الجزء الثالث، ص. 146.

[96] أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الجزء العاشر، ص.378.

شركية (مثل: عبدة الشيطان)، ويقدم الدكتور محمد عمراني حنشي –علامة المغرب في الحديث والمؤصل لعلم مصطلح الحديث– في معرض تخريجه لأحاديث النمص –والتي حكم عليها بالضعف!– تبريراً منطقياً لهذا اللعن، فيقول: "والملفت هو أن النمص لم يرد لعنه في هذه الأخبار كفعل منفرد خاص في نازلة طارئة، بل ورد مقروناً بلعن ممارسات أخرى على الجسد مثل: "الوشم" الذي استُعمل من طرف البشر منذ آلاف السنين إما بغرض:

أ) الزينة والتجميل،

ب) أو تعويذةً ضد الموت في بعض الديانات الوثنية القديمة،

ت) أو للحماية من السحر!! والأرواح الشريرة!!

ث) أو طلسم يمنع التحاسد بين القبائل، كما كانت تظن بعض القبائل العربية.

ويظهر لمن لا يستقرئ الممارسات الحضارية للشعوب، ويعتمد فقط أعراف عصرنا الحاضر كمقياس وحيد للمعايرة، وكأن "النمص" لا يشترك مع الوشم سوى في المطلب البريء ل: "الزينة والتجميل"، ويخلو تماماً من الطقوسيات الشركية الواردة في البنود الثلاثة المسطرة أعلاه، والتي قد تستدعي المحاربة الدينية (...) حيث كانت المصريات ترسمن خطاً أسوداً عريضاً حول العين والجفن حتى يصل خارج العين، ويرتبط لدى قدماء المصريين بالنقاء والصفاء الشعائريين. وهو ما يثبت أن مطلب التزيين والتجميل بالنمص لدى نسوة مصر المترفات القديمات لم يخل قط من رواسب اعتقادية مصحوبة طقوسية شركية حال الوشم تماماً.[97]" اهـ

وكما رأينا لم يتدخل الدين في الحريات الشخصية للمرأة، فلم يضيق عليها صنوفاً معينة من الزينة المعتدلة ولم يمنعها من إزالة الأذى الوراثي الذي قد يلحق بها، وإنما

[97] من ملف: "التخريج العلمي الصلب لخبر: لعن الرسول للمتنمصات"، الحلقة الأولى، ملف إليكتروني منزل من موقعه الشخصي: www.alhiwar.org

كان الحديث عن شعائر وثنية أو علامة تهتك، وعن تلك الزينة المبالغ فيها التي قد تغير خلق الله، مثل تلك المناظر البشعة التي نراها لبعض الغربيين الذين قد يغطون كل أو جُل أجسادهم بالوشم! أو لأولئك النفر من الأفارقة الذين قد يشوهون خلقتهم بأنفسهم مثل بتر أحد أجزاء الجسم أو مط الشفة ... الخ. والله أعلم.

مصافحة الرجل المرأة

تبعاً للمنظور السلفي للمرأة الذي يراها فتنة، ويحبذ بقاءها في المنزل ويُلزمها تغطية كل جسدها، فالمنطقي أنه لن يبيح لها أن تصافح رجلاً أو يصافحها رجل، لما في ذلك من الفتن العظيمة وإثارة للشهوات وقربٌ للزنا ... الخ!!!

والحق أنه ليس السلفيون فقط هم من لا يجيزون مصافحة المرأة الأجنبية، فهناك غيرهم، إلا أنه ليس لديهم دليلٌ من كتاب أو سنة على هذا التحريم، فلم يأت في الباب أي آية في القرآن، ولم يقل الرسول للمؤمنين طيلة ثلاث وعشرين عاماً: "لا تصافحوا النساء" أو: "حُرمت عليكم مصافحة النساء"، وبما أنه لا دليل صريحٌ في التحريم، فاعلم أن هذا الحكم هو من تحكم الفقهاء وليس حكم الله.

فإذا نظرنا في أدلتهم على التحريم وجدناها تدور حول روايتين، الأولى ما رواه الطبراني عن مَعْقِلُ بن يَسَارٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"لأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ رَجُلٍ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لا تَحِلُّ لَهُ[98]".

ولن نقول أن الرواية ضعيفة ويُحتمل كونها من موقوفة على معقل بن يسار نفسه، (الذي روي عنه: لأن يعمد أحدكم إلى مخيط فيغرز به في رأسي، أحب إلي من أن تغسل رأسي امرأة ليست مني ذات محرم.)، وسنتقبل تصحيح الألباني لها في السلسلة الصحيحة، ونقول: إن الرواية لم تتحدث عن المصافحة، وإنما على: المس،

[98] سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، الجزء العشرون، ص.212.

وهو في استعمال القرآن: الجماع: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ ... ٤٧﴾ [سورة آل عمران, ٤٧]، ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ ... ٢٣٦﴾ [سورة البقرة, ٢٣٦]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ... ٣﴾ [سورة المجادلة, ٣].

ومن ثم فينبغي حمل الرواية على الجماع، أو على: اللمس بشهوة (المباشرة الخارجية بدون إيلاج)، ومن ثم فلا دليل في الحديث. وهذا التوجيه تبعاً للفهم المعوج للرواية، فلقد فهم الفقهاء اللغويون الرواية على غير ما قالت! فالرواية قالت: "لأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ رَجُلٍ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لا تَحِلُّ لَهُ"، وهم فهموها بالشكل التالي: "لأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ رَجُلٍ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً يَحِلُّ لَهُ نكاحها" أو: "لا يحل له لمسها" فهل: المرأة التي لا تحل لي هي: التي يحل لي نكاحها أم: هي التي لا يحل لي لمسها؟! لماذا نُقول النص ما لم يقله، إن النساء اللاتي لا يحللن لنا هن: "الأم، الأخت، الابنة، ابنة الأخ، ابنة الأخت، الخالة، العمة، المرأة المتزوجة، زوجة الأب، أم الزوجة، زوجة الابن، بنت الزوجة"

ومن ثم فإن الحديث عن "زنا المحارم" وليس عن مصافحة الحلائل، ولهذا كان فيه هذا الوعيد الشديد.

ودليلهم الآخر هو ما رواه مالك: "عَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نِسْوَةٍ بَايَعْنَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ فَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نُبَايِعُك عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا نَسْرِقَ وَلَا نَزْنِيَ وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا وَلَا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا وَلَا نَعْصِيَكَ فِي مَعْرُوفٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ. قَالَتْ: فَقُلْنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنَّا بِأَنْفُسِنَا هَلُمَّ نُبَايِعْك يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ إِنَّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ

امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ مِثْلِ قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ.[99]"

ومثله ما رواه البخاري: "عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَايِعُ النِّسَاءَ بِالْكَلَامِ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾. قَالَتْ: وَمَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَ امْرَأَةٍ إِلَّا امْرَأَةً يَمْلِكُهَا.[100]"

وهذه الأحاديث دليلٌ لنا، فلو لم تكن المصافحة غير منكرة في عهد الرسول لما مدت النساء أيديهن، وقول الرسول أنه لا يصافح النساء دليلٌ على أن هذا من خصائصه وأنه من باب التنزه، ولو كانت حراماً لوجب أن يبين لهن في مثل هذا الموقف! ولن نعرض للروايات التي تُثبت جواز ذلك، فيكفي انتفاء المانع ليبقى الحكم على حالته الأصلية وهي الإباحة.

الاختلاط

ينظر السلفيون إلى اختلاط الرجال بالنساء الأجنبيات عنهم بأنه من البلايا الكبيرة التي تشيع روح الفساد والانحلال في المجتمع، وإذا حدث وخرجت المرأة فيجب أن يكون هناك فصلٌ تامٌ بينها وبين الرجال في التعليم والعمل والمواصلات، ولهذا وجدنا في البرنامج الانتخابي لإحدى المرشحات السلفيات أنها ستطبق الشريعة بقطع يد السارق والفصل بين الرجال والنساء وتعميم اللون الأسود لملابس النساء والأبيض للرجال.

والاختلاط عند السلفيين حرامٌ حرامٌ حرام، لا جدال في ذلك، حتى أن الشيخ عبد الرحمن البراك اعتبر هذا من المعلوم من الدين بالضرورة!! وعد منكره مرتداً مباح الدم، وأيده في ذلك بعضٌ من مشائخ السعودية!!

---

[99] مالك بن أنس، الموطأ، الجزء الثالث، ص.439.

[100] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء التاسع، ص.80.

والعجب كل العجب أنه ليس لهذا المعلوم من الدين بالضرورة دليلٌ واحدٌ صريح من كتاب أو سنة، فلم ينه الله ولا رسوله عن ذلك، وإنما هي عقلية الوصي التي رأت فساداً فجزمت بأنه لا بد أن يكون حراماً فحرمته، واتخذت لنفسها على ذلك من الأدلة الكثير، حتى أننا وجدنا أحدهم قدّم أكثر من أربعين دليلاً على حرمة الاختلاط!! وهذا دليلٌ على ضعف موقفه، فيكفيني لأدلل على حرمة الزنا أن أتلو قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ٣٢﴾ [سورة الإسراء, ٣٢]، ولن يجادل أي مستمع في أن الآية نص على الحرمة، أما لأنه لا دليل لهم يكاثرون بالأدلة ليسودوا الصورة أمام المستمع فينزل على حكمهم.

ولأن الأدلة التي أوردها المذكور كثيرة، فسنعرض لبعضها لننظر كيف يستخدمون الأدلة للإفتاء بالتحريم: أول أدلة المذكور هو دليلٌ ضده، فلقد استدل بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [سورة القصص, ٢٣]

فالآية دليلٌ على أنه يجوز للرجل عرض المساعدة على النساء! وأنا نفسي حتى الآن لا أزال أستحي أن أفاتح أي امرأة بالحديث حتى ولو كان لعرض المساعدة! على الرغم من أن الآية بيّنت أنه لا حرج في ذلك! وبيّنت باقي الآيات أن الفتاة أتت على استحياء وسارت معه حتى أوصلته لبيت أبيها، ومن ثم فلا إثم في أن يمشي الرجل مع المرأة الأجنبية لغير منكر.

ولن نعرض لأدلته بشأن أمهات المؤمنين لأن هذا حكم خاص، وإنما نتجاوزها إلى دليل آخر وهو قوله: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ ... ٢٣﴾ [سورة يوسف, ٢٣]، فجعل الداعي إلى ارتكاب الزنا هو الاختلاط! ولو كان منطقياً لكان الأولى أن يستخرج من الآية حكما بحرمة إقامة الابن مع زوج الأب، ومن ثم فيجب أن ينشأ الأب بيتاً منفردا لزوجه الجديدة أو يطرد أبناءه

الذكور!!!

كما يستدل بقوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ... وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة النّور, ٣٠-٣١]، وبقوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [سورة غافر, ١٩]

... لا تعليق!!!

ثم انتقل بعد ذلك إلى السنة ليأخذ منها أدلة!! جديدة!، فنجده يستدل بالأحاديث التي تتكلم عن فتنة النساء، مثل ما رواه مسلم: "عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ.[101]" وإذا كان الرسول قد تركها فهل أنت أيها الغيور أغير من الرسول؟!!

كما يستدل بأن الرسول خصص للنساء باباً في المسجد يدخلون منه ونسى أن النساء كن يصلين خلف الرجال بدون أي حواجز ولا فواصل!! كما يستدل بأن النساء كن مفصولات عن الرجال في صلاة العيد وينسى أنهن حضرن العيد وصلين يراهن الرجال! وهكذا يستدل بروايات تتحدث عن تنظيم وضع خاص للمرأة في مواقف قد تحتك فيها بالرجل احتكاكاً جسديا، فجُعل لها وضعاً مخصوصاً حتى لا تزاحم الرجال فيما قد يؤذيها ويهينها، مثل ما تجعل كل دول العالم عربات خاصة للنساء في بعض وسائل المواصلات، فيستخرج منها دليلاً على حرمة الاختلاط!! ونحن لا نجادل في حرمة احتكاك المرأة بالرجل، أما أن يُمنع التعليم المختلط أو العمل المختلط أو المواصلات المختلط بحجة أن الاختلاط حرام فهذا ما لا نقبل!

كما يستدل بالأحاديث التي تأمر بغض البصر ويرى أنه لا سبيل لغض البصر إلا منع الاختلاط! ولكن لماذا وكيف غاب هذا عن الرسول الذي اكتفى بالأمر بغض البصر

[101] مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الرابع، ص.2097.

ولم يمنع النساء الحركة؟! يبدو أنهم أحذق من الرسول!!

إن مشكلة التيار السلفي هي اعتمادهم روايات قولية ليبنوا عليها أحكام بالحرمة، وينسوا الروايات التي كانت تتحدث عن فعل وحال الرسول والصحابة والتي تبين أن التعامل في مجتمع المدينة كان تعاملاً طبيعيا بين الرجال والنساء، بل هو أكثر انفتاحاً من مجتمعاتنا الحالية، فنجد أن المرأة كانت تخدم ضيوفها وضيوف زوجها وهم يرونها بدون أي تحرج، بينما يتحرج كثيرون من أن يرى الضيوف زوجه في المنزل ويعد هذا من الجرأة!

فنجد الحاكم يروي عن أبي هريرة: "قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أصابني الجهد. فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا رجل يضيف هذا الليلة يرحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ندخر منه شيئا. قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت. ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد عجب الله –أي: لقد ضحك الله عز وجل– من فلان وفلانة»[102]"

فالمرأة جلست مع زوجها والضيف وقامت تتظاهر أن تصلح المصباح فأطفأته وتظاهرا بالأكل، ولم يجدا في هذا حرجا، كما يروي البخاري: "حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ عَنْ سَهْلٍ قَالَ: لَمَّا عَرَّسَ أَبُو أُسَيْدٍ السَّاعِدِيُّ دَعَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ فَمَا صَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا وَلَا قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ إِلَّا امْرَأَتُهُ أُمُّ أُسَيْدٍ بَلَّتْ تَمَرَاتٍ فِي تَوْرٍ مِنْ حِجَارَةٍ مِنْ اللَّيْلِ فَلَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الطَّعَامِ أَمَاثَتْهُ لَهُ فَسَقَتْهُ تُتْحِفُهُ بِذَلِكَ[103]"

فها هي المرأة تقدم الطعام لضيوفها بنفسها بدون أي حرج. ولم تتحرج أم الدرداء من

[102] محمد بن عبد الله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، الجزء الرابع، ص.145.

[103] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء السابع، ص.26.

أن تعود واحداً من الأنصار عند مرضه، وصنف البخاري في هذا باباً في صحيحه فقال: "بَاب عِيَادَةِ النِّسَاءِ الرِّجَالَ وَعَادَتْ أُمُّ الدَّرْدَاءِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْمَسْجِدِ مِنْ الْأَنْصَارِ"

كما أن النبي الكريم أباح دخول الرجلين والثلاثة على المرأة، مما يؤمن معه وقوع الفاحشة، فيروي مسلم: "عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ حَدَّثَهُ أَنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ دَخَلُوا عَلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَهِيَ تَحْتَهُ يَوْمَئِذٍ فَرَآهُمْ فَكَرِهَ ذَلِكَ. فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: لَمْ أَرَ إِلَّا خَيْرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَرَّأَهَا مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: لَا يَدْخُلَنَّ رَجُلٌ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا عَلَى مُغِيبَةٍ إِلَّا وَمَعَهُ رَجُلٌ أَوْ اثْنَانِ[104]"

إن الروايات الفعلية تبيّن أنه لم يكن ثمة ذلك الحرج المصطنع الذي طرأ على مجتمعاتنا في التعامل مع المرأة، وأن الرجال كن يكلمن النساء –بتحشم–، وكان يدخلون على العجائز –ولا يُحسب هذا عليهن فاحشة!–، كما روى البخاري: "عَنْ سَهْلٍ قَالَ: كُنَّا نَفْرَحُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ. قُلْتُ: وَلِمَ قَالَ: كَانَتْ لَنَا عَجُوزٌ تُرْسِلُ إِلَى بُضَاعَةَ قَالَ ابْنُ مَسْلَمَةَ نَخْلٍ بِالْمَدِينَةِ فَتَأْخُذُ مِنْ أُصُولِ السِّلْقِ فَتَطْرَحُهُ فِي قِدْرٍ وَتُكَرْكِرُ حَبَّاتٍ مِنْ شَعِيرٍ فَإِذَا صَلَّيْنَا الْجُمُعَةَ انْصَرَفْنَا وَنُسَلِّمُ عَلَيْهَا فَتُقَدِّمُهُ إِلَيْنَا فَنَفْرَحُ مِنْ أَجْلِهِ...[105]"

وكانت المرأة تبيع وتشتري، وكانت أم سلمة "صناع اليدين" (كما روى ابن ماجه) أي أنها كانت "صاحبة صنعة" وتبيع ما تصنع، وكانت أم السائب بن الأقرع الثقفية تبيع العطر للنبي، وولّى عمر بن الخطاب الشّفاء بنت عبد الله ولاية الحسبة والأسواق والتجارات، أما الفصل الحاد بين الرجال والنساء، الذي يصل لدرجة ألا تُدرس النساء للأولاد في رياض الأطفال "الحضانة" لأن هذا اختلاط، فهذا تعنت لن يؤدي إلى

[104] مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الرابع، ص.1711.

[105] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء الثامن، ص.55.

إنشاء مجتمع سليم، وإنما أفراد شبقة تعاني من تعلقٍ مَرضي بالمرأة أو إلى ظهور الشذوذ.

تحديد النسل

على الرغم من أن هذه المسألة لا تعد فقط حكماً من أحكام المرأة، وإنما هي من أحكام الأسرة، إلا لأن عبئها يقع بالدرجة الأولى على المرأة ويؤثر على دورها وفعاليتها في المجتمع، نعرض لهذه المسألة، فنقول: تنظر السلفية إلى تحديد النسل باعتباره اعتراضاً على حكم الله وشرعه، ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الزخرف ,٣٢] وقوله: ﴿... يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة الشورى ,٤٩-٥٠]، وبأنه نقص يقين بالله الرزاق، فإذا كنت قوي الإيمان فأنجب ولا تخف، فالله سيرزقهم كما يرزقك!

كما يستدلون بروايات عن النبي الكريم حث فيها على كثرة الإنجاب، مثل ما رواه أبو داود في سننه: "عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَجَمَالٍ وَإِنَّهَا لَا تَلِدُ أَفَأَتَزَوَّجُهَا؟ قَالَ: لَا. ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَنَهَاهُ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ.[106]" وما رواه ابن ماجه في سننه: "عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: النِّكَاحُ مِنْ سُنَّتِي فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي وَتَزَوَّجُوا فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ وَمَنْ كَانَ ذَا طَوْلٍ فَلْيَنْكِحْ وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَعَلَيْهِ بِالصِّيَامِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ.[107]"

وما رواه البيهقي: "عن أنس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالباءة

(106) سليمان بن الأشعث الأزدي، سنن أبي داود، الجزء الأول، ص.625.

(107) أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، الجزء الثالث، ص.54.

وينهانا عن التبتل نهيا شديدا ويقول: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة»[108]"

وبغيرها من الروايات المماثلة، وهذه الروايات كلها وإن كانت لا تخلوا من مطعن في أسانيدها فإنها لا تدل على تحريم تحديد النسل، وإنما تدل على استحباب نكاح المرأة التي تُنجب –ولست أدري كيف يُعرف هذا إلا إذا كانت غير بِكر!–، ويظهر من رواية البيهقي علة هذا الأمر، وهو أن النبي الكريم كان يحارب به مسلكاً موجوداً في عصره وهو التبتل والرهبانية، فهو لا يريد أن يظهر في أمته هذا المسلك المنحرف الذي ظهر بين النصارى، والذي يؤدي إلى هلاك الأمة ذاتياً لعدم إنجاب الأولاد، ولهذا كان أمر النبي بالزواج من الولود، كما لا ننسى أن هذا كان في صدر الإسلام والمسلمون يومئذ قليل، ومن ثم فمن المنطقي أن يأمر الرسول بكثرة الإنجاب، أما الآن فلا مبرر لبقاء الحكم، وحتى لو بقى فلا دليل في الروايات ولا في الآيات المذكورة على تحريم تحديد النسل بأي حال، وكما قلنا ونكرر فالتحريم لا يكون إلا بدليلٍ صحيح صريح وهو معدوم في هذا الباب!

ويدلل على جوازه فعل الصحابة وإقرار النبي الكريم لهم، فكان الصحابة يعزلون، أي أنهم كانوا يُنزلون المني خارج المرأة، وهذا كان الأسلوب المتاح لتنظيم حدوث الحمل في ذلك الزمان، فيروي البخاري في هذا: "عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كُنَّا نَعْزِلُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قَالَ عَمْرٌو أَخْبَرَنِي عَطَاءٌ سَمِعَ جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنَّا نَعْزِلُ وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ[109].

وروى مسلم: "عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كُنَّا نَعْزِلُ وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ. زَادَ إِسْحَقُ قَالَ سُفْيَانُ: لَوْ كَانَ شَيْئًا يُنْهَى عَنْهُ لَنَهَانَا عَنْهُ الْقُرْآنُ.[110]"

وقال المحرمون لتحديد النسل أن هذه الأحاديث منسوخة بأحاديث أخرى مثل ما

[108] أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، الجزء السابع، ص.340.

[109] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء السابع، ص.33.

[110] مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الثاني، ص.1065.

رواه الإمام مسلم: "عَنْ جُدَامَةَ بِنْتِ وَهْبٍ أُخْتِ عُكَّاشَةَ قَالَتْ: حَضَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُنَاسٍ وَهُوَ يَقُولُ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنْ الْغِيلَةِ فَنَظَرْتُ فِي الرُّومِ وَفَارِسَ فَإِذَا هُمْ يُغِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ فَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَأَلُوهُ عَنْ الْعَزْلِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ذَلِكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ.[111]

وهنا لم يصرح الرسول الكريم بالتحريم وإنما شبه هذا الفعل بالوأد! ومن المفترض في الصحابة أن يفهم كل منه حسب اجتهاده إذا كان القول دالاً على التحريم أم لا! وكما قلنا فالتحريم صريح في دين الله.

ومن ثم فإن هذا الحديث وأمثاله لا يدل على التحريم، ولا تناقض بينه وبين الأحاديث السابقة، ومن ثم فلا نسخ، وهذا ما فهمه الصحابة أنفسهم، فالصحابي يتحدث عن شيء كان يحدث في زمن النبي ولم يلغه النبي ولم ينه عنه القرآن، وهذا يعني أن الصحابة لم يروا في أقوال الرسول هذه ما يناقض الأحاديث السابقة، وإلا فكيف يكون قد نُسخ ولم يدر الصحابي بذلك وغيره مثل ابن مسعود وابن عباس وزيد بن ثابت وغيرهم؟!!

إن جواز العزل هو ما استقر عليه السلف، –وليس ما يفعله السلفيون الذين يتسابقون في الإنجاب وتكثير العيال!– ولذلك وجدنا أن كبار الصحابة والفقهاء كان لهم عدد محدود من الأولاد، وهذا يعني أنهم كانوا يعزلون لا محالة!

إن لتحديد النسل فوائد كثيرة، أهمها المحافظة على صحة المرأة، والقدرة على التربية السليمة للأولاد، والتي يصعب تحقيقها مع كثرة الأولاد، وبالتربية السليمة نستطيع أن نخرج أجيالاً نافعة والعبرة بالكيف وليس بالكم ولا "بالعزوة" ولا بمجرد تكثير المسلمين، فنحن الآن ربع سكان الأرض وليس لنا مكانة ولا قيمة علمية ولا فكرية ولا دور فاعل ونحن محسوبون على الإسلام وليس له! وأصبحنا بحالنا هذا من أجيال: "غثاء السيل"، التي قال النبي الكريم فيها –كما روى أبو داود–: "عَنْ ثَوْبَانَ

[111] المرجع السابق، ص.1066.

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نحنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ[112]".

إن مشكلة السلفيين أنهم لا يريدون أن يقروا بتغير الحال والزمان، ومن ثم يعترفوا أن متطلبات تربية الأولاد لم تعد كسابق عهدها وإنما أصبحت أكثر تعقيداً، مما يستلزم تفرغ كبير من الأبوين، وهذا ما لا يمكن تحقيقه بحال مع أعداد الأولاد الكثيرة. وليس تنظيم الأسرة من أجل الاحتياجات المادية مما عابه الإسلام، فلقد قال الرب العليم: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾ [سورة النساء ,٣] أي ألا تفتقروا.

ولا بد أن نشير هنا إلى أن حديثنا هو عن تنظيم النسل باتخاذ بعض الوسائل التي يمكن التوقف عنها في أي وقت، وليس: التعقيم، (استخدام الوسائل التي تسبب العُقم)، فهذا إفساد لخلقة الله، وإيذاء للذات، وهو قرار قد يندم عليه الزوجان كثيرا لأنه لا يُستدرك.

---

(112) سليمان بن الأشعث الأزدي، سنن أبي داود، الجزء الثاني، ص. 514.

الفصل الثاني: الفنون

التصوير

لا يُقصد بمصطلح التصوير في الفقه الإسلامي ما تعورف عليه في زماننا هذا، من التقاط للصور بآلة التصوير "الكاميرا"، وإنما هو مصطلح أوسع يُقصد به أولاً النحت والرسم باليد، ثم دخل الأسلوب المستحدث بالكاميرا تبعاً له.

وللسلفيين موقف واضح من التصوير بكافة أنواعه وهو التحريم، "سواء كانت الصورة في ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو إناء أو حائط أو غيرها، وسواء ما له ظل أو ما لا ظل له"[113]، ويرى بعض السلفيين السعوديين أن إدخال التصوير في التعليم من المصائب والكوارث ويتحسرون على انتشار الكتب المصورة في المكتبات والأسواق ... ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

وعندما سُئل الشيخ ابن عثيمين عن حكم التصوير، كان رده: "التصوير نوعان: أحدهما: تصوير باليد. والثاني: تصوير بالآلة. فأما التصوير باليد فحرام بل هو كبيرة من كبائر الذنوب لأن النبي صلى الله عليه وسلم، لعن فاعله، ولا فرق بين أن يكون للصورة ظل أو تكون مجرد رسم على القول الراجح لعموم الحديث، وإذا كان التصوير هذا من الكبائر، فتمكين الإنسان غيره أن يصور نفسه إعانة على الإثم والعدوان فلا يحل. وأما التصوير بالآلة وهي (الكاميرا) التي تنطبع الصورة بواسطتها من غير أن يكون للمصور فيها أثر بتخطيط الصورة وملامحها فهذه موضع خلاف بين المتأخرين فمنهم من منعها، ومنهم من أجازها (...)[114]" اهـ

[113] في المسألة تفصيل، فيرى كثير من العلماء جواز وضع الصور في الموضع المهان، مثل الصور على السجاد لأنه يداس بالأقدام، ويجوزون كذلك وضع تماثيل بدون رأس، لأنها ناقصة، وأجاز الجمهور صور غير ذي الأرواح (النباتات والجمادات)، كما أنهم يبيحون لعب الأطفال!! وإن كانت تماثيل صغيرة!

[114] محمد بن صالح العثيمين، مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين، الجزء الثاني، ص.253.

ولهذا نفهم موقف الشيخ الألباني وصالح الفوزان –وغيرهما من مشائخ السلفية السعوديين تحديداً– الرافض للظهور في التلفاز أو استخدام الوسائل التعليمية المصورة حتى في تدريس المواد الشرعية، لأنهم يرون حرمة هذا والنفع يمكن التوصل إليه عن طريق التسجيل الصوتي، ولهذا نجد بعض المساجد السلفية تعلق لافتات بداخلها مكتوبٌ عليها: "المسجد يبيح التسجيل ولا يجيز التصوير".

إلا أن كثيراً من مشائخ السلفية المعاصرين تجاوز هذه النقطة ولم يجد حرجاً في أن يظهر في التلفاز، ربما اعتماداً على التفريق بين التصوير المتحرك وبين الرسم، وربما من باب أن هذه مفسدة صغيرة تُدفع من أجل المصلحة الكبيرة.

لذا ننظر في مستندهم بالقول بهذه الحرمة الشديدة للتصوير الذي قد تجعله من الكبائر، فما هي أدلتهم؟! لا نجد للسلفيين دليلاً واحداً من القرآن على تحريم الرسم أو النحت، أي أن الله منزل الكتاب لم يجد داعياً أصلاً أن يخاطب عباده بهذا الشأن، ومن ثم فإن الحكم الأصلي لهذه المسألة هو الإباحة.

إلا أن السلفيين لا يرون حرجاً في أن يزيد الرسول عن القرآن أحكاماً ملزمة، ومن ثم يستندون إلى السنة في هذه المسألة، ولذا نحاكمهم إلى أصولهم ونسأل: هل نهى النبي الكريم عن التصوير؟ هل ثمة حديث صحيح نهى فيه الرسول الكريم عن أن يرسم الإنسان أو ينحت؟!

الناظر يجد أن الرسول الكريم لم ينه طيلة سنين دعوته الثلاث وعشرين المسلمين أن يرسم أحدهم شيئاً أو أن ينحت، وإنما وردت بعض الروايات في وعيد المصورين – الذين ينحتون التماثيل–، مثل ما رواه مسلم: "عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ.[115]"،

ومثل ما رواه أحمد في مسنده عن: "عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(115) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الثالث، ص. 1670.

وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ. وَقَالَ حَفْصٌ مَرَّةً كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا وَلَيْس بِنَافِخٍ[116]"

فهنا نجد حكماً عاماً على المصورين بالنار على الرغم من أن النبي لم ينه عنه قط! ومن ثم يُفهم أن هذا وعيد على شيء مخصوص ارتبط بهذا الفعل، وإلا فكيف يُتوعد وعيد شديد لما لم ينه عنه؟! وليست كل الروايات على العموم، فنجد رواية عند البخاري تبين أن هذا الحكم في نوعٍ مخصوص، فيروي البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي الْبَيْتِ قِرَامٌ فِيهِ صُوَرٌ فَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ ثُمَّ تَنَاوَلَ السِّتْرَ فَهَتَكَهُ وَقَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُصَوِّرُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ[117]"

فنلاحظ أن الرسول لم يقل في رواية البخاري: "أشد الناس عذاباً" وإنما قال: "من أشد"، كذلك لم يقل: "المصورون"، وإنما قال: "من يصورون هذه الصور"، وهذا يعني أن هذه الصور كانت ذات محتوى شركي، ولذلك تغير وجه النبي الكريم وقال أن من يصنع هذه عذابه شديد، ولو كان التصوير عامة حراماً وفاعله معذب لقال: كيف بالصور في بيت محمداً؟! وإنما كان الاعتراض على نوعية الصور. ومن ثم يمكننا القول أن الروايات الأخرى التي توعدت المصورين هي ليست على العموم وإنما هي فيمن يصنع صوراً شركية كآلهة المشركين وما شابه.

ولقد حاول بعض المعاصرين[118] أن يقدم تعليلاً لهذا التحريم –غير الموجود أصلاً!– فقال أن هذا كان راجع إلى أن الناس كانوا قريبي عهد بوثنية وشرك، ومع بعد الناس عن هذه العصور وانتفاء مظنة الشرك أصبح الحكم هو الجواز، والحق أن الناس كانوا فعلاً قريبي عهد بوثنية ومن ثم توارت هذه الصنعة من تلقاء نفسها، لأنه لم يكن

[116] أحمد بن حنبل، المسند، الجزء الثاني، ص.145.

[117] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء الثامن، ص.27.

[118] ليس ربط علة تحريم صنع التماثيل بالتقديس من مستحدثات المعاصرين، فهناك من قال بذلك من القدماء، مثل الإمام القرافي المالكي (من علماء القرن السابع الهجري) فكان يصنع التماثيل بنفسه.

معهوداً لدى العرب صناعة التماثيل من باب "الديكور" وتزيين المنازل أو الخيام، وإنما كانت تُصنع للعبادة، ومن ثم توارت الصنعة من تلقاء نفسها، إلا أنه مع احتكاك العرب الفاتحين بالحضارات الأخرى التي وُجدت فيها هذه الظاهرة ومع محاولة بعض المسلمين تقليد الآخرين في "نمط معيشة الأثرياء" ظهرت هذه الصنعة مرة أخرى.

إلا أن الناظر في الروايات يجد أن ارتباط الأمر بالوثنية ليس هو علة هذا الوعيد الشديد، وإنما هو مضاهاة خلق الله، أي أن المصورين لن يُعذبوا لأنهم صنعوا آلهة للمشركين، وإنما لأنهم ضاهوا خلق الله!! فنجد عدداً كبيراً من الروايات تصرح بهذا —مدارها تقريباً على ابن عباس، مما يدفعني للتساؤل: هل هي من قول ابن عباس نفسه؟!— مثل ما رواه البخاري "عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ إِنِّي إِنْسَانٌ إِنَّمَا مَعِيشَتِي مِنْ صَنْعَةِ يَدِي وَإِنِّي أَصْنَعُ هَذِهِ التَّصَاوِيرَ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا أُحَدِّثُكَ إِلَّا مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فَإِنَّ اللَّهَ مُعَذِّبُهُ حَتَّى يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ فِيهَا أَبَدًا. فَرَبَا الرَّجُلُ رَبْوَةً شَدِيدَةً وَاصْفَرَّ وَجْهُهُ فَقَالَ: وَيْحَكَ إِنْ أَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تَصْنَعَ فَعَلَيْكَ بِهَذَا الشَّجَرِ كُلِّ شَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ[119]"، وكذلك يروي أحمد في مسنده "عَنِ ابْنِ عُمَرَ: عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْمُصَوِّرُونَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ[120]"

ومن ثم يحق للمرء أن يتساءل: وما الذنب عقلاً في أن يصور الإنسان على صفة خلق الله، إذا كان الإنسان لم يصله نهي من خالقه بشأن هذه المسألة؟ فإذا كنا في الإسلام لم نجد من الله ولا رسوله، فما بالنا بأهل الجاهلية الذين لم يكن معهم كتاب فيه نهي عن ذلك؟ وما حال سيدنا سليمان الذي كان يُصنع له تماثيل: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ ... ١٣﴾ [سورة سبإ, ١٣].

[119] المرجع السابق، الجزء الثالث، ص.82.

[120] أحمد بن حنبل، المسند، الجزء الثاني، ص.4.

اللهم إلا إذا كانت نية الصانع أن يخلق مثل ما خلق الله –وهذا ما يفعله مجانين علماء الطبيعة الآن، الذين يحاولون صناعة خلايا حية! ليثبتوا أن الخلق يمكن أن ينشأ صدفة أو أن الإنسان قادرٌ على الخلق، وبداهة فإن صنع أولئك المجانين خبط للرؤوس في الصخر!!–، ولا أعتقد أن هذا يخطر ببال النحاتين أو الرسامين، ومن ثم فلا وعيد في حقهم.

وباقي الروايات التي يستندون إليها هي روايات تتحدث عن آلهة كانت تُعبد من دون الله، مثل ما رواه مسلم: "عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصُبًا فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ كَانَ بِيَدِهِ وَيَقُولُ: ﴿... جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [سورة الإسراء, ٨١]، ﴿... جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة سبإ, ٤٩][121]"، ومثل ما رواه الأزرقي في: أخبار مكة: "عن ابن شهاب أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة يوم الفتح وفيها صور الملائكة وغيرها، فرأى صورة إبراهيم، فقال: «قاتلهم الله، جعلوه شيخا يستقسم بالأزلام». ثم رأى صورة مريم، فوضع يده عليها، وقال: «امحوا ما فيها من الصور إلا صورة مريم»[122]

فمن البديهي في مثل هذه المواقف أن تُهدم هذه الأنصاب وتمحى هذه الصور التي تعد معبودات شركية.

إن الصحابة رضوان الله عليهم لم يفهموا من وعيد الرسول الكريم للمصورين سوى أنه وعيد لصنف مخصوص وغضبه من الصور كان على الصور الشركية، ولهذا لم يهدموا التماثيل في البلدان التي فتحوها، ونثبت للقارئ الكريم مقتطفات ما كتبه الشيخ محمد أمين –وهو أحد شيوخ السلفية– في أحد بحوثه على موقعه الشخصي بشأن التماثيل والصور، حيث قال: "ويبدو أن جواز ترك الصور والتماثيل التي لا تُعَظّم هو

[121] مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الثالث، ص.1408.

[122] أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي، أخبار مكة، الجزء الأول، ص.168–169.

مذهب جمهور الصحابة، بل إجماعهم. حيث أنهم لم يحطموا التماثيل والصور في بلدان فارس والشام والعراق، لكنهم حطموها في بلاد الهند وبلاد العرب. ذلك أنها لم تكن تعبد في فارس والشام ومصر. وتركوا تلك الصروح الضخمة والتماثيل الكثيرة إلى اليوم. وتأمل هذه الأمثلة: دخل سعد بن أبي وقاص (فاتح العراق وأحد المبشرين للجنة) قصر كسرى في المدائن. وفي ذلك القصر صور كثيرة على الجدران وتماثيل. ولم يهدم منها شيئاً، بل بقيت ليومنا هذا. ولم ينكر عليه أحد من الصحابة ولا على غيره. فهذا إجماع منهم على جواز إبقائها إن لم تكن تعبد من دون الله ولم يكن لها أي قدسية. (...) وكانت على جدران إيوان كسرى صور ملونة بالحجم الطبيعي، مرسومة بدقة فائقة. وما تزال هذه الصور إلى يومنا هذا. فهذه لم تكن مدفونة في الرمل طبعاً، بل هذا القصر دخله عدد من الصحابة وأقاموا فيه. فكيف لم يروا الصور وهي واضحة ما تزال لهذا اليوم؟! أما عدم القدرة على الهدم، فبديله الطمس (أي للصور). وهذا لا يحتاج لا لنفقة كبيرة ولا لتسخير عدد هائل من الناس. ومن السهل أن يأمر الحاكم بطلي الجدران من جديد. فلم يبق إلا أنهم فهموا أحاديث طمس الصور بأنها خاصة بما كانت له قدسية أو ما كان يعبد من غير الله. (...) ومن الطرائف أن أحد المعاصرين المؤيدين لهدمها، ادعى أن تلك التماثيل والأصنام الفرعونية كانت مطمورة بالرمال ولم تكن ظاهرة على وقت الصحابة! بل لم تظهر للعيان إلا قبل مئتين من السنيين. وهذا القول منه قصور في التتبع لكتب التاريخ. وإلا فكتب التاريخ مليئة بالأخبار التي تنص على معرفة المسلمين بها. من ذلك أنّ الجاحظ (وهو معاصر للأئمة مالك والشافعي وأحمد) عدد عجائب الدنيا فقال كما في حسن المحاضرة (3 | 65): «وصنم الهرمين وهو بلهوية ويقال بلهنيت وتسميه العامة أبو الهول، ويقال إنه طلسم للرمل لئلا يغلب على الجيزة». وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان (5 | 401): «وعلى ركن أحدهما (يعني الهرمان) صنم كبير يقال له بلهيت. ويقال إنه طلسم للرمل لئلا يغلب على كورة الجيزة. وهو صورة رأس آدمي ورقبته ورأساً كتفيه كالأسد. وهو عظيم جداً. وهو صورة مليحة كأن الصانع فرغ منه عن قرب. وهو مصبوغ بحمرة موجودة إلى الآن مع تطاول المدة وتقدم الأعوام». (...) وكان عدد

الصحابة الذين دخلوا مصر أكثر من ثلاثمائة كما حقق ذلك السيوطي في "حسن المحاضرة" (1 | 166). (...) وعليه فالصحابة الذين دخلوا مصر، جزماً رأوا أبا الهول وتصاوير الأهرام. هذا فضلاً عن أصنام عين شمس التي لا شك ولا ريب أنهم رأوها بعد فتحها، ودخولهم في المدينة. ونفي رؤيتهم لها مكابرة. هذا إضافة إلى أصنام مدينة "منف" الفرعونية –وغيرها– التي أجزم أنهم رأوها، لكثرة عددهم وطول مكثهم في مصر.[123]" اهـ

نخرج من هذا بأن موقف الإسلام من فنون التصوير هو موقف محايد يتوقف على طبيعة المرسوم أو المنحوت، فإن كانت رسومات أو صوراً عارية أو لآلهة شركية فهي محرمة، وأما إن كانت تعليمية أو صوراً شخصية أو صناعات فنية بعيدة عن التقديس وشبهته فليس فيها أي إشكال.

هذا وإن كنت لا أميل أنا شخصياً إلى فن النحت، وأراه ليس الأسلوب الأمثل للتعبير عما في داخل الإنسان ولا لتكريم الشخصيات البارزة وتخليدها في التاريخ عبر إقامة مجسمات لها، إلا أن الميل شيء والحكم بالحل والحرمة شيء آخر!

الغناء والمعازف

بعد أن تكلمنا عن التصوير وبيّنا كيف حرّمه السلفيون بلا دليل تحريم، نتناول ضرباً آخر من ضروب الفن وهو الغناء والمعازف، فكيف يرى السلفيون الغناء والموسيقى؟ الناظر في الفكر السلفي يجد أنه ينظر إليهما باعتبارهما خمر النفوس ورقية الزنا لما تسببه من هيجان الغريزة، وهي تميت القلب لأنها تنبت النفاق فيه كما ينبت الماء العشب، وهي صوت الشيطان .. الخ! ومن ثم يكاد التيار السلفي يجمع على تحريمها، لذا ننظر هل لديهم أدلة على حرمتها أم أنه نفس المنهج الوقائي؟!

---

[123] موقع ابن أمين، بحث بعنوان: حكم الصور والتماثيل: www.ibnamin.com

والحق أن ليس السلفيون فقط هم من يحرمون الموسيقى والغناء فهذا هو الرأي المنتشر في الفقه السني، إلا أن في المسألة تفصيل، فمن محرمٍ لكل أنواع الموسيقى والغناء ومن مجيز للدف فقط، ومن مجيز لكل الأنواع ما عدا التي وردت في الأحاديث –لأن هذا الموضوع لا يقاس عليه– فحرم عدة أدوات من المعازف وردت بالنص وأباح الباقي!، ومن مجيز لهما بشروط وأوصاف.

فإذا نظرنا في القرآن وجدنا أنه لم يعرض لقضية الغناء ولا المعازف أصلاً، على الرغم من أنه عرض للشعر والشعراء فقال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [سورة الشعراء, ٢٢٤-٢٢٧]، (وليس هذا ذم للشعر بشكلٍ عام وإنما للشعراء الذين يحاربون الدين ويردون عليه بقصائد شعرية ويحرضون على قتال المؤمنين، فبيّن الله أن من يتبع الشعراء –ويترك كتابه– هو غاوٍ، لأنه يرى الأدلة على كذبهم أمامه وأن أقوالهم صنف من صنوف الكلام المختلق! ومن ثم فمن الحمق كل الحمق أن يتبع الإنسان شاعراً فيجعله قائداً وموجهاً له، فالإتباع للدين وليس للأدب، بينما لا إشكال في أن يسمع الإنسان شاعراً أو شعراً كضرب من ضروب الترفيه، فالشعر كلامٌ، حلاله حلال وحرامه حرام).

الشاهد أن القرآن لم يعرض للغناء ولا للموسيقى بتاتاً، وهما موجدان في زمان الرسول وقبله، فلماذا لم يذكرهما الله صراحة في كتابه، الذي فصل لنا فيه ما حرّم علينا حتى يريحنا من هذا الجدل حول المسألة؟ ولم يأت حديث واحد عن الرسول الكريم يحرم فيه الموسيقى صراحة، ومن ثم يجب فهم الأحاديث –على فرض صحتها– التي تتوعد سامعها أو عازفها بأنها قيلت لظروفٍ معينة وليست على الإطلاق، وإلا فكيف يُتوعد على شيء وهو لم يُحرم أصلاً؟!

إلا أن السلفيين يرون أن هناك أدلة على حرمته في القرآن، فيفسرون آيات على أنها

واردة في الغناء، وأشهر هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ... ٦﴾ [سورة لقمان, ٦]

ولا يحتاج الأمر لعظيم تفكر ليجزم بأن الآية ليس لها علاقة بالغناء ولا بالمعازف، إلا لأنه قد وردت أخبار عن ابن مسعود تقول أنه الغناء، مثل ما رواه الإمام الطبري في تفسيره: "... عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يُسأل عن هذه الآية: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بغَيْرِ عِلْمٍ) فقال عبد الله: الغناء، والذي لا إله إلا هو، يردّدها ثلاث مرّات.[124]" اهـ

وبما أن ابن مسعود قال هذا، فهو أعلم بالقرآن!! ومن ثم فالآية في الغناء! كما يستدلون بروايات أخرى، مثل ما رواه الترمذي: "... عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا تَبِيعُوا الْقَيْنَاتِ وَلَا تَشْتَرُوهُنَّ وَلَا تُعَلِّمُوهُنَّ وَلَا خَيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ. وَفِي مِثْلِ هَذَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ٦﴾ [سورة لقمان, ٦]"[125]، فيقولون أن النبي نهى عن بيع القينات وشراءهن وتعليمهن الغناء –واللاتي لم يكن قد ظهرن في زمن النبي بعدا!! وإنما ظهرن مع الفتوح الإسلامية والاحتكاك بالحضارات الأخرى!!–، وأن أبا أمامة كان يرى ما يراه ابن مسعود وابن عباس في أن هذه الآية أُنزلت على الرسول في الغناء.

ومع احترامنا وتقديرنا لأقوال الصحابة –إن صحت إليهم– فإن الآية لا علاقة لها بالغناء، ومن الممكن أن يكون المقصود بها الشعر المعارض للدين المستهزئ به، أمّا أن أصدّ عن القرآن بالغناء فهذا ما لن يفعله أي عاقل، فهل من المعقول أن يقتنع إنسان بما في الغناء عن القرآن؟ إن الشعر قد يعمل على إثارة الحماسة أما أسلوب الغناء ومجالسه فليس هي ما يُعارض به القرآن! ناهيك عن أنه غير معروفٍ في لغة

[124] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء العشرون، ص.127.

[125] محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، الجزء الخامس، ص.345.

العرب أن لهو الحديث هو الغناء، ولولا ذلك لما رأينا ابن مسعود يقسم ثلاثاً، فلو كان معروفا لما أقسم.

وننبه على أن الذم اقترن بأن لهو الحديث "يضل عن سبيل الله"، فليس كل لهو للحديث حرام أو مذموم، فقد نلهو أنا وإخوتي بالحديث، ولا يكون هذا من باب الحرام، بل يكون من باب اللغو الذي لا نؤاخذ به، وأما لهو الحديث الذي يمكن أن يصد عن سبيل اله فيصدق على أنواع عدة من الحديث منها: ما رواه الزمخشري في الكشاف: "وقيل: نزلت في النضر بن الحرث، وكان يتجر إلى فارس، فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن.[126]" اهـ

فهذا كان يشتري حكايات رستم وبهرام ويقول للمشركين أن هذا مثل ما يقول به محمد، فكلٌ من باب الأساطير، فهذا شراء للهو الحديث ليضل عن سبيل الله. ومن ذلك أيضا من يشتري النظريات العلمية الساقطة من دارونية وخلافها ويذيعها بين المسلمين، فكثير من هذه النظريات لا جذور لها ولا يصح أن توصف بأنها علمية، فهي كما أرى من باب لهو الحديث الذي يضل عن سبيل الله. نعم، قد يكون الغناء يلهي عن ذكر الله وعن الصلاة فيكون حراما، إلا أن هذه حرمة لعارض وليس لعلة قائمة فيه.

وليست هذه الروايات –الضعيفة– هي مستندهم الوحيد، فلديهم روايات أخرى كثيرة، اختلف في صحتها، حتى أن هناك من ضعفها كلها وقال أنه لم يصح في الباب إلا ما رواه البخاري: "قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو عَامِرٍ أَوْ أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ –وَاللَّهِ مَا كَذَبَنِي– سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ يَأْتِيهِمْ يَعْنِي

---

[126] جار الله أبو القاسم الزمخشري، تفسير الكشاف، الجزء الثالث، ص. 490.

الْفَقِيرَ لِحَاجَةٍ فَيَقُولُونَ ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا فَيُبَيِّتُهُمْ اللَّهُ وَيَضَعُ الْعَلَمَ وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ[127]"اهـ

وبغض النظر عن صحة الحديث من ضعفه[128]، فأول ما نلحظه هو أن البخاري نفسه لم ير أن هذا الحديث دليل في تحريم الموسيقى بدليل أنه عند تصنيفه وضعه تحت باب آخر تماما وهو: "باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه"، فلو رأى أنه في تحريم الموسيقى لأشار إلى ذلك. وللفقهاء الذين يقولون بجواز سماع الموسيقى تأويلات عدة لهذه الرواية لا نذكرها هنا بل تطلب في مظانها، وأذكر فهمي لكلمة "المعازف" التي يستدلون بها على التحريم، فأقول: عندما بحثت عن كلمة "المعازف" في المعاجم وجدت أنها تأتي بمعنى اللهو واللعب وكل ما يشغل، وتأتي أيضا بمعنى اللعب على الأدوات الموسيقية، ونحن لا نزال نستعمل نفس الاستعمالين، فنقول: عزفت عن الشيء وعزفت على العود.

كما أنها لم تكن مشتهرة بين العرب على أنها الموسيقى، فإذا قيلت انصرف الذهن إليها، بل هي ترد في كل الموارد، ومن ثم أتساءل: لم حمل الفقهاء المعازف هنا على الآلات الموسيقية؟ لماذا لم يحملوها على الملاهي؟ أنا أرى أن الحمل على الملاهي أولى لأن الملاهي تشمل الموسيقى وغيرها مما يصد ويلهي عن ذكر الله، أمّا الحمل على الموسيقى فتخصيص. وإذا افترضنا أن الغناء هو "لهو الحديث" فهل الموسيقى حديث حتى تُحرم؟!

ولو افترضنا صحة الأحاديث الواردة في الباب لنا أن نتساءل: هل التحريم للموسيقى والغناء ذاته أم للجو الذي يجري فيه الغناء؟ في ذلك الزمان ما كان يستطيع أحد أن يسمع الغناء إلا بالذهاب إلى مجالسه التي تكون مصحوبة غالبا بالخمر والنساء، وهذا

---

[127] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء السابع، ص.106.

[128] الحديث من "معلقات" البخاري وهناك من ضعفه من علماء الحديث، لعلة في سنده، وأقول أنا: بغض النظر عن السند، فإن متن الحديث منكر وواضح أنه وُضع في فترة زمنية متأخرة، تتحدث عن واقعة بعينها يعرف بها من سيسمع هذه الرواية، ولهذا حاول الراوي أن يؤكد الحديث بقسمه وقوله: "والله ما كذبني"! وحقاً يكاد المريب يقول خذوني.

حرامٌ بداهة، ولكن أن أسقط حكم هذه الحرمة على مغنٍ في المذياع أو التلفاز مثلا؟

إن هذا الحكم يمكن إسقاطه على نصيب كبير من الغناء في زماننا هذا، والذي كثيراً ما يكون فيه المغني امرأة ترتدي ملابس خليعة أو تتراقص أو تتكسر بالكلام، فهذا الظرف الجديد هو الذي يؤدي إلى التحريم وليس الغناء ذاته فنحن مأمورون بالغض من أبصارنا، فلو كان نفس الغناء صادرا من رجل لما كان فيه شيء، وكذلك إذا كان الكلام يدعو إلى فاحشة –وهو قليل– أو إلى الاعتراض وعدم الرضا فكذلك، ولا نريد أن نسهب التفصيل هنا عن المواضع التي يكون فيها الغناء حلالا والمواطن التي يكون فيها حراما، فما نود قوله هو أنه لا يوجد دليل على أن الغناء لذاته حرام.

ونقول ختاما: عندما تكلم الله عز وجل عن التحليل والتحريم قال أن الرسول: "يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ" ولا يمكن لأحد أن يدعي أن الموسيقى الراقية أو الغناء النظيفين يمكن أن يعدا من الخبائث، فهما يستخدمان في علاج المرضى وإراحة الأعصاب وزيادة إدرار اللبن عند البهائم ويساعد في نمو النبات وفي غير ذلك، وبداهة لو استخدمنا القرآن لحصلنا على نتائج لا تقارن، ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر تفاعل الإنسان ولو كان طفلا مع الموسيقى ناهيك عن الحيوان، ومن لا يتفاعل معها فهو جلف غليظ القلب كما وصفه الإمام الغزالي[129]، فالإسلام أتى لتهذيب الطبائع لا لمحوها، فحد حدودا لكل شيء ولكنه لم يلغ أي رغبة أو شهوة أو غريزة في الإنسان، ومن ذلك متعة السماع فلا يمكن أن يكون حرم أو ألغى.

والسلفيون أنفسهم أقروا بكون الطرب حاجة أصيلة في الإنسان، فنجدهم قد استعملوا في قنواتهم بعض الأصوات مثل أصوات الحيوانات وأصوات مركبة على "الحاسوب" و"الدف" أحيانا وكذلك بعض الأناشيد الإسلامية، ليعملوا على جذب الناس واستمالتهم، فما الفارق بين هذه وتلك؟! لقد استبدلوا أصواتٍ بأخرى ليشبعوا حاجة الناس، وفعلهم أكبر دليل على أن المشكلة ليست في الغناء أو الموسيقى بذاته وإنما

(129) ويمكنني أن أقول أن عدم استماع السلفيين إلى الموسيقى عنصر حاسم في حدة طباعهم.

في الظروف المحيطة بهما، وهو ما نتفق على تحريمها. فلا بأس بالاستماع إلى الموسيقى والغناء من باب الترفيه –بدون إسراف– حتى يستطيع الإنسان أن يستمر في الجد، فليس في المسألة إجماع وليس قولنا هذا ببدعٍ من القول فهو قول كثير من الفقهاء والعلماء في قديم الزمان وحديثه[130]، والله أعلم.

[130] من العلماء الذين قالوا بإباحتها بالشروط المذكورة في العصر الحديث، الشيخ السلفي: عبد الله جديع، وله في ذلك كتاب: "الموسيقى والغناء في ميزان الإسلام"، وكذلك العلامتان: محمد الغزالي –رحمه الله رحمة واسعة– ويوسف القرضاوي، وله في ذلك كتاب: "فقه الغناء والموسيقى"، والدكتور محمد المرعشلي وله فيها كتاب: "الغناء والمعازف في الإعلام"، وغيرهم كثير مثل المفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة، والدكتور سالم الثقفي والشيخ عبد الباري الزمزمي والشيخ حسن العطار والشيخ محمد رشيد رضا والشيخ محمود شلتوت، فإذا عدنا إلى العلماء السابقين وجدنا أن استماع الملاهي هو قول أهل الحجاز والذي عده المتأخرون من الزلات فتركوه!!! وهو قول الإمام ابن حزم الظاهري، وسلطان العلماء العز بن عبد السلام، والقاضي أبي بكر بن العربي المالكي صاحب التفسير، والإمام أبي حامد الغزالي، والإمام الشوكاني والماوردي وابن قتيبة وبن دقيق العيد وغيرهم من العلماء.

الفصل الثالث: العقيدة

يُولي السلفيون مسألة العقيدة اهتماماً كبيراً ويتعصبون لها تعصباً شديداً، بحيث لا يقبلون الخلاف فيها، فمن الممكن أن يُقبل الاختلاف في الأحكام الفقهية، أما الاختلاف في الجانب العقدي فليس أي معنى سوى أنك ضال منحرفٌ مبتدع، ومن ثم فهم يُقيّمون "الرجال" تبعاً لعقيدتهم، فتؤخذ أو تُرد أقوالهم في كل الجوانب تبعاً لعقيدتهم.

وعلى الرغم من محدودية "الإيمانيات" في الدين الإسلامي، التي إذا لم يقر بها الإنسان كان خارجاً من الملة، فإن هذا النطاق قد اتسع عند أتباع المنهج السلفي ليدخل فيه أفهام السلف في كثيرٍ من المسائل التي ذكرها الله، ولم يقل هو ولا رسوله أنه يجب أن تُفهم بشكلٍ معين ولم يسأل النبي أصحابه كيف فهموها، وعلى الرغم من ذلك أصبح صاحب الفهم المخالف ضالاً محكوم عليه بالنار!

ولم يقتصر الأمر على فهم السلف وإنما تعداه إلى عقائد زيدت بعد الرسول الكريم، "فمن المسلم به أن النبي المعصوم أدى الرسالة وبلغ الأمانة ونصح للأمة فكشف الله به الغمة وتركنا على المحاجة البيضاء، ليلها كنهارها، فبلغ ما أمر الله به أن يُبلغ للكل على سواء، ومات النبي وقد ترك الدين واضحا جليا لمن كان في اليمن كمن كان في مكة، إلا في بعض السنن التي وصلت لاحقا، لذا كان من المنتظر أن يجد المسلم إذا تحدثنا عن الإيمانيات بالذات كل ما يحتاجه في القرآن الكريم بدون حاجة إلى اجتهاد أو إعمال عقل، ولكن العجيب أننا نجد عقائد! ارتبطت بالحوادث التاريخية بعد وفاة النبي المعصوم، ولأسباب تاريخية ولصراعات قبلية وطائفية ومذهبية دخلت هذه الآراء في كتب العقيدة، كما أُلحقت مسألة الإمامة مع أنها من أبواب الفقه ولكنه الفعل الشيعي ورد الفعل السني وهكذا.[131] " اهـ

[131] عمرو الشاعر، عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام، ص.119-120.

وهكذا تضخمت العقيدة الإسلامية لحد كبير، حتى وصل الأمر إلى أن ترتيب الصحابة في الأفضلية يُعد ضمن عقيدة المسلم! فيجب عليه أن يعتقد أن ترتيب أفضلهم هو ترتيب توليهم الخلافة بعد الرسول الكريم!!

وهكذا أصبح على المسلم أن يسير على "صراط العقيدة السلفي" الذي هو أدق من الشعرة وأحد من السيف وأكثر تشعباً من الشجرة، والذي لم يُستخرج حصراً من القرآن القطعي الثبوت، ولا الأحاديث المتواترة وإنما كذلك من أحاديث الآحاد والتي لم تخلُ من الضعيف، ومن أقوالٍ منسوبة إلى الصحابة، ومن أقوال التابعين، فإن رفض المسلم شيئاً مما سوى القرآن كان كمن أنكر ما جاء في القرآن.

ولو اقتصرت العقيدة عند السلفيين على "معتقدات" كامنة في الصدور وعلى منظورهم للحياة لهان الأمر، وإنما تعدت إلى القول بواجبات ملزمة للمسلم كمظهرٍ لهذا الإيمان، ومن ثم كان لهذه العقائد الدور الرئيس في ظهور العديد من الفتاوى السلفية العجيبة، التي أثارت الاستغراب والاستهجان، وكذلك في ظهور التيارات السلفية الأكثر تشددا "الجهادية"!

لذا نتوقف مع "صراط العقيدة السلفي" لننظر هل هو صراط مستقيم فعلاً، حافظ على نقاء العقيدة والإيمان السليم القائم على تنزيه الله وتقديسه، والمستخرج من القرآن والمبني على عُمُده، أم أنها أضاف إليه تصورات بشرية؟

توحيد أم وحدانية؟

يعد السلفيون "توحيد" الله محور الإيمان، والذي باستقامته يستقيم حال الفرد والأمة، لذلك حملت مساجدهم هذا الاسم "مسجد التوحيد"، كما يسمون كثيرا من أنشطتهم التجارية ب: "التوحيد" كذلك، ويقولون أن الإسلام دين التوحيد والمسلمون هم الموحدون. والسؤال هنا: هل هذه التسمية سليمة؟ هل جاء الإسلام ليوحد الله؟!

إن الله العظيم لم يكن أزلاً أكثر من واحد حتى نوحده، والتوحيد لا يكون إلا لمتفرق أو متعدد، فيُجمع على أمر واحد، وبهذا يكون موحَدا، والله تعالى أمرنا في كتابه ب: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص ,١-٤]، وقولنا أن الله أحد لا يعني أننا وحدناه، وإنما هو إقرار بحقيقة واقعة، وذلك مثل الذي يقول: "مصر دولة واحدة"، فلا يعني قوله هذه الجملة أنه "وحّد مصر"، وإنما يُسمى "الموحِد" من جعلها دولة واحدة مثل مينا موحد القطرين! ومن ثم فنحن لم نوحد الله سبحانه فهو أزلاً وأبداً أحد، ولهذا لم يستعمل القرآن الصيغة الفعلية "وحّد" قط، وكذلك لم يستعمل الصيغة الاسمية نفسها "توحيد"، وإنما أخبر أن الله واحد وأحد. ومن ثم فدور المسلم في العملية الإيمانية هو: "الإفراد" وليس "التوحيد"، ولو شئنا الدقة، لقلنا أننا: "مفردون" لأننا أفردنا الله سبحانه بالعبادة، بينما أشرك به غيره، فالمسلمون "مفردون" وليسوا موحدين، والدين دين "الوحدانية"، لأنها سمة قائمة في الإله الرب الخالق، وليس للعباد يد في إثباتها أو نفيها.

قد يتساءل القارئ: أليس للسلفيين مستندٌ في القول بمصطلح "التوحيد"؟! نقول: مستندهم في ذلك روايتان، الأولى: ما رواه البخاري في صحيحه: "عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نحوِ أَهْلِ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: "إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ ...[132]"

والثانية ما رواه مسلم: "عن ابن عمر رضي الله عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسَةٍ: عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَصِيَامِ رَمَضَانَ وَالْحَجِّ[133]"

---

(132) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء التاسع، ص. 114.

(133) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الأول، ص. 45.

وهذه الروايات التي ذكرت "أن يوحد–وا– الله" غير دقيقة، لمخالفتها الروايات الكثيرة التي ذكرت الشهادة وهي الأكثر، فنجد مثلا أن البخاري يروي كذلك في صحيحه: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ...(134)"

وكذلك يروي الإمام مسلم: "أَنَّ مُعَاذًا قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ ...(135)"

ويروي أبو داود: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ...(136)"

وكذلك يروي النسائي في سننه، وابن ماجة في سننه، وكذلك أحمد في مسنده، ومن المعلوم أن النبي الكريم وصّى معاذاً مرة واحدة بألفاظٍ واحدة، ومن غير المعقول أنه أعاد عليه الوصية بكل هذه الألفاظ المختلفة في الروايات، وما الاختلاف فيها إلا اختلاف رواة في الحفظ، ومن ثم نتساءل: أيهما قال النبي، هل ذكر ذلك المصطلح ذا المدلول المنحرف، أم تحدث عن الشهادة؟ الراجح أن النبي تحدث عن شهادة أن لا إله إلا الله فحوّلها الرواة مع ظهور المصطلحات العقائدية إلى "أن يوحدوا"! وهو استعمال غير صحيح!

لذا فعلى الإخوة السلفيين أن يعدلوا أسماء مساجدهم و"حوانيتهم" إلى "الوحدانية" وأن يتركوا هذا المصطلح غير الدقيق في الحديث عن الله.

---

(134) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء الثاني، ص.128–129.

(135) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الأول، ص.50.

(136) سليمان بن الأشعث الأزدي، سنن أبي داود، الجزء الأول، ص.498.

هل لله صفات؟

سؤال سيستغربه القارئ لا محالة، وسيرد بأن نعم، له أسماء حسنى وصفات عُلا -كما لُقن-. ويعد السلفيون: "توحيد الأسماء والصفات" من أصول العقيدة، والسؤال هنا: من قال أن لله صفات؟ إن الله سبحانه لم يقل أن له صفات، وكذلك نبيه ولم يرد عن الصحابة أنهم قالوا أن لله صفات، فكيف أُضيف هذا "الوصف" الخطير في حق الله العظيم؟!

"قد يظن القارئ أن الأمر يسير، ولكن للأسف هذا هو أول سلك الانحراف، استعمال كلمات لم يستعملها الله عز وجل ثم التقاتل والتناحر حول مدلول هذه الكلمات وما يقصده كل فريق باستعماله هذه الكلمات. لذا ألا يحق لي أن أصف من قال بأن لله صفات مثل اليد والجنب والوجه بالابتداع، لأن الله عز وجل ورسوله المعظم لم يذكرا كلمة "صفات الله" ولكن كان كل حديثهما عن أسماء؟!!

ولست أدري حقا كيف جُعل الوجه واليد والعين والجنب صفات؟! (...) أسماء المعاني الجامدة: الجنس والعلم والمصادر بأنواعها فلا تصلح لتكون صفات إلا إذا أمكن فهمها بالمشتق، فلا يمكن أن أقول أن لفلان صفة الوجه، إلا إذا كانت بمعنى المقدّم والعظيم في القوم! أما أن أقول أن لفلان صفة الوجه وأعنى بذلك العضو من الجسم فهو مرفوض وغير معقول في كل لغات العالم، فمن المعروف أنه لا يمكن أن يُطلق على أسماء المعاني (المصادر) أنها صفات. لأن الصفات محصورة بالمشتقات فلا يجوز في اللسان العربي أنْ يقال : "هذا الرجل قوة"، ولكن يقال: "هذا الرجل قوي". سيقول القارئ: قد يكون فهمك ورأيك سليما ومقبولا في مسائل مثل الوجه واليد والجنب والعين والتي لا تصلح أساسا أن تكون صفات، ولكن ما المشكلة في أن أقول أن الله تعالى "مريدا"، ألا يُفهم ذلك عندما أقرأ بعض الآيات في كتاب الله مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة يس ,٨٢]!

ونرد على هذا السؤال بنفس الإجابة السابقة: الله عندما تكلم عن نفسه ذكر أن له أسماءً حسنى ولم يذكر أن له صفات حسنى، فإذا كان يريد أن يعبر عن نفسه ويوضح لنا أنه "مريد" لقال ذلك. ولكنه ذكر فعل "الإرادة" بالصيغة الفعلية، فكيف يصير وصف الفعل وصفا للذات ؟! ألم تر أن الله قال عن نفسه أنه "سميع بصير، لطيف خبير، علي كبير ... الخ الأسماء الحسنى؟ فلم لم يقل أنه مريد قدير مثلا؟! نعم، من أراد من البشر أو من المخلوقات عامة شيئا فهو حتما مريد ولكنه يكون مريدا فقط عندما يريد فلا يظل طيلة عمره مريدا![137]" اهـ

ومن ثم فنحن نثبت لله ما أثبته لنفسه، فهو أثبت لنفسه الأسماء الحسنى مثل السميع البصير اللطيف الخبير ... الخ، وأثبت لنفسه أفعالاً فنثبتها له أفعالاً ولا نحولها لصفة كما فعلوا، فإنه من غير المنطقي أن أصف إنساناً قال أنه تصفح كتاباً ب: المتصفح، وكذلك من غير المقبول أن أقول أن لله صفة الاستواء وأنه مستوٍ على العرش لأنه قال أنه استوى على العرش، وإنما نثبتها له أفعالاً كما أثبتها لنفسه، فنقول أنه استوى على العرش.

وحتى لا يرى القارئ أن هذا مجرد اختلاف لفظي نقول: ليست الإشكالية بالدرجة الأولى في الفعلية والاسمية وإنما في معنى كلمة "الصفة"، ف: الصفة كلمة حُوّر معناها حتى أصبحت مرادفة وبديلة لكلمة: النعت، والتي هُمشت لمصلحة: الصفة، وبهذا المعنى استعملها العوام، ثم جاء أصحاب الحديث فاستعملوها دالةً على الله، ونحن نرفضها لأن معناها الذي استعمله القرآن لا يليق بجلال الله العلي العظيم.

فالناظر في القرآن يجد أنه لم يستعمل "وصف" ولا مشتقاتها مرة واحدة بمعنى النعت، وإنما استعملها في كل المواطن بمعنى: الحكم أو القول الزائف والمختلق. وهو ما لا يمكن نسبته إلى الله بداهة! وننظر في مواطنها في القرآن لننظر كيف استعملها: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن

[137] عمرو الشاعر، عقائد الإسلاميين، ص50–51.

يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾] سورة الأنعام, ١٣٩]، فهل حُكم المشركين بحصر ناتج الأنعام على الذكور واشتراك الإناث معهم فيه إذا كان ميتة هو من باب "الوصف" في عرفنا؟! إن الوصف تبعاً لاستعمالنا اللغوي الخاطئ أن يقول المشركون: هذه ناقة حمراء سمينة ذات آذان مشقوقة ... الخ، إلا أن الله تعالى اعتبر هذا الحكم والادعاء وصفاً، فأينا أدق استعمالاً للغة: نحن أم الله؟

وننظر في باقي الآيات حتى يتأكد لنا أن الوصف ليس بمعنى النعت هو المطرد فيها وليس أمراً مقصوراً على هذه الآية: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾] سورة الأنعام, ١٠٠]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾] سورة المؤمنون, ٩١]، فهل هذا الجعل "نعت"، فكانوا يصفون شيئاً يرونه أم أنه افتراء واختلاق؟

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾]سورة الأنبياء, ٢٢]، فهل قول المشركين بوجود آلهة أخرى عملية وصف لمشاهد أم أنه افتراء واختلاق ودعوى كاذبة. وعندما قال الله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾] سورة الصّافّات, ١٨٠]، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾] سورة المؤمنون, ٩٦]، هل كان يتحدث عن مشركين ينعتون أشياءً أم يفترون كذبا؟

وكذلك عندما قال يعقوب وابنه يوسف في سورة يوسف لإخوته: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾] سورة يوسف, ١٨]، ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾] سورة

يوسف ,٧٧]، هل مجيئهم بدم كذب نعت؟ وهل قولهم بأن أخ لهم سرق في الماضي من باب النعت؟

كما أن الله قرنه بالباطل وجعله مضاداً للحق: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [سورة الأنبياء ,١٨]، ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾ [سورة الأنبياء ,١١٢].

كما أن الله قرنه بالكذب: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ۝٦٢﴾ [سورة النحل ,٦٢]، ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝١١٦﴾ [سورة النحل ,١١٦].

والإنسان لا ينعت الكذب، وإنما يفتريه ويختلقه، وهذا ما نقول به من أن الوصف هو حكم أو قول مفترى ومختلق، ومن ثم لا يمكننا أن نقبل بحالٍ أن لله صفات، فقولنا يعني: ما هي النعوت الكاذبة والمختلقة في حق الله؟! فصفات الله هي أن له ولد وأن له شريك ... وهذا ما رفضه القرآن ويرفضه كل مسلم، ومن ثم فعلينا أن نحاول قدر الإمكان إعادة استعمال كلمة "نعت" وتهميش كلمة "صفة" واستعمالها بمدلولها القرآني.

وتبعاً لهذا المدلول القرآني يمكننا الحكم على الرواية الواردة في البخاري، عن: "مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَدَّثَهُ عَنْ أُمِّهِ عَمْرَةَ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ فَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ: سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ فَعَلَ ذَلِكَ فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّهُ.[138]"

---

[138] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء التاسع، ص.115.

يمكننا الحكم عليها بأنها شاذة، وأن الراوي عدّل فيها كلمة "سمة أو: نعت" إلى: "صفة"، كما تصرّف الرواة في بعض الروايات الأخرى، فالذي يظهر لنا أن كلمة "نعت" كانت هي المستعملة في البادية –حيث كان النبي والصحابة– بينما انتشرت كلمة: صفة، لسبب من الأسباب في الحضر، فكان الرواة يحولون: نعت إلى وصف، ونجد هذا صراحة في رواية في مسند أحمد: "حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَنْمٍ: "... ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ أَقْبَلَ إِلَى النَّاسِ بِوَجْهِهِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَاعْقِلُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنْ اللَّهِ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَعْرَابِ مِنْ قَاصِيَةِ النَّاسِ وَأَلْوَى بِيَدِهِ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ نَاسٌ مِنْ النَّاسِ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنْ اللَّهِ انْعَتْهُمْ لَنَا –يَعْنِي: صِفْهُمْ لَنَا– فَسُرَّ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِسُؤَالِ الْأَعْرَابِيِّ ....[139]"

فهنا أراد الراوي أن يوضح الكلمة فقال: يعني صفهم، بينما ذكرها الراوي في مسند عبد الله بن المبارك كمرادف بدون أن يوضح أنها توضيح، فقال: "... فقال: يا نبي الله، من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على مجالسهم، وقربهم من الله؟ انعتهم لنا، صفهم لنا، فسر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لسؤال الأعرابي ...[140]"

فالواضح أنه كان هناك عملية إزاحة لمفردة "نعت" لمصلحة "وصف"، ولهذا وجدنا بعض الروايات تستعمل "وصف"، ونجدها عند آخر ب: "نعت"، فنجد البخاري مثلاً يروي "عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَصِفُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَانَ رَبْعَةً مِنْ الْقَوْمِ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ ...[141]"

---

[139] أحمد بن حنبل، المسند، الجزء الخامس، ص.343.

[140] عبد الله بن المبارك، مسند بن المبارك، ص.6.

[141] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء الرابع، ص. 187.

بينما نجد أحمد يروي في مسنده: "قَالَ حَدَّثَنِي رَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَنْعَتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا شَاءَ أَنْ يَنْعَتَهُ قَالَ ثُمَّ سَمِعْتُ أَنَسًا يَقُولُ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبْعَةً مِنْ الْقَوْمِ لَيْسَ بِالْقَصِيرِ وَلَا بِالطَّوِيلِ ...[142]"

ومن ثم يمكننا القول –تبعاً للاستعمال القرآني المطرد– ولهذه الروايات أن استعمال "الصفات" في حق الله غير صحيح، وأن الصحيح هو الإقرار بأن له أسماء حسنى وأن له أفعال، فلا نزيد من عند أنفسنا. فهل سيقر السلفيون بأن "الصفات" بدعة، أم سيُعرضون عن كل استعمال القرآن ويتمسكون برواية البخاري، التي مدارها على امرأة "عمرة"؟!

يبدو أنهم سيتمسكون بها من باب تكريم المرأة!!!

الولاء والبراء

تعد عقيدة الولاء والبراء، والتي قد تكون غير معلومة أصلاً أو غير متصورة عند كثير من العوام، أخطر العقائد السلفية، فهي الدافع الأول للموقف العدائي الذي يتخذه السلف من الغير، والذي قد يكون مسلماً! لما لها من ثقل كبير ومركز متقدم بين العقائد، حتى أنها عندهم "تكاد تكون القضية الإيمانية الأولى في واقعنا اليوم"، فماذا تعني هذه العقيدة؟

للولاء والبراء تعريفات عديدة، وباختصار فإن عقيدة الولاء تعني حب الله ورسوله والصحابة والمؤمنين أصحاب العقيدة السليمة ونصرتهم، والبراء يعني بغض المشركين والكافرين والمنافقين والمبتدعين والفساق وقطع الصلة بهم. وأن يأمر دينٌ بالحب فهذا مقبول مستساغ أما أن يأمر دين بكره أشخاص –وليس عقيدة وفكر– فهذا

[142] أحمد بن حنبل، المسند، الجزء الثالث، ص. 240.

عجيب، فهل أمرنا ديننا بأن نكره غير المسلمين؟!

الناظر يجد أن السلفيين يستدلون على هذه العقيدة بآيات كثيرة من كتاب الله تنهى عن موالاة الكافرين واليهود والنصارى والمشركين وتأمر بموالاة المسلمين، وبآيات تتحدث عن البراءة من الشرك والإجرام وأخرى تتحدث عن البراءة من المشركين، والسؤال هنا: ماذا يعنيه الولاء والبراء أصلاً؟

إن الولاء يدل أصلاً على القرب والنصرة والبراء على البعد والمجافاة، ومن ثم فإن ديننا يأمرنا بنصرة إخواننا وبمجافاة المحاربين المحادين لديننا، فكيف أُدخل الحب والكره في معنى الولاء والبراء؟! لقد جعلوا الدين آمراً بالكره وبالبغض لأنهم رأوا أن أصل الموالاة هي المحبة، كما أنّ أصل المعاداة البغض، فإن التّحابّ يوجب التقارب والاتفاق، والتباغض يوجب التباعد والاختلاف.

وليس الأمر كذلك، فإن الموالاة هي المناصرة وُجد الحب أم لم يوجد، بل هي غالباً ما تكون قائمة على اتفاق الغايات أو المصلحة الفردية أو العامة، وعامة اتفاقيات النصرة والموالاة قائمة على النفع المادي وتقوية الذات وتأمينها بغض النظر عن الحب أو الاتفاق في العقيدة فكم من أعداء أصبحوا أولياء لدفع ضر أكبر! وهذا ما فعلته المملكة العربية السعودية حاضنة المذهب الوهابي نفسها، عندما استعانت بالقوات الأجنبية لصد قوات صدام حسين، -وهذا يخالف قاعدتهم في الولاء والبراء، إلا أنهم وجدوا من التخريجات الفقهية ما مكّنهم من استصدار فتوى من هيئة كبار العلماء بجواز ذلك![143]- فهذه الموالاة لم تقم على حب وإنما على دفع ضر، ولقد حدثت هذه الموالاة من بعض المسلمين في عهد النبي، فحالفوا غير المسلمين فنهوا عن التحالف والنصرة ولم يعرض القرآن للحب أو الكره، لأن هذه مشاعر قلبية لا يمكن التحكم فيها كما روي عن النبي: "اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك"، ولن تتحقق إلا بعملية شحن متواصلة تجاه الطرف الآخر، وهذا ما لم يأت

[143] بينما لم يروا تخريجاً فقهياً مقبولاً للبس رابطة العنق ولا للملابس الرياضية ولا للزي الموحد للجنود في الجيش، لأنه تشبه بالكفار!

دين الله من أجله.

والبراء كذلك قائم على القطع لأي سبب كان، للمصلحة أو للضر أو لرفض الفعل وعدم المسئولية عنه، ومن ثم فإن جعل الولاء والبراء قائم على الحب والكره مخالف للواقع وتحكُّم لا دليل عليه.

وتكمن خطورة هذه العقيدة المقحمة على الدين في نظرتهم إلى الناس وتقسيمهم لهم، والحث على بغض بعضهم، فيُعرف محمد بن سعيد القحطاني بأصناف الناس من منظورهم، فيقول: "ولمّا كان الولاء والبراء مبنيين على قاعدة الحب والبغض كما أسلفنا فيما سبق فإن الناس في نظر أهل السنة والجماعة – بحسب الحب والبغض والولاء والبراء – ثلاثة أصناف:

الأول: من يحَب جملة. وهو من آمن بالله ورسوله، وقام بوظائف الإسلام ومبانيه العظام علماً وعملاً واعتقاداً. وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله، وانقاد لأوامره وانتهى عما نهى الله عنه، وأحب في الله، ووالى في الله وأبغض في الله، وعادى في الله، وقدم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم على قول كل أحد كائناً من كان.

الثاني: من يحَب من وجه ويبغَض من وجه، فهو المسلم الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فيحَب ويوالى على قدر ما معه من الخير، ويبغض ويعادى على قدر ما معه من الشر ومن لم يتسع قلبه لهذا كان ما يفسد أكثر مما يصلح.. وإذا أردت الدليل على ذلك فهذا عبد الله بن حمار، وهو رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم – كان يشرب الخمر، فأتي به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله"، مع أنه صلى الله عليه وسلم لعن الخمر وشاربها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه.

الثالث: من يبغَض جملة وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولم يؤمن بالقدر خيره وشره، وأنه كله بقضاء الله وقدره وأنكر البعث بعد الموت، وترك

أحد أركان الإسلام الخمسة، أو أشرك بالله في عبادته أحداً من الأنبياء والأولياء والصالحين، وصرف لهم نوعاً من أنواع العبادة كالحب والدعاء، والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة، والذبح والنذر والإبانة والذل والخضوع والخشية والرغبة والرهبة والتعلق، أو ألحد في أسمائه وصفاته واتبع غير سبيل المؤمنين، وانتحل ما كان عليه أهل البدع والأهواء المضلة، وكذلك كل من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها[144]" اهـ

وهكذا أصبح من الواجب على المؤمن أن يبغض المبتدع الضال والكافر والمشرك، بدلاً من أن يدعوا لهم بالهداية أو يحرص على إيمانهم، وهكذا يكره المسلمون بعضهم بعضاً ويصبح حالنا مثل حال النصارى –واليهود–، الذين قال الله في حقهم: " ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ... ١٤﴾ [سورة المائدة, ١٤]، وهكذا تتمزق الأمة ولا تكون كالجسد الواحد الذي يتداعى سائره لمساندة أحد أعضاءه! وبسبب هذه العقيدة ظهرت التيارات الجهادية التي استباحت غير المسلمين بل وبعض طوائف من المسلمين الضالين المبتدعين –تبعاً لوجهة نظرهم–، فإذا كان الدين يأمرني بكرههم وبغضهم، ويعمل سدنة هذا السواد على ملأ قلبي ببغض الضالين المخالفين للدين الذين هم أشد ضررا وخطراً عليه من كذا وكذا، فلماذا لا تهون حرمة دماء المخالفين في عيني، فأذبحهم كالخراف؟!

لست أدري كيف تتفق هذه العقيدة مع قول الرب العليم في حق النبي الرحيم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾ [سورة فاطر, ٨]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [سورة الكهف, ٦]، ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [سورة الشعراء, ٣]، فهل هذا القلب

---

[144] محمد بن سعيد القحطاني، الولاء والبراء في الإسلام، ص. 138–139.

الذي يتقطع أسىً وحسرة على عدم إيمان هؤلاء هو قلب يبغضهم؟ أم أنه قلب يفيض بالرحمة ويريد للناس الهداية والنجاة والخير؟!

فإن قيل إن هذا البغض يكون بعد إقامة الحجة ورفض المخالف للإيمان والاستمرار على الكفر والبدعة. نقول: وهل أقمنا الحجة على كل غير المسلمين وأعلمناهم بما في ديننا تفصيلاً، أم أنه لا يزال هناك الكثيرون لا يعلمون عن الإسلام سوى أنه دين الإرهابيين أو أن أتباعه يعبدون محمدا؟! إن الذي يجب علينا أن نحمله في قلوبنا تجاه غيرنا هو الأسى والحسرة عليهم، ومن ثم نسعى لدعوتهم وهدايتهم وليس البغض فنسعى لمجافاتهم.

وحتى لو افترضنا إقامة الحجة عليهم فإن هذا لا يعني أن نكرههم فإن النبي الكريم قد أقام الحجة –أكثر مني ومن أي سلفي– على معاصريه حتماً، وعلى الرغم من ذلك لم يكرههم وإنما كان حريصاً على هدايتهم ويحزن على من يموت منهم بدون أن يدخل في الإسلام، ويرى أنها نفسٌ تفلتت إلى النار، فهل هذا قلب كاره؟!

وحتى لا يكون الأمر من باب عرض أدلة مضادة، نعرض لأدلتهم التي يستدلون بها من القرآن فنقول: هناك قسم كبير من الآيات التي يستدلون بها متعلقة بالمنهج نفسه، أي بالشرك وبآلهته، مثل: ﴿... قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝١٩﴾ [سورة الأنعام, ١٩]، ﴿... فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨﴾ [سورة الأنعام, ٧٨]، ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾ [سورة الشعراء, ٧٥-٧٧]، وهذه لا إشكال فيها، فأي مسلم يتبرأ من الشرك وآلهته ولا يمكن أن يحب إله يُعبد من دون الله.

واللبس في القسم الآخر من الآيات، والذي يذكر عدم موالاة المشركين، مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [سورة المائدة, ٥١]،

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ... ۝٣﴾ [سورة التوبة, ٣]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝١١٨﴾ [سورة آل عمران, ١١٨]، ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨﴾ [سورة آل عمران, ٢٨]

وهذه الآيات لا إشكال فيها، فبغض النظر عن ورودها في سياقٍ خاص، فإنها لا تزيد عن نهي المؤمن عن مناصرة غير المسلمين وإقامة تحالفات معهم أو مناصرتهم ضد المسلمين، وليس فيها أي دليلٍ على البغض.

إلا أنهم يحملون هذه الآيات على آيات أخرى ذكرت البغض صراحة والنهي عن المودة، ويرون أن هذه مثل تلك، وعمدة هذه الآيات هي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾ [سورة الممتحنة, ١] ... و﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ... ۝٤﴾ [سورة الممتحنة, ٤]

فيقولون أن الله نهى عن مودة المشركين وقال أن لنا أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه، الذين تبرءوا من قومهم وأعلنوا لهم البغضاء، ومن ثم فينبغي علينا أن نقتدي بهم، فنكره المشركين حتى يؤمنوا. فنقول: هذا بيت القصيد، فالله سبحانه وتعالى لم ينه عن

مودة كل المشركين وإنما عن مودة أعدائه وأعداء المؤمنين، الذين يحاربون الدين والمسلمين، الذين أخرجوا الرسول[145] والمؤمنين من مكة، فهؤلاء يجب ألا يتولاهم المؤمنون؟! ونحن نقر أنه يحرم على المؤمنين موالاة المحاربين لهم في الدين، –وبداهةً لن يتولى إنسانٌ آخرَ يحاربه دون أرضه– فالموقف الطبيعي هو الكره والبغض، وهذا لا يُحتاج لأن يؤمر به، والله سبحانه يقول للمؤمنين الذين تولى بعضهم عدوهم المحارب بسبب القرابة والرحم أن هذا لن ينفعهم في الآخرة، وأن لهم القدوة الحسنة في إبراهيم والذين معه– ومن ثم فالمنطقي لكي يكون الخليل أسوة أنه ومن معه كانوا في نفس الموقف، أي أنهم كانوا في موقف عداء من المشركين وكان بينهم صلة قرابة، فلم يمنع هذا الخليلَ الأمة ومن معه أن يعلنوا لهم البغضاء بسبب قتالهم في الدين على الرغم من وجود صلة قرابة.

إذا فليس البغض وترك المودة لكل مشرك وإنما هو للمحارب المعادي، وهو الموقف الطبيعي لأي إنسان، ويؤكد على أن الفيصل في البغض هو القتال والمحاربة قول الله في نفس السورة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [سورة الممتحنة, ٨-٩]

فيمكن للمسلم أن يبرَّ غير المسلمين ويُقسط إليهم طالما أنهم لا يحاربوه في دينه أو دون أرضه أو يظاهروا غيرهم على إيذاء المسلمين. وهذه الآيات لم تخف على القائلين بالولاء والبراء إلا أنهم فسروها تفسيرات عجيبة، مثل أن المعني بها: الذين كانوا آمنوا بمكة ولم يهاجروا فأذن الله للمؤمنين ببرهم والإحسان إليهم! أو أراحوا

---

[145] لم يخرج الرسول الكريم من مكة هاربا فاراً من المشركين، كما ادعت الرواية الضعيفة عند ابن إسحاق، ولم يكن ثمة بحثٌ عنه ولا مكافأة لمن يجده ولا شيء من هذا القبيل، وإنما أُخرج الرسول من مكة –كما أُخرج بعض الأنبياء قبله، مثل لوط الذي كان قومه يريدون إخراجه–، كما صرحت الآيات في أكثر من موطن، ويمكن للقارئ الكريم الرجوع إلى بحثنا حول هذا الموضوع: هجرة أم إخراج على صفحات موقعنا الشخصي: www.amrallah.com

أنفسهم وادعوا أنها منسوخة مرفوعة الحكم!!

والعجب كل العجب أنهم يقولون بِكُره غير المسلم ويُجيزون الزواج من نساء أهل الكتاب، ولست أدري كيف يتزوج المرء من يجب عليه كرهه؟ –ونحن نقول بالحرص على الغير ونرى أن الزواج يكون بالمؤمنة فقط!–

إن هذه العقيدة أظهرت أتباع الدين الإسلامي بمظهر المستغلين المتعالين، الذين لا يحملون الخير للناس، وإنما يأخذون منهم ما ينفعهم من العلوم الطبيعية، مثل علوم الكيمياء والفيزياء والفلك والطب والصناعة والزراعة والأعمال الإدارية وغير ذلك بينما يحملون في نفوسهم البغض لهم، كما أنها تقضي على مبدأ المواطنة بداخل الدولة، فإذا كان لا يمكنني أن أحب –بل يجب علي أن أبغض– ابن بلدي وإذا قابلته لا أحيه ولا أسلم عليه[146]، فإن هذه الدولة لن تقوم لها قائمة! كما أنها تفتت الأمة نفسها عندما يبغض ويعادي المسلمون بعضهم بعضاً، لأنهم يرون إخوانهم مبتدعين ضالين!

ونختم بقولنا: ثمة فارقٌ بين العقيدة وبين الفرد، فقد يبغض الإنسان العقيدة ويتقبل الفرد، كما يبغض المرء السياسة الأمريكية، فهذا ليس مبرراً لأن أبغض الأمريكيين كأفراد، وكذلك الكفر، فالمسلم لا يتقبله كعقيدة، ولكن إذا كان حامله لا يسيء إلينا ولا يعادينا فمن الممكن أن أتقبله كفردٍ في المجتمع الإنساني، فالأخوة الإنسانية قائمة بين البشر، والله سمّى الأنبياء إخوانا لأقوامهم من المشركين، فقال:

---

[146] عرضنا لمسألة "حكم إلقاء السلام على غير المسلمين" في بحث مطول على صفحات موقعنا الشخصي، بيّنا فيه أنه من المباحات التي يجوز للمسلم فعلها، وبيّنا كيف أن الأنبياء كانوا يسلمون على غير المؤمنين، وأن النبي كان يسلم على المشركين، مثل ما رواه رواه الإمام البخاري –ومسلم– في صحيحه: "أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عليه إكاف تحته قطيفة فدكية وأردف وراءه أسامة وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج وذاك قبل وقعة بدر حتى مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود فيهم عبد الله بن أبي وفي المجلس عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال لا تغبروا علينا فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن ..." اهـ، وأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يسلمون، وبيّنا أن الروايات التي ورد فيها النهي عن بدء اليهود والنصارى بالسلام أو الاكتفاء في الرد ب: "وعليكم" لها مناسباتها الخاصة التي لا يمكن تعميمها، وإلا عارضت الروايات الأخرى وآي القرآن.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ... ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الأعراف, ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ... ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الأعراف, ٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ... ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الأعراف, ٨٥]، فدين الله لا يدعو إلى البغض وإنما إلى النصح والحب، فديننا دين محبة.

والسؤال الحاسم في هذا الموضع: هل من الممكن أن يراجع السلفيون تصورهم للولاء والبراء، والذي يعدونه أصلاً من أصول عقيدتهم أم سيظلون على نفس النظرة والموقف من الآخر؟ لا أعتقد وإن كنت أرجو!

لتعارفوا أم لتقاتلوا؟

لا يقتصر الموقف السلفي السلبي من "الآخر" على الكره والبغض، والذي قد لن يقع ضره في كثير من الأحيان إلا على السلفيين أنفسِهم أو على الإسلام بالصد عنه، وإنما يتعداه إلى أمرٍ أشد خطورة، وهو: نظرة السلفيين إلى طبيعة العلاقة مع المجتمعات الإسلامية، وهل هي علاقة سِلم أم علاقة حرب؟!

اعتمد السلفيون الرأي القائل بأن العالم ينقسم إلى: "دار كُفر" و: "دار إسلام" (ودار الإسلام نفسها تنقسم إلى: أهل السنة والجماعة، وكل ما عداهم فمبتدعة ضالون!!)، وعلاقة المسلمين بدار الكفر هي إحدى اثنتين:

1- "دار حرب"، والتي لا يُشترط وجود حرب فعلية لتسميتها بهذا الاسم، وإنما يكفي عدم وجود عهد صلح ومهادنة لينطبق عليها هذا الاسم!

2- "دار عهد"، وهي التي بينها وبين دار الإسلام مهادنة وموادعة وصلح.

وقد يرى البعض أن هذا أمرٌ جيد، فإذا كنا قد عاهدنا وسالمنا بعض الدول فلماذا لا تكون علاقتنا بكلها قائمة على المسالمة؟ نقول: الإشكالية في التصور السلفي الذي

يرى أن العلاقة بالآخر قائمة على الحرب لأنه لا تجوز موادعة الكفار، وأن مسالمتهم هي "صلح مؤقت" راجع إلى مصلحة المسلمين، لأن بهم ضعف أو ما يمنع من القتال، فإذا زال هذا العذر قاتلوا، وفي هذا يقول الشيخ ياسر برهامي في كتابه: "فقه الجهاد": "وقال النبي صلي الله عليه وسلم:"أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله[147]" [متفق عليه].

وهذه المرحلة الأخيرة هي التي استقر عليها الأمر في معاملة المسلمين للكفار من جميع الأجناس، أهل الكتاب وغيرهم. وقال أكثر السلف بنسخ آيات الموادعة والصفح والعفو، ولا يختلف العلماء من المذاهب الأربعة وغيرهم على أنه يلزم المسلمين عند القدرة ابتداء الكفار بالقتال ولو لم يقاتلوا المسلمين، وهذا جهاد الطلب مع لوازم جهاد الدفع بالإجماع." اهـ

وليس هذا القول بالمجمع عليه فترى بعض المذاهب الإسلامية أن العلاقة قائمة على السلم! وهو ما قال به من السلف سفيان الثوري وسحنون ونُسب إلى ابن عمر، وغيرهم.

وتقسيم العالم إلى دار حرب ودار إسلام ليس قسمة قرآنية ولا نبوية، "بل هِيَ تقسيم فقهيٌّ يمثّل الواقع في المعمورة في زمن معيَّن جاء به الإمام مُحَمَّد بن الْحَسَن الشيباني (ت: 189) وهو يحاول أن يبيّن لهارون الرشيد (ت: 193) رحمهما الله، مواقف الدول المعاصرة لدولة المسلمين –آنذاك– والمواقف التي ينبغي لدولة المسلمين أن تقِفها بناءً على مواقف تلك الدول من دولة المسلمين. فقام بقسمتها وفقًا لذلك التصور، ليقدم للخليفة برنامجًا لرسم سياسات في مجال العلاقات الدوليَّة يتبيّن الخليفة من خلال ذلك التصوّر الدول المعادية، والدول التي يمكن أن تكون صديقة وأيّ البلدان يمكن أن يأمن جانبها، وما البلدان التي لا يستطيع أن يأمن جانبها.

[147] عرضنا لهذا الحديث في كتابنا: "القرآنيون مصلحون أم هادمون"، وبيّنا سبب وروده وأن المقصود من "الناس" في الحديث ليس كل البشرية، وإنما هم مشركو العرب المحاربون للإسلام والناقضون للعهود.

ومع ذلك فإنَّ كثيرًا من أئمتنا قد انتقدوا هذا التقسيم، فالقفال الشاشي رحمه الله وكثير من العلماء الذين جاءوا بعده، قدّموا بدائل عن هذه القسمة لإدراكهم أنّها قسمة آنيَّة لاحظت واقعًا معيّنا فإذا أعطيت صفة الإطلاق تصبح متعارضة، بل مناقضة لموجّهات القرآن الكريم حول الأرض، ولتوجيهات رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– في النظر إليها، ولذلك قالوا: لا ينبغي أن تقسم الأرض إلى «دار حرب ودار إسلام ودار عهد» وهو مَا أضافه الإمام الشافعيّ فيما بعد؛ بل يقال: «دار إجابة ودار دعوة»، فدار الإجابة هِيَ الدار التي يسكنها المسلمون أخذًا من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾] سورة آل عمران ,١٧٢[، فتسمَّى دار إجابة، وهذا تعبير دقيق وصحيح ليس فيه اعتداء على أحد، وهو غير محمّل بتحيُّزات معادية أو تحريضيَّة وليس فيه تقليل من أهميّة أحد آخر، وأمّا الدار الأخرى التي كان يسميها الشيبانيُّ «بدار الحرب» فقالوا ينبغي أن يطلق عليها «دار دعوة»، لأنَّ مسئوليَّة المسلمين أن يُوصلوا هذا النور والخير الَّذِي فيه إليها ويشركوها بنعمة القرآن والإيمان. فالأرض إذن داران: «دار دعوة، ودار إجابة»، وقال الشاشيّ: لا ينبغي أن يقال «أمَّة حرب»، فالأمّة المسلمة يقال لها: «أمة إجابة» لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾] سورة آل عمران ,١٧٢[، و«أمّة دعوة» للذين لا يزالون على غير الإسلام، وهم أهل لأنَّ يوصل الإسلام إليهم.[148]" اهـ

ومن ثم يحق لنا أن نتساءل بتخوف شديد: هل ستكون السياسة السلفية قائمة على هذا الرأي العدواني، بمعنى أنهم سيعملون على زيادة قوة وقدرة البلاد إلى أن تسنح لهم الفرصة للهجوم على البلاد الأخرى فيبدءون بالهجوم عليها، أم أن هذه النقطة ستكون مما سيُضطرون اضطراراً إلى إعادة بحثه مرة أخرى، ومن ثم يغيروا موقفهم إلى ما لا يُعادي المجتمع الدولي؟

[148] من مقال للدكتور طه جابر العلواني، بعنوان: الإسلاميون بين الدعوة والدولة، على موقع:
http://www.fikrweb.net/news52.html

نأمل أن يغيروا منظورهم إليها مما لا يُسبب مشاكل للبشر ولا للإسلام.

إن هذه الآراء القائلة بأن الإسلام سيفٌ مسلط على كل البشر من غير أتباعه، فيستبيحونهم متى تيسرت الفرصة ليغتنموهم[149]، لا يمكن أن تُبشر بدين سلام ولا تعطي صورة حسنة عنه لأتباع الأديان الأخرى للدخول فيه، وإنما يرونه دين حرب وإرهاب، وما ظهرت هذه الأقوال وانتشرت إلا من أقوامٍ ما عرفوا كتاب الله ولا الغاية من جعل البشر شعوباً وقبائل على هذه البسيطة، وهي التعارف، فالله العليم قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحُجُرات, ١٣]

فبهذا التعارف سيقضي على كثير من الأسباب التي تؤدي إلى نشوب الحروب بين الشعوب، مما سيؤدي إلى هيمنة جو من السلام العالمي بين شعوب الأرض، ناهيك عن زيادة التقدم العلمي والإنتاجي والمعيشي للبشر كلهم، ونوضح فنقول: الإنسان منذ نشأته كجنس أو كفرد يسعى للاتصال بغيره والارتباط به، لأن الفرد يعلم أنه ضعيف بنفسه قوي بغيره، ولقد وُجدت بعض الروابط، مثل رباط الأسرة، والذي يجمع المنتسبين إلى أب واحد وأم واحدة، ثم تشعب الأمر فصار من ينتسبون إلى جد قديم .وبمرور الزمن ازدادت الروابط التي تربط الأفراد ببعضها، فنشأت روابط بين من يسكنون المنطقة الواحدة من الأرض، لمصالح مشتركة كثيرة.

وهكذا عمل الإنسان على زيادة هذه الروابط وتوسيعها، لما تُكسبه من قوة وأمان.

---

[149] يمكننا أن نفهم تصور السلفيين للبشر من غير المسلمين مما قال أبو إسحاق الحويني في أحد دروسه بالنص: "هو إحنا الفقر اللي احنا فيه إلا بسبب ترك الجهاد، مش كنا لو كنا سنة عمالين نغزو مرة ولا اتنين ولا تلاته مش كان حيسلم ناس كثيرون في الأرض واللي يرفض هذه الدعوة ويحول بيننا وبين دعوة الناس مش بنقاتله ونغزوه ونخدوا أموالهم وأولادهم ونساءهم وكل دي عبارة عن فلوس، كل واحد مجاهد كان بيرجع من الجهاد وهو جيبه مليان، ليه؟ معه اتنين تلاته اشحطه وتلات أربع نسوان وتلات أربع ولاد، اضرب كل راس في 600 درهم ولا 600 دينار ولا حاجة تطلع بمالية كويسة، لو هو راح علشان يعمل صفقة في بلاد الغرب عمره ما يعمل الأموال دي، وكل ما يتعذر ياخد راس يبيعها ويفك أزمته ويبقى له الغلبة، ومش كده بس، ده هؤلاء الذين صاروا أسرى منهم من سيسلم، يبقى هو أدخل أناساً آخرين في دين الله عز وجل، وظهرت كلمة الله عز وجل!" فهل هذا دين أتى ليخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد أم دين أتى ليستعبد الناس بحجة هدايتهم؟!!

ولأن الإنسان يحب التمايز في نفس الوقت، ولأنه عدو ما يجهل، عمل على إيجاد فواصل بينه وبين غيره من الشعوب والأفراد، الذين لا يشتركون معه في روابطه، فعمل على إضفاء صفات القوة والخيرية لمجتمعه، وإضفاء صفات سلبية على المجتمعات الأخرى، تبيح له استغلالهم وإيذائهم.

لذا لا يعني كون الإنسان من عائلة ما في قبيلة ما أو شعبٍ ما أن يكتفي بهذا الرباط، وإنما على البشر جميعا أن يعملوا على زيادة هذا الارتباط والاتصال لتتحقق الغاية النهائية وهي الأمة الإنسانية الواحدة! فإذا كان الله قد أعمل سننه لنصير شعوبا وقبائل، فإنه يهدينا إلى الطريق الأمثل لزيادة الارتباط والتوحد، والذي نصير به أمة واحدة وهو التعارف! فإذا عملنا على زيادة تعارفنا ببعضنا ألغينا الكثير والكثير من التصورات الخاطئة عن بعضنا بعضا، كما سيساعدنا هذا التعارف على أن يعرف كل شعب ما لدى الآخر بطريقة صحيحة، وبذلك يستطيع الشعب أن يتقبل ما لدى الآخر أو يرفضه!

إن الناظر في حال البشر يجد أن من أكبر أسباب سهولة الاعتداء على الطرف الآخر هو الجهل به وعدم التواصل معه، فالأوروبي يرمي القنابل والصواريخ على العربي والمسلم بسهولة لأنه يرى أن العربي أو المسلم إرهابي أو إنسان متخلف، أو إنسان رافض للحضارة، لذا قد يؤنبه ضميره بعد ذلك، ولكن ليس بنفس القدر الذي سيؤنبه إذا ألقاها على أوروبي مثله أو بعض أفراد شعبه!

واليهودي الذي يقتل الفلسطينيين فإنه يشعر أنه أعلى منهم، فهو من شعب الله المختار، وهؤلاء أدنى منه درجات، كما أنه يرى أنهم أعداء، عليه القضاء عليهم قبل أن يقضوا عليه، لذا لا يتحرج من الفتك بهم!

وليس الأمر مقتصرا على الغربيين فنجد كذلك أنه من السهل على العربي المسلم أن يقتل الأوربيين المسالمين، لأنهم في نظره مجموعة من الزناة الفسقة المنحلين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون! ولأنهم فعلوا به وبأجداده الكثير والكثير، لذا فلا

حرج في قتلهم، حتى تطهر الأرض منهم! بينما يكون الأمر جدَ عسير أن يقاتل العربيُ العربيَ والمسلمُ المسلمَ لوجود روابط كثيرة بينهم، مثل رابط اللغة والعرق والدين، تجعل الواحد فيهم يشعر أنه يقتل أخاه فعلا!

وقس الأمر على نفسك، فمن السهل أن تؤذي من لا تعرفه وليس بقريبك ولا صديقك، بينما من العسير أن تفعل الأمر مع من بينك وبينه عشرة، بغض النظر عن جنسه أو لونه أو لسانه أو دينه، لأن العشرة النابعة من التعارف تمنعك من ذلك، وما الشعب إلا إنسان كبير!

لذا إذا حدث تعارف حقيق سينشأ عنه إخاء وتقارب بين البشر، يعمل على ارتقاء الجنس الإنساني كله، ليتخطى الاكتفاء برابطة القبيلة أو الشعب، ليصل إلى مرحلة الأخوة الإنسانية الكاملة. إن كل أب حريصٌ كل الحرص على أن تكون هناك علاقات حميمة وتواصل قوي بين أبناءه، لأنهم في نهاية المطاف أخوة من أصل واحد، كما أن هذا يزيدهم قوة، كما أن هذا هو السلوك المفترض الطبيعي بين الأخوة، أن يكونوا متعارفين متحابين متعاضدين! والناس عيال الله في الأرض، وهو ربنا وأبونا –الذي في السماء، كما نُسب إلى سيدنا عيسى عليه السلام!– فمن المنطقي أن يأمرنا بالتواصل والتعارف!

ولا يعني هذا أننا نقول أن الناس بتعارفهم سيدخلون في الإسلام أو أكثرهم سيفعلون، ولا أننا نبشر بزوال الاختلافات الفكرية أو الثقافية أو الدينية بين المجتمعات، أو أن الخلاف بين الناس سيُرفع وينتهي! لا فالخلاف موجود وباق إلى يوم الدين، ولن يحدث يوماً أن يتحد البشر على كلمة واحدة! وإنما نقول:

بالتعارف سيُقضى على كثير من أسباب الخلاف وينشأ كثير من أسباب الوحدة والائتلاف، فالناس في رحلة تعارف ابتدأت بتعارف الجنس بالجنس الآخر: الذكر بالأنثى، وأصبح هذا التعارف بداية نشأة الأسرة، ثم ازدادت الروابط بين الأسر حتى أصبحوا قبائل وشعوب وأجناس وأعراق، وعليهم أن يزيدوا التعارف حتى يصبح البشر

كلهم أخوة في أمة، فلهذا خلقهم الله، وبهذا سيرى المسلم أن عليه دوره تجاه أخيه الإنسان هو هدايته وليس وضع السيف على رقبته.

اللوح المحفوظ

بعد أن عرضنا لعقائد سلفية متعلقة بالله تعالى ولأخرى ترتب عليها عمل –سيء–، نعرض هنا لعقيدة تتعلق بأحد الغيبيات، وهو: اللوح المحفوظ، لنبين كيف بنى أهل الحديث –أسلاف السلفيين– بعض العقائد على مستندات واهية وألزموا بها المسلمين وحكموا على ضلال من خالفهم:

لُقن المسلمون أن اللوح المحفوظ هو لوح كتب الله فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، فما هو مستند هذا التصور؟ الناظر في القرآن يجد أنه لم يذكر "اللوح المحفوظ" في أي آية من آياته، وإنما ذكر كلمة "لوح" مرة واحدة منكرة، في سورة البروج في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [سورة البروج ,٢١-٢٢] وشتان بين "لوح محفوظ" و"اللوح المحفوظ"، فلوح محفوظ هو لوح نكرة، من الممكن أن يكون لوح عادي من خشب أو عظم أو حجارة مكتوبٌ فيه القرآن، وهو محفوظ كما قال الرب: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [سورة الحجر ,٩]، ومن الممكن أن يكون اسماً للمصدر الرباني الذي أنزل منه القرآن، ولم تزد الآيات عن أن قالت أنه: لوح ومحفوظ[150]. فما الذي دفع العقلي السلفي إلى أن يجعل "لوح محفوظ" هو اللوح المحفوظ (ذاكرة الكون المدونة سابقاً)؟ نقول: لأن الله العليم قال أنه "قرآن مجيد في لوح محفوظ"، وقال كذلك أنه في كتاب

---

(150) لاحظ أن الله الخبير لم يقل في آية أنه أنزل/ نزل/ تنزيل/ أنزلنا/ نزلنا القرآن من كتاب وإنما ينسبه إلى نفسه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩﴾ [سورة الرّعد ,١٩]، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [سورة النمل ,٦]، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ ... ۝٢٨٥﴾ [سورة البقرة ,٢٨٥].

مكنون: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾] سورة الواقعة ,٧٥-٨٠[، (لاحظ أن الله قال أن تنزيل القرآن منه وليس من الكتاب المكنون)، وقال أيضاً أنه في أم الكتاب: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾] سورة الزخرف ,١-٤[[151]"، فجُمعت هذه الآيات فقيل أن الكتاب المكنون الذي لا يمسه إلا المطهرون الذي هو أم الكتاب هو حتماً "ال لوح المحفوظ"!) وذلك التصور الذي نجده في الأدبيات الإسلامية، من أن اللوح المحفوظ هو كتابٌ كتب فيه الله كل الأحداث وما هو كائن إلى يوم القيامة لا نجد له مستنداً في كتاب الله ولا (ذكر ل "اللوح المحفوظ") في كتب السنة المعروفة مثل البخاري أو مسلم أو النسائي ... الخ، وإنما في الكتب التي يكثر فيها الضعيف والموضوع، مثل: الإبانة الكبرى لابن بطة والمستدرك على الصحيحين للحاكم .. الخ. فإذا نظرنا فيما أورده الإمام الطبري عند تناوله لآية البروج نجده لم يزد عن أن قال: "عن مجاهد: (فِي لَوْحٍ) قال: في أمّ الكتاب. (...) عن قتادة: (فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) عند الله. وقال آخرون: إنما قيل محفوظ لأنه في جبهة إسرافيل.[152]" اهـ

ونجده يورد عند تناوله لآية القلم "والقلم وما يسطرون"، رواية تتحدث عن قلم أسطوري كتب الله به القدر في شيء غير محدد، (على الرغم من أن سياق الآيات في السورة يقول أن القلم المذكور في الآية هو القلم الذي يكتب به المشركون)، فنجده يروي: "عن ابن عباس قال: "أوّل ما خلق الله من شيء القلم، فقال له: اكتب، فقال: وما أكتب؟ قال: اكتب القدر، قال فجرى القلم بما هو كائن من ذلك إلى قيام الساعة، ثم رفع بخار الماء ففتق منه السموات، ثم خلق النون فدُحيت الأرض على

(151) الآية لا تقطع بأن القرآن في أم الكتاب، فالراجح عندي في فهمها أن هذا هو ذكر الحكم الموجود عنه في أم الكتاب، فهو محكوم عليه في أم الكتاب بأنه علي حكيم. كما يقال: أنت في رأي/ حكمي: عظيم كبير. فالله تعالى أكد الحكم "العلو والحكمة" باللام، ولم يؤكد الوجود نفسه.

(152) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء الرابع والعشرون، ص.348.

ظهره، فاضطرب النون، فمادت الأرض، فأُثبتت بالجبال فإنها لتفخر على الأرض[153]".

ونجد ابن أبي حاتم يروي الرواية بشكل آخر مضيفاً فيها اللوح المحفوظ، فيروي: "حدثني سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ مسيرة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش تبارك وتعالى: اكتب. قال القلم: وما أكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة. فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة. فذلك قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات والأرض)[154]"

والناظر في الروايات المتعلقة بالقلم واللوح المحفوظ يجد فيها أوصافاً عجيبة، فنجدها تقول أن الله سبحانه خلق القلم بعد خلق الماء والعرش وهو ثالث المخلوقات، وهو جِرم عظيم جدًّا على شكل نور، ثم خلق الله تعالى بعد القلم الأعلى اللوح المحفوظ وهو رابع المخلوقات، والذي قال بعض العلماء إنه فوق العرش وقال بعضهم إنه تحت العرش!! وجرمه عظيم جدًّا مقداره ومساحته مسيرة خمسمائة عام، طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب!! وعامة الروايات المتعلقة بالقلم واللوح المحفوظ عن ابن عباس، والله أعلم هل قال بها أم أنها نُسبت إليه!

وبغض النظر عن هذا كله فالله قال أن القرآن مجيد في لوح محفوظ (لن يستطيع الذين كفروا أن يفعلوا به شيئاً، وسيقتصر فعلهم على التكذيب فقط) فمن أين أتوا بهذا "اللوح المحفوظ"؟! أرى والله أعلم أن هذا ربما يكون راجع إلى بعض الروايات الأصح سنداً مثل ما رواه مسلم في صحيحه: "عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كتبَ اللهُ مقاديرَ الخلائقِ قبل أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ بخمسين ألف سنة. قال: وعرشُه على الماء[155]" وكذلك ما رواه

---

[153] المرجع السابق، الجزء الثالث والعشرون، ص.523–524.

[154] أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، الجزء التاسع، ص. 3073.

[155] مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الرابع، ص.2044.

البخاري: "عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ. قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا مَرَّتَيْنِ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ: اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ. قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالُوا: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ. قَالَ: كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَنَادَى مُنَادٍ ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الْحُصَيْنِ فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ فَوَ اللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا[156]" ا.هـ

فزيد الكلام توضيحاً، فبما أن الله كتب، وبما أن هناك قسم بقلم وثمة لوح محفوظ فبالتأكيد كُتب بالقلم في اللوح المحفوظ، وهذا ما جاء في روايات ضعيفة سنداً منسوبة إلى الرسول وإلى ابن عباس. وكما رأينا فحديث البخاري لم يزد عن أنه كُتب في الذكر كل شيء، فجاء الحافظ ابن حجر وقال أن المراد بالذكر هنا: هو اللوح المحفوظ، فأصبحت الرواية مؤكدة للروايات الضعيفة.

وكذلك لم يزد حديث مسلم عن ذكر "مقادير الخلائق" وهو ما يمكن فهمه بأنه السنن والطبائع التي ستسير عليها الخلائق، فأصبحت ب "قدرة راوي!!" "الوصفَ التفصيلي" لكل ما يحدث منذ بداية الخلق إلى قيام الساعة! وهو ما لم تقل به الرواية ولا كتاب الله، وإنما روايات ضعيفة منسوبة إلى ابن عباس، وبسبب هذه الروايات أصبح واجباً على المسلم أن يُسلم أن كل ما سيقوم به مكتوبٌ عليه مسبقاً، وأنه لا يمكن أن يقع إلا ما قد وقع وأن الإنسان لا يمكنه أن يغير المكتوب!

واستند القائلون بهذا الرأي إلى بعض الآيات، التي رأوا أنها تقول بسبق الكتابة، وهكذا وقع العقل الإسلامي في إشكالية كبرى وهي إشكالية الجبر، فكيف يكون الإنسان مخيراً وأعماله مكتوبة مسبقاً؟!

لذا نتوقف مع هذه الآيات لننظر هل هناك آية واحدة تكلمت عن كتابة الأعمال منذ

---

[156] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء الرابع، ص.105-106.

الأزل: أشهر الآيات التي يستدلون بها، هي قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحديد, ٢٢]، فقالوا أن المصائب (وغيرها) في كتاب من قبل أن تُخلق، ومن ثم فهي مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل الخلق. والملاحظ أن الله تعالى لم يقل"في الكتاب" وإنما قال "في كتاب"، كما لم يقل في نهاية الآية: إن الله بكل شيء عليم، ولا: لا مبدل لما كتب، وإنما قال: "إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ"، وهذا يعني أن المسألة مسألة قدرة وليست مسألة علم.

وحتى لو قلنا أن المراد من كونها في كتاب أي كونها مكتوبة فيه، فإن الآية دليلٌ على أن الكتابة في الدنيا قبل الوقوع بفترة بسيطة وليس قبل الخلق، (لاحظ أن الله تعالى قال: نبرأها، ولم يقل: نخلقها، والبرء هو المرحلة التالية للخلق والسابقة للتصوير) فالله تعالى قال "من قبل أن نبرأها" أي قبل إيجاد المصيبة، ولم يقل: "قبل أن نخلق السماوات والأرض" ولا: "قبل أن نخلقكم"، ومن ثم فليس في الآية أي دليل على الكتابة المسبقة قبل الخلق. (والناظر في باقي الآيات التي تتحدث عن علم الله بالأشياء وكونها "في كتاب"، يجد أنها جميعا تتحدث عن علمه بأشياء تحدث وتندرج تحت "الغيب المكاني" فهي غيب بالنسبة لنا لأننا لا نراها، أو تتحدث عن شمول علمه بما يحدث، أو عن تسجيل ما حدث في القرون الأولى، وهو غيب زماني ماضوي وليس مستقبلي: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الأنعام, ٥٩]، ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [سورة يونس, ٦١]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [سورة هود, ٦]، ﴿قَالَ عِلْمُهَا

عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾] سورة طه, ٥٢]، ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾] سورة الحج, ٧٠]، ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾] سورة النمل, ٧٥]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾] سورة سبإ, ٣]

والملاحظ أن الله تعالى قال أن عنده "مفاتح الغيب"، وأن هذه المفاتح لا يعلمها إلا هو –وهي ليست الخمس أصناف المذكورات في آخر سورة لقمان لأننا علمنا بعضها، ناهيك عن كونها ليست مفاتح للغيب وإنما من الغيب!–، وهذا يعني أن الله تعالى يعلم الغيب (وليس: علم الغيب) بطُرقٍ ما لا يعلمها إلا هو، فالملائكة أنفسها لا تعلم هذه الطرق. ولو كان كل شيء مكتوب مسبقاً لما كان هناك أي معنى لعلمه سبحانه بمفاتح الغيب فلقد كُتب فعلاً) ولأنهم قالوا بأن الأعمال مكتوبة ولم يحددوا بدقة معنى "في كتاب" واجهتهم آيات تقول بخلاف ما يقولون، وهي: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾] سورة الرّعد, ٣٩]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١١﴾] سورة فاطر, ١١]

فرأوا آية تقول أن الله يمحو ما يشاء ويثبت، ومن ثم يمكن تغيير المكتوب، كما أن المعمر يمكن أن يعمر ويمكن أن ينقص من عمره، ومن ثم كان عليهم تأويلها بشكل يتفق مع تصورهم لكتابة الأعمال، فقالوا بوجود لوحين: ثابت ومتغير، فقال أحد المدافعين عن ذلك التصور: "اللَّوح المحفوظ: كما في بعض التَّفسيرات هو ما عبَّر عنه القرآن الكريم بأمّ الكتاب وهو ما كُتب فيه كُلُّ شيء ممّا يُصيب الإنسان من خيرٍ وشرّ وبلايا ونِعَم وما إلى ذلك، وما كُتبَ فيه حتميُّ الوقوع ولا يتخلَّف قيد شعرة ولعلَّ

ذلك الكتاب هو ما أشارت إليه الآية المباركة من سورة الحديد: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾ [سورة الحـديد, ٢٢]

لوح المحو والإثبات: هو ما أشارت إليه الآية المباركة من سورة الرَّعد: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [سورة الرّعد, ٣٩]، فالمُقَدَّرات في الكتاب على الإنسان وغيره من المخلوقات مُعلَّقة على شروطٍ متى ما وقعت ترتبت تلك المُقَدَّرات وإلاَّ فإنَّها لا تقع أو مُعلَّقة على عدم تحقق بعض الموانع، بمعنى أنَّ هذه المُقَدَّرات لا يُكتب لها الوقوع لو تحقَّقت بعض هذه الموانع.

ومثال الأوَّل أنَّه قد يُكتب في لوح المحو والإثبات أنَّ هذا الإنسان يبقى في الحياة خمسين سنة إذا كان يَصِلُ رحمه أو يواظب على الدُّعاء، فصِلَةُ الرَّحم شرطٌ في بلوغ عمر هذا الإنسان خمسين سنة. ومثال الثَّاني أنَّه قد يُكتب على الإنسان أن يُرزَقَ خمسة أولاد ما لم يَعُقَّ والديه، فالعقوق مانعٌ من أن يُرزقَ خمسة أولاد. فالتَّقدير في لوح المحو والإثبات تقديران يتحقَّق أحدهما ويُمحَى الآخر وفق الشُّروط والموانع مع علم الله تعالى أي التَّقديرين هو الذي سيقع." اهـ

وبغض النظر عن أنه لا دليل على وجود "لوح المحو والإثبات" هذا، فلم يجر له أي ذكر في الآية ولا في القرآن، (ولا دليل أصلاً على "ال لوح المحفوظ" وتصوراتهم حوله)، وإنما رواية عن ابن عباس في الطبري تقول: "عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)، قال: كتابان: كتابٌ يمحو منه ما يشاء ويثبت، وعنده أمّ الكتاب[157]" بغض النظر عن هذا كله فإن هذا التوجيه يعني أحد اثنين:

1- تناقض المحتوى، فاللوح المحفوظ –على قولهم– مكتوب فيه كل ما سيفعله

(157) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء السادس عشر، ص.480.

العبد، ومن ثم فلا معنى أن تُعلق بعض الأمور على فعل العبد، إذا كان سيفعل كذا فيُفعل له كذا، فلقد كُتب ما سيفعل وليس أمامه خيار آخر!

2- أن اللوح المحفوظ لم يُكتب فيه كل أعمال العباد وإنما كُتبت فيه أمور معينة، وهناك أمور أخرى متروكة متوقفة على ما يفعله العبد، تُقدر تبعاً لأفعاله، وهذا يجرنا للتساؤل حول المكتوب مسبقا والمكتوب مؤخرا.

وهذا الرأي ليس بالحديث، فالإمام الطبري يروي عن مجاهد: "عن منصور قال: سألت مجاهدًا فقلت: أرأيت دعاءَ أحدنا يقول:"اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه واجعله في السعداء"، فقال: حَسنٌ . ثم أتيته بعد ذلك بحَوْلٍ أو أكثر من ذلك، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [سورة الدخان ,٣-٤]، قال: يُقْضى في ليلة القدر ما يكون في السَّنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدِّم ما يشاء ويؤخر ما يشاء . فأما كتاب الشقاء والسعادة فهو ثابتٌ لا يُغَيَّر.[158]" اهـ

وكما رأينا فمجاهد يقول أنه يُقضى في ليلة القدر قضاء العام، بينما يرى أن الحكم العام على الإنسان المكتوب مسبقاً أنه شقي أو سعيد لا يتغير. وهذا الإشكال الذي وقعوا فيه راجع إلى أنهم اعتبروا كلمة "كتاب" "الكتاب"، كما فهموا الكتاب بمعنى السجل. ولو رجعنا إلى آية الرعد ونظرنا إلى الآية السابقة لها لانحل الإشكال، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [سورة الرّعد ,٣٨-٣٩]

فالله يقول أن الرسول لا يأتي بالآية إلا بإذن الله، وأنه لكل أجل كتاب (وليس: كل أجل في الكتاب)، فإذا محا الله الكتاب لم يكن الأجل ولا الآية (المعجزة أو العذاب)

[158] المرجع السابق، الجزء الثاني والعشرون، ص.10.

وإذا أثبته كان الأجل والآية. والذي يظهر من الآية أن المقصود بالكتاب فيها ليس "السجل" وإنما مجموعة السنن والأحكام التي كتبها الله، فإذا وجدت كان، وإن محيت لم يكن: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ... ﴿١٤٥﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٤٥]، فالموت كتاب مؤجل على الخلائق لا يمكن لأحد الفرار منه، بينما هناك كتب أخرى يمكن أن تُمحى ويمكن أن تُثبت.

ونعود للسؤال المحوري في هذا الموقف: هل قال الله أنه كتب أعمال العباد قبل خلقهم؟ الناظر في القرآن يجد أنه ليس ثمة آية واحدة تقول بهذا المعنى، وإنما ثمة آيتان تقولان بأن الكتابة تحدث (بصيغة المضارع): ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [سورة يس, ١٢]، ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الجاثية, ٢٩].

فالملائكة تكتب الأفعال وليست الكتابة لما فعله الإنسان في حياته وإنما ممتدة إلى الآثار بعد موتهم)، وكذلك هي كانت تستنسخ ما كنا نعمله. (وهذا يعطينا تصورا لكيفية كتابة الملائكة لأعمالنا، فيمكننا القول أنها تأخذ صورة من أعمالنا وتسجلها عندها، وليس أنها تكتب: فعل فلان كذا وكذا في اليوم الفلاني!) وكل شيء أحصي في إمام مبين (والإحصاء هو العد والإحاطة والاستيفاء) فلم يفت الملائكة شيء، وإحصاء الشيء يعني وجوده أولاً، فلا يُحصى الشيء قبل وجوده. إذا وكما رأينا فليس ثمة آية واحدة تقول أنه كُتب على الأفراد أن يفعلوا شيئاً بعينه.

ولا يعني قولنا أن الله لم يكتب أعمال العباد قبل خلقهم أن الله العلي يترك الأمور تجري هكذا بدون توجيه منه، سبحانه، فالله تعالى بعد أن خلقنا قضى أجلا وسمّى آخر عنده: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [سورة الأنعام, ٢]، كما أنه يفرق كل أمر حكيم في كل عام: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ

إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾] سورة الدخان ,٣-٥[، ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾] سورة القدر ,٣-٤[.

كما أنه يدبر الأمر: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾] سورة يونس ,٣[، كما أنه خط للبشرية خطوطا لا تستطيع تجاوزها: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾] سورة المجادلة ,٢١[

كما أن ثمة أمور كتبها الله سبحانه على نفسه ول عباده: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾] سورة المائدة ,٢١[، ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾] سورة الأنعام ,٥٤[، ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾] سورة الحج ,٤[، ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾] سورة الحشر ,٣[.

ولكن لا دليل على أنها مكتوبة عليهم أزلا، وإنما يُفهم من خلال الآيات الأخرى أن هذه الكتابة كانت نتيجة لأفعالهم ومعاصيهم.

نخرج من هذا بأن "الإمام المبين" هو الكتاب الذي تدون فيه الملائكة كل الأعمال والأفعال والأحداث –بعد وقوعها– والذي سيوضع يوم القيامة: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾] سورة الكهف ,٤٩[،

وهو كتاب حفيظ: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤﴾ [سورة ق ,١-٤]، إذاً فالكتاب لحفظ الأعمال والأحداث وليس أنه سابق لها، ولم يشار إلى أخذ القرآن منه أو ما شابه، وهو الذي قال الله في حقه –وليس القرآن–: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ۝٣٨﴾ [سورة الأنعام ,٣٨]

ومن ثم فلا وجود لما يُسمى ب "ال لوح المحفوظ"، تبعاً للتصورات التهويلية من أنه ياقوتة طولها كذا وعرضها كذا مكتوب فيها الأعمال مسبقاً، وإنما ثمة "لوح محفوظ" وهو على الراجح اللوح أرضي الذي كان يُكتب فيه القرآن، والله أعلى وأعلم.

الفصل الرابع: البدعة

"ألا إن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار"

هذا هو أول ما يتبادر إلى ذهن المسلم عندما يسمع كلمة "بدعة"، تلك الجملة التي لُقنها منذ صغره وسمعها مراراً وتكراراً من خطباء المساجد في استفتاح خطبهم، والمنسوبة إلى النبي الكريم، كما يروي النسائي: "عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته يحمد الله ويثني عليه بما هو له أهل ثم يقول: من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.[159]"

وبغض النظر عن كون الرواية من قول النبي أم أنها من قول ابن مسعود الذي يتحدث عن غائب وليس عن نفسه، كما روى البيهقي في شُعب الإيمان: "قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، أَلَا إِنَّ الْبَعِيدَ مَا لَيْسَ بِآتٍ أَلَا لَا يَعْجَلِ اللهُ لِعَجَلَةِ أَحَدٍ، وَلَا تَجِدْ لِأَمْرِ النَّاسِ، فَإِنْ شَاءَ اللهُ لَا مَا شَاءَ النَّاسُ يُرِيدُ اللهُ أَمْرًا، وَيُرِيدُ النَّاسُ أَمْرًا مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَلَوْ كَرِهَ النَّاسُ، لَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدَ اللهُ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبَ اللهُ، وَلَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ أَصْدَقُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ[160]"، بغض النظر عن هذا نتساءل: إذا كانت البدعة هي الشيء الجديد المستحدث، فما هو المقصود

---

[159] أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي، الجزء الأول، ص.550.

وثمة روايات للحديث بدون هذه الزيادة "وكل ضلالة في النار"، مثل ما رواه الإمام أحمد: "عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ فَيَخْطُبُ فَيَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ وَيَقُولُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ إِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ. وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ السَّاعَةَ احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ."، وهناك من ضعّف هذه الزيادة من علماء الحديث لعلة في سندها، وبغض النظر عن علة السند، فليست كل ضلالة في النار، فقد يطلب الإنسان الحق ولا يصله فيظل ضالاً، وقد يجتهد فيضل فلا يكون في النار وإنما له أجرٌ على اجتهاده.

[160] أحمد بن الحسين البيهقهي، شعب الإيمان، الجزء السادس، ص.440.

من البدعة، هل كل جديد مذموم؟!

يرى السلفيون أنفسهم أن ليس كل جديد يعتبر بدعة، وإنما المقصود هو الابتداع في أمور الدين، باختلاق واجبات أو محرمات لم ينزلها الله، أو بتطبيق شرع الله على غير ما طبقه الرسول الكريم والسلف الصالح. إلا أنهم اختلفوا في تحديد معنى البدعة في الاصطلاح، فمنهم من جعلها كمقابل للسنة، ومنهم من جعلها عامة تشمل كل ما حدث بعد عهد النبي المصطفى، سواء كان محموداً أم مذموماً.

ويعرض عبد الله التويجري الاختلاف في تعريف "البدعة" تبعاً للنظر إليها، فيقول: "وقال الشاطبي في تعريف البدعة: (البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه). وهذا على رأي من لا يدخل العادات في معنى البدعة، وإنَّما يخصّها بالعبادات. وأما على رأي من أدخل الأعمال العادية في معنى البدعة فيقول: (البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية)[161]" اهـ.

كما يعرض أنواع البدع، فيقول: "البدع كلها مذمومة –وهو القول الراجح من أقوال العلماء– فإنهم قالوا بأن البدع حرام، ولكنها تتفاوت في التحريم:

أ– فمنها ما هو كفر لا يحتمل التأويل، كبدعة الجاهلية التي نبَّه عليها القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ ... ١٣٦﴾ [سورة الأنعام, ١٣٦].

ب– ومنها ما هو من المعاصي التي ليست بكفر، أو مختلف فيها هل هي كفر أم لا؟ كبدعة الخوارج، والقدرية، والمرجئة، ومن أشبههم من الفرق الضَّالة.

ج– ومنها ما هو معصية؛ كبدعة التبتل، والصيام قائماً في الشمس، والخصاء بقصد قطع شهوة الجماع.

[161] عبد الله التويجري، البدع الحولية، ص. 23.

د–ومنها ما هو مكروه، كبدعة التعريف –وهو اجتماع الناس في المساجد للدعاء عشية عرفة– وذكر السلاطين في خطبة الجمعة، ونحو ذلك. فهذه البدع ليست في رتبة واحدة، وليس حكمها واحد.[162]" اهـ

إذا فالبدعة هي اختصاراً "تقليد أو محاكاة"، شيء أتى به بشر مثل شرع الله إلا أنه ليس له أصل في دين الله! إلا أن هذا يدفعنا للتساؤل: هل هذا التعريف ينطبق على ال"بدعة"؟

إننا نقول أن الله البديع هو الذي خلق على غير مثال فليس خلقه عن تقليد ولا مثال، وهو أمر النبي الكريم أن يقول: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ... ۝٩﴾ [سورة الأحقاف ,٩]، أي أنني لست بالجديد الذي ليس له سابق من الرسل، وإنما هناك من سبقني منهم، فلماذا الاعتراض علي؟! إن النبي تبعاً لتعريفهم هو بدع من الرسل، فهو مماثل لسابقٍ له! والله يقول أنه ليس بدعاً من الرسل، ومن ثم فلا يمكن أن تكون البدعة تقليداً، وإنما هي الشيء الفريد المنشأُ إنشاءً ليس له مثيل ولا سابق، –كما نقول أن هذا من إبداعات فلان– ومن ثم لا يمكن أن تصدق على تعريفاتهم للبدعة بحال، وإنما يمكن تعريفها بأنها:

الطريقة المخترعة والمنسوبة إلى الدين زوراً وبهتانا.

ويؤكد هذا قولُ الله تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٢٧﴾ [سورة الحديد ,٢٧]

فالله تعالى كتب عليهم الرهبانية، والتي هي كما قال: "ابتغاء رضوان الله"، فأتوا بطريقة لم يسبق أن أمر الله بها، وهي ترك الدنيا والنكاح والزهد والتعبد في الصوامع وفي الصحراوات. فالرهبانية التي كتبها الله تعالى لم تكن هذا الفعل أو شبيهاً به، وإنما هم

[162] المرجع السابق، ص. 28–29.

الذين أتوا بهذا الأفعال ونسبوها إلى الله بإسقاطها على اسم عبادة موجودة فعلاً، وما ذكره التويجري كمثال للبدعة الكفرية هو ما يصدق عليه "البدعة"، فالمشركون اخترعوا بعض أحكامٍ ما أنزل الله بها من سلطان ونسبوها إليه، وهذه هي البدعة. ويؤكد هذا الفهم الحديث الذي رواه البخاري ومسلم، -واللفظ لمسلم-: "... قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ[163]"، فنلاحظ أن النبي الكريم بين أن البدعة إحداث شيء في الدين ليس منه -ونسبتها بتحايلٍ ما إلى الدين-، أما السلفيون ففهموا الحديث على أنه: "من أحدث في أمرنا هذا فهو رد"، بل وفهموه: "من غيّر/ حرّف في أمرنا فهو رد".

إن النبي بيّن أن المردود هو المحدث الذي ليس من الدين، أي أن المسألة ابتداع وإضافة وليس تغيير، وذلك لأن الله أعطى المسلم إمكانية الاجتهاد في العبادة، ففرض عليه فرائض ولم يمنعه من أن يزيد عليها، وهذا ما كان النبي الكريم يطبقه، فالصلوات المكتوبات مثلاً خمس صلوات، والنبي الكريم كعبد صالح كان يزيد على هذه الصلوات حباً وقرباً إلى الله فكان يصلي ركعات قبل أو بعد المفروضة وفي الليل، وأي إنسان مؤمن يود التقرب إلى الله عليه أن يزيد من الصلاة، أي أن يصلي صلوات فوق المكتوبة، فإن التزم في الزيادة بهدي النبي فبها ونعمت وإن زاد أو نقص عنها فلا حرج.

وكذلك الذكر فالنبي كان يذكر الله تعالى استشعاراً بالخضوع والجلال والرهبة، وكان يذكره على أحوالٍ معينة، وليس ثمة مانع أن يذكر الإنسان ربه على أي حال يشعر معها وبها أنه قريب من الله، فلو ذكرت الله أثناء الوضوء مثلاً -وهو لم يرد عن النبي- فليس هذا ببدعة، لأنه داخل تحت الذكر المأمور به على أي وكل حال، والفيصل في المسألة ألا يقدِّم هذه الطريقة للناس باعتبارها من الدين، أو يدعي أن لها فضلاً أو أثراً معيناً.

---

[163] مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الثالث، ص.1343.

ومن ثم فإن أي فعل يقوم به الإنسان ولا ينسبه إلى الله تعالى أو إلى الدين فهو ليس بدعة، فأن يحدث المسلمون طرقاً جديدة لتسيير حياتهم وأمورهم وأن ينشئوا لهم عادات جديدة فليس له علاقة بالبدعة بحال، كما أن أي اجتهاد في فهم نصوص لم يفصلها الله تعالى لا يُعد بدعة، فليس قول أي أحد بحجة على أحد، فالكل يجتهد والعبرة بأيهم أقرب للنص.

والإشكالية في موقف السلفيين من "أصحاب البدع" –والذين أصبحتُ محسوباً عليهم!–، أنهم يمنعون محاورتهم أو مجادلتهم ولا يستمعون إليهم، ويتلخص موقفهم منه في أنهم: "يبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه ولا يحبونهم، ولا يصحبونهم ولا يسمعون كلامهم ولا يجالسونهم ولا يجادلونهم في الدين ولا يناظرونهم، ويرون صون آذانهم عن سماع أباطيلهم، التي إذا مرت بالآذان وقرت في القلوب، ضرت وجرت إليها من الوساوس والخطرات ما جرت، وفيهم أنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الأنعام, ٦٨] "[164] اهـ

ولا يعني هذا أن السلفيين لا يردون على المبتدعة، فكتبهم ورسائلهم في الرد على كل كبيرة وصغيرة وتبديعها! إلا أنهم يقومون بإجراء عزلة وحصار للمخالف، فلا يجادلونه شخصياً ولا يسمعون له. ولن نعرض لأدلتهم التي يستدلون بها على هذا الموقف لأنها مما لا يستحق الالتفات إليه، فالله تعالى حاور الكفار وخلّد مقولاتهم في كتابه والكتاب كله قائم على الحوار، والنبي ومن سبقه من إخوانه من الأنبياء والرسل حاوروا أقوامهم من الكافرين والمشركين، وهذا هو دور أمة الإسلام المخرجة للناس، فكيف يُقاطع المبتدعة –الذين هم ليسوا مبتدعة كما بيّنا؟– أم أن الحوار يكون لغير المسلمين فقط، وأما المسلمون أصحاب الرأي الآخر فلا يُسمع لهم، وإنما يُعزلون

(164) أبو عبد الباري عبد الحميد العربي، وقفات منهجية في الذب عن السلفية، ص. 159.

تأديباً لهم وتبرأً منهم؟!

وبعد هذا التأصيل السريع لمصطلح "البدعة" نعرض لنموذجين من نماذج الحياة، ضيّق السلفيون فيهما بحجة البدعية، لنبصر هل هما من البدع فعلاً؟!

الأعياد

يرى السلفيون أن للمسلمين عيدين فقط، هما عيد الأضحى وعيد الفطر، ويرفضون أي احتفال بأي عيدٍ آخر، ويعدون الاحتفال –الأدق: الاحتفاء– بأي عيدٍ غيرهما من باب البدعة لأن النبي الكريم لم يحتف بهما ولم يأمر بهما، فحتى ولو لم يدع أحدٌ أن هذه الأعياد من الدين، فهما بدعة جدت على المسلمين.

ويستندون في هذا الحصر على ما رواه النسائي في سننه: "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ لِأَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ يَوْمَانِ فِي كُلِّ سَنَةٍ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ قَالَ: كَانَ لَكُمْ يَوْمَانِ تَلْعَبُونَ فِيهِمَا وَقَدْ أَبْدَلَكُمْ اللَّهُ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْفِطْرِ وَيَوْمَ الْأَضْحَى.[165]" اهـ

وللرواية عند الإمام أحمد شكل مختلف: "... سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟ قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْفِطْرِ وَيَوْمَ النحرِ.[166]" اهـ

وبغض النظر عن أن الروايات توحي بأن الرسول كان يشرع قبل أن يأتيه الوحي، فما أن علم بأمر العيدين حتى قال أن الله أبدلهما بكذا!! فمتى أوحي إليه أنه أبدلهما كذا

---

(165) أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي، الجزء الأول، ص.542.

(166) أحمد بن حنبل، المسند، الجزء الثالث، ص.250.

بكذا؟ بغض النظر عن هذا نتوقف مع هذه الروايات التي مدارها على أنس بن مالك لنتساءل: كيف يتحدث الرسول الكريم عن أمور لم توجد بعد، فالصيام يفترض أنه كُتب في العام الثاني من الهجرة، والحج في السنة السادسة أو التاسعة؟! ثم ما هما هذا اليومان اللذان لم يجر لهما ذكر إلا في هذه الرواية، وكيف اختفيا من ذاكرة الأنصار، فلم يرو أحدهم أثارة من ذكر؟!!

لقد انتبه الشيخ سفر الحوالي إلى هذه النقطة وأوجد لها تبريراً "سلفياً" فقال أنهما استؤصلا استئصالاً من النفوس حتى لم يبق لهما أثر ولا ذكر! ولست أدري لماذا ظل المسلمون ذاكرين لعاداتهم في الجاهلية التي أبطلها الإسلام، وقصّوها على أولادهم وتابعيهم، حتى وصلت إلينا، بينما نسوا هذين اليومين تحديدا؟! ونحن نقول أنه لم يكن لهما وجود أصلا، وهذه رواية مكذوبة، ترمي لتأصيل الاحتفال بيومي الفطر والأضحى، بأن النبي الكريم أمر بهما، وليس أنه احتفى بهما بشكلٍ مخصوص.

ولا يعني هذا أننا نقول أنه ليس لهذين اليومين مزية مخصوصة عند المسلمين أو الرسول، فهما يومان ارتبط كل منهما بعبادة مخصوصة، فالأول بانتهاء الصيام، والثاني بالذبح، وفي هذه المناسبة كان الرسول كرسول وكقائد للمدينة يجمع المسلمين فيخطب فيهم، كما روي في موطأ مالك: "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ يَوْمَ الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى إِلَى الْمُصَلَّى فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلَاةُ ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَيَقُومُ مُقَابِلَ النَّاسِ وَالنَّاسُ جُلُوسٌ عَلَى صُفُوفِهِمْ فَيَعِظُهُمْ وَيُوصِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثًا قَطَعَهُ أَوْ يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ ثُمَّ يَنْصَرِفُ. " اهـ

وكان كل المسلمين يخرجون فليس الأمر للرجال فقط، فكانت النساء تؤمر بالخروج حتى الحيض، كما روى الإمام ابن ماجه في سننه: "عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ قَالَتْ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نُخْرِجَهُنَّ فِي يَوْمِ الْفِطْرِ وَالنحرِ قَالَ قَالَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ فَقُلْنَا أَرَأَيْتَ إِحْدَاهُنَّ لَا يَكُونُ لَهَا جِلْبَابٌ قَالَ فَلْتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا.[167]" اهـ

[167] أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، الجزء الثاني، ص.341.

كما أن الرسول الكريم نهى عن صيام هذين اليومين، وهو أمر جد منطقي، فيوم الفطر هو أول يوم بعد رمضان ومن ثم فعلى الناس الانقطاع عن الصيام –ولهذا وجدنا من السلف من كرّه الصيام بدءً من ثاني أيام شوال–، ويوم الأضحى يوم أكل ومن ثم فلا ينبغي الصوم، وهذا ما ورد في الروايات نفسها، فنجد أبا داود يروي في سننه: "عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ قَالَ: شَهِدْتُ الْعِيدَ مَعَ عُمَرَ فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ الْخُطْبَةِ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ صِيَامِ هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ أَمَّا يَوْمُ الْأَضْحَى فَتَأْكُلُونَ مِنْ لَحْمِ نُسُكِكُمْ وَأَمَّا يَوْمُ الْفِطْرِ فَفِطْرُكُمْ مِنْ صِيَامِكُمْ.[168]" اهـ

فإذا تركنا هذه النقطة، وتساءلنا: ما هو العيد؟ هل هو الاحتفاء بأي مناسبة؟

الناظر في كتابات اللغويين يجد أنهم اختلفوا في تحديد معنى الكلمة، والمشهور عنهم في معنى كلمة "عيد" أنها من العود والرجوع، فقيل: "العيد مشتق من العود فكل عيد يعود بالسرور، وإنما جمع على أعياد بالياء للفرق بينه وبين أعواد الخشب وقيل غير ذلك. وقيل أن أصله عود بكسر العين وسكون الواو، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها مثل ميعاد وميقات وميزان. وقال ابن الأنباري: يسمى عيداً للعود في الفرح والمرح. وقيل سمي عيداً لشرفه، من العيد وهو محل كريم مشهور في العرب تنسب إليه الإبل العيدية. وقيل اشتقاقه من العادة، لأنهم اعتادوه، والجمع أعياد ،ويقال: عيّد المسلمون: شهدوا عيدهم.

والعجيب أننا وجدنا ابن عابدين يقول: سُمي العيد بهذا الاسم ،لأن لله تعالى فيه عوائد الإحسان، أي أنواع الإحسان العائدة على عباده في كل يوم، منها: الفطر بعد المنع عن الطعام وصدقة الفطر وإتمام الأضاحي وغير ذلك، ولأن العادة فيه الفرح والسرور والنشاط والحبور.

والعجب في أن الكلمة موجودة من قبل الرسول محمد! وعليه أن يحدد معناها اللغوي أولا ثم يسقطها على المدلول الإسلامي، فالعرب لم تكن تفهمها بهذا المعنى

(168) سليمان بن الأشعث الأزدي، سنن أبي داود، الجزء الأول، ص.735.

الإسلامي حتماً! وخلاصة الأقوال أن العيد عيد لأنه يعود! وهذا قولٌ بعيد في كلمة على وزن "فِعل"، فليس هذا الوزن من أوزان الفاعل! والقول باشتقاقه من العادة قول بعيد كذلك، فما الذي اعتادوه أصلاً حتى يُسمى عيداً؟! هل اعتادوا اليوم؟ الأيام كلها تتكرر ولا يوجد يوم واحد لا يعود في العام التالي!! فهل يُقبل أن تُسمى كل الأيام أعياداً لأنها تعود ولأننا اعتدنا عليها؟!

فإذا نظرنا في لسان العرب بحثاً عن معانٍ أخرى ل "ع و د" ألفينا ابن منظور يقول: "... والعائدَةُ: اسم ما عادَ به عليك المفضل من صلة أَو فضل، وجمعه العوائد. قال ابن سيده: والعائدة المعروفُ والصِّلةُ يعاد به على الإِنسان والعَطْفُ والمنْفَعَةُ. والعُوادَةُ، بالضم: ما أُعيد على الرجل من طعام يُخَصُّ به بعدما يفرُغُ القوم؛ (...) والعَوْد أَيضاً: الشاة المسن، والأُنثى كالأُنثى. وفي الحديث: أَنه عليه الصلاة والسلام، دخل على جابر بن عبد الله منزلَهُ قال: فَعَمَدْتُ إِلى عَنْزٍ لي لأَذْبَحَها، فَثَغَتْ، فقال عليه السلام: يا جابر لا تَقْطَعْ دَرًّا ولا نَسْلاً. فقلت: يا رسول الله إنما هي عَوْدَة علفناها البلح والرُّطَب فسمنت؛ حكاه الهروي في الغريبين. قال ابن الأَثير: وعَوَّدَ البعيرُ والشاةُ إِذا أَسَنَّا، وبعير عَوْد وشاة عَوْدَةٌ. ...[169]" اهـ

فإذا نظرنا في الآية الكريمة الوحيدة التي جاء فيها كلمة "عيد" وجدنا أن عيسى بن مريم سأل الله مائدة تكون عيداً: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ [سورة المائدة, ١١٤]. فكيف تكون المائدة عيداً؟ ولم يعجز المفسرون أن يجدوا تخريجاً للآية، فنجد الإمام الفخر الرازي يقول: "وأما قوله: ﴿عِيداً لأوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي نتخذ اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيداً نعظمه نحن ومن يأتي بعدنا، ونزلت يوم الأحد فاتخذه النصارى عيداً[170]"

[169] جمال الدين بن منظور، لسان العرب، الجزء الرابع، ص. 3157–3158.

[170] فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، الجزء الثاني عشر، ص.109.

ونحن نشكر للإمام الرازي قوله ونرده عليه، فالمسيح عيسى بن مريم لم يطلب مائدة يكون يوم نزولها عيداً، وإنما تكون هي نفسها عيداً وآية لهم! فهل يُقبل أن تكون هي الآية ويكون المراد من العيد يومها وليس هي؟!!

ونلاحظ أن القرآن —والعرب– كانوا يعرفون أيام الاحتفال بمناسبة معينة ويسمونها "يوم كذا"، فنجد في القرآن قوله تعالى على لسان موسى: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩﴾ [سورة طه ,٥٩]، ولم يقل "عيد الزينة"، ومن ثم فالمائدة يمكن أن تكون عيداً، فما هو العيد؟

كما قرءنا عند ابن منظور، ف: عيد (مثل: عير وعيس) ارتبطت بالإبل (والشاة) كما ارتبطت بالطعام والفضل، ومن ثم يمكننا القول أن العيد هو المائدة (الطعام) الموضوعة للأكل مجانا، التي يُدعى الناس إليها فيعودونها. فالناس يعودونها (يأتونها/ يزورونها، كما يُعاد المريض) ولأنها مفعول وليس فاعل صارت على وزن: فِعل> عيد. ووجود طعام بدون مقابل أمر محبوب ومرغوب فيه عند كل الناس. ومن ثم فالعيد مرتبط بالطعام، أما الاحتفال بمناسبة بدون طعام، مثل ذكرى وفاة فلان أو انتصار رمضان/أكتوبر مثلاً فيُسمى بيوم 6 أكتوبر مثلاً. وفي الألمانية مثلا نجد تفريقاً، فالمناسبات التي ترتبط باحتفالات (وطعام وولائم) تُسمى: Fest، بينما المناسبات الأخرى تُسمى: يوم كذا! مثل: Muttertag > يوم الأم. Arbeittag> يوم العمل (عيد العمال).

ويؤكد هذا المعنى ما رواه أبو داود في سننه: "حَدَّثَنِي ثَابِتُ بْنُ الضَّحَّاكِ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَنحرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنحرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْفِ بِنَذْرِكَ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ

لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ.[171]" اهـ

فنجد هنا أن الرسول الكريم يربط العيد بالمكان وليس بالزمن! فيسأله: هل كان في هذا المكان "بوانة" عيد من أعياد الجاهلية؟ فلما نفى الرجل أباح له النبي. فهذا الرجل كان يريد أن يقيم عيداً في مكان معين، بأن يذبح الإبل ويدعو الناس إليها، فيعودونها. والناظر في الأحاديث التي تتحدث عن يوم الفطر ويوم الأضحى يجد أن أكثرها كان يستعمل كلمة "يوم" وليس كلمة عيد، مثل ما رواه الترمذي: "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَخْرُجُ يَوْمَ الْفِطْرِ حَتَّى يَطْعَمَ وَلَا يَطْعَمُ يَوْمَ الْأَضْحَى حَتَّى يُصَلِّيَ.[172]" اهـ

حتى الروايتين عن تشريع الاحتفال استعملتا كلمة: يومان، وليس: عيدان، لأنهما ارتبطا باللعب، إلا أنهما لروايات أخرى أطلق عليهما كلمة "عيد"، مثل ما رواه الترمذي: "عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَوْمُ عَرَفَةَ وَيَوْمُ النحرِ وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ عِيدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ[173]". اهـ

ونلاحظ في الحديث الأخير عن عقبة بن عامر أن الرسول قال عن أيام الأضحية وكذلك يوم عرفة أنها عيد أهل الإسلام، وأنها أيام أكل وشرب. (وهذا يدفعنا للتساؤل حول صحة الأحاديث التي تأمر بصيام يوم عرفة!!) ومن هذه الرواية وشبيهاتها، مثل ما رواه البخاري: "عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا جَارِيَتَانِ فِي أَيَّامِ مِنَى تُدَفِّفَانِ وَتَضْرِبَانِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَغَشٍّ بِثَوْبِهِ فَانْتَهَرَهُمَا أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ وَجْهِهِ فَقَالَ: دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ –وَتِلْكَ الْأَيَّامُ أَيَّامُ مِنًى–[174]" اهـ

من أمثال هذه الروايات أُطلق على أيام الأضحية "عيد"، وهو إطلاق صحيح لما في

[171] سليمان بن الأشعث الأزدي، سنن أبي داود، الجزء الثاني، ص.257.

[172] محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، الجزء الثاني، ص.426.

[173] المرجع السابق، الجزء الثالث، ص.143.

[174] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء الرابع، ص.185.

العيد من إطعام وتوزيع على الناس، إلا أن الاستعمال المخصوص الذي يجعل العيد هو اليوم العاشر استعمال غير دقيق، فالعيد يُطلق على كل هذه الأيام، فليس "العيد" اسم مخصوص باليوم العاشر، وإنما من اليوم التاسع وحتى آخر أيام التشريق كل هذه أيام عيد المسلمين.

ثم توسع في الاستعمال فأصبح يوم الفطر يُسمى "عيداً" كذلك، بنوع من التجوز، فهو وإن لم يكن فيه إطعام للغير ودعوة للطعام، إلا أنه مرتبط بالفطر والذي هو تناول للطعام! كما أن بعض الروايات جعلت الواقعة السابقة في يوم الفطر، مثل ما رواه ابن ماجه في سننه: "عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ أَبُو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الْأَنْصَارِ تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ بِهِ الْأَنْصَارُ فِي يَوْمِ بُعَاثٍ قَالَتْ وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَبِمَزْمُورِ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَذَلِكَ فِي يَوْمِ عِيدِ الْفِطْرِ- فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا.(175)" اهـ

إلا أن الأصح ما رواه البخاري، من أن ذلك كان في أيام منى، فقد روى عبد الرزاق في مصنفه كذلك أنها كانت أيام منى: "هشام بن عروة عن عروة قال: دخل أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم وعند عائشة قينتان تغنيان في أيام منى، والنبي صلى الله عليه مضطجع مسبحا ثوبه على وجهه، فقال أبو بكر: أعند رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع هذا؟ فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه، ثم قال: دعهن يا أبا بكر فإنها أيام عيد وذكر الله.(176)" اهـ

نخرج من هذا بأن العيد هو الطعام (المجاني) الذي يعوده الناس، أما الاحتفال بمناسبة كذا وكذا فيسمى ب: يوم كذا، وعلى الرغم من أنه لم يقم دليلٌ على المنع فيكون الأصل هو الإباحة والاحتفال بأي مناسبة طالما أنها لا تُنسب إلى الدين، نقول: الدليل الصريح على الإباحة هو الحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن ذلك

(175) أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، الجزء الثالث، ص.92.

(176) أبو بكر عبد الرزاق بن همام، مصنف عبد الرزاق، الجزء الحادي عشر، ص.4.

الرجل الذي أراد أن يقيم عيداً فأباح له النبي ذلك طالما أنه ليس فعلاً من أفعال الجاهلية، ومن ثم فيجوز لنا إقامة الأعياد، طالما أننا لا ندعو بدعوى الجاهلية! والله أعلى وأعلم.

الثياب

هل هناك من الثياب ما يمكن نعته ب: البدعة"؟ بشكلٍ آخر: هل هناك ما يُسمى بالزي الإسلامي، الذي يجب على المسلمين الالتزام به ما استطاعوا، فإن تركوه كانوا من المبتدعين الضالين؟! الناظر في كتاب الله يجد أنه لم يأمر بزي معين، وإنما أمر بارتداء أفضل الملابس عند الوقوف أمامه، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [سورة الأعراف , ٣١]

كما أن النبي الكريم –كما يروي البخاري عنه– لم يحدد ملبساً معيناً، وإنما اشترط خلوه من الإسراف والمخيلة، فقال: "كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلْ مَا شِئْتَ وَالْبَسْ مَا شِئْتَ مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ.[177]" اهـ

[177] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الجزء السابع، ص. 141.

يمكننا فهم الروايات الواردة في تحريم الإسبال والوعيد الشديد فيه تبعاً لهذه القاعدة القرآنية، ولما ذكره النبي وأكد عليه ابن عباس، بأن الحرج في الإسراف والمخيلة وفي البطر، وهذا ما أكدته الروايات فعلاً، فنجد البيهقي يروي في شُعب الإيمان: "قال: سألت أبا سعيد الخدري: هل سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم في الإزار شيئا؟ قال: نعم سمعته يقول فذكره وقال في آخره: وما أسفل الكعبين من الإزار في النار لا ينظر الله إلى من جر ثوبه بطراً.

وكذلك يروي ابن أبي شيبة في مسنده: "عن أبي الحجاج بن سعيد الثقفي، قال: مر رجل من قومي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يجر إزاره فقال له: «ارفع إزارك، فإن الله لا يحب المسبلين» قال: إن بساقي خموشة. قال: «ما بثوبك أقبح مما بساقك»"

وكذلك يروي أبو نعيم الأصبهاني في: معرفة الصحابة: "عن أبي جري الهجيمي، قال: «قلت: يا رسول الله، إنا قوم من أهل البادية، فعلمنا عملا، لعل الله أن ينفعنا به. قال: » لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تصب من دلوك في إناء المستسقي، ولو تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من الخيلاء، وإن الله لا يحب الخيلاء، ..." اهـ

فهذا نصٌ صريح عن النبي —وعن صحابي كذلك— في الإباحة، ولم يجعلوا مخالفة ثياب المشركين شرطاً في ذلك، فالرسول الكريم —وكذلك الصحابة— لم يتغير ملبسهم بعد الإسلام، واستمروا في ارتداء نفس الملابس "الجاهلية"! التي كانوا يرتدونها قبل الإسلام! ولم يكن ثمة فارق بين المسلمين والمشركين في الثياب، فلم يكن المسلمون هم من يرتدي الثياب البيضاء والمشركون الملابس السوداء! —كما يصورها إعلامنا العبقري!— وإنما كان الكل يلبس نفس الملابس! ومن ثم فإن الحديث عن تميز المسلم عن غير المسلم في الثياب قولٌ مخالف لهدي النبي الكريم. فالرسول الكريم ارتدى كل الملابس التي كانت موجودة في عصره! فارتدى بُردة يمنية وجُبة رومية وقبطية! فلم يكن لديه أي تحرج من ارتداء أي شكل من الثياب، طالما أنها لا تحمل أي إشارة شركية ولم ير في هذا نقضاً لمبدأ الولاء والبراء!!

وكذلك لم يدع لا هو ولا أصحابُه المؤمنين حديثي الإيمان من الروم أو من الفرس إلى تغيير ثيابهم، وإتباع خطوط "المودة" العربية، وإنما تركوهم على ثيابهم. ومن ثم فلا حاجة للغربي الذي أسلم حديثاً أن يلبس ثياباً مخالفة للمتعارف عليه في بلده، حتى لا يصير "شاذاً" مصادماً لما عليه المجتمع، فلو كان في الثياب سنة فهي أن يتمسك كلٌ بثيابه!

والجلباب الذي يدعو السلفيون إلى ارتدائه ليس هو شكل الثياب الذي كان النبي والصحابة يرتدونها، وإنما أقرب الملابس في عصرنا هذا إليها هي الملابس التي يرتديها الباكستانيون ... والهنود!!!

ومن ثم تُفهم الروايات العامة مثل ما رواه البخاري: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا أَسْفَلَ مِنْ الْكَعْبَيْنِ مِنْ الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ"، فُتحمل على المخصصِة، مثل ما رواه البخاري كذلك: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا"، وما رواه البخاري كذلك: "سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ مَخِيلَةً لَمْ يَنْظُرْ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ." اهـ

فالإسلام لم يأت ليقصر الناس ثيابهم في مختلف أنحاء البسيطة باختلاف ثقافتهم، هكذا بدون أي علة، وإنما كانت العلة وقتها في أن الثياب الطويلة كانت رمزاً للثراء وللكبر، ومن ثم كان فيها هذا الوعيد الشديد، ومع انتفاء العلة ينتفي الحكم، وإن كان يصدق في كل ما يؤدي إلى البطر وإلى الكبر.

لذا فإن الدعوة إلى اللباس الإسلامي هي دعوة لا مستند لها في الدين، وهي أوهام في أذهان بعض المنتسبين إلى التيار الإسلامي! وأرى أنه من الأفضل بالنسبة لهؤلاء أن يغيروا الدعوة ليجعلوها دعوة إلى الحفاظ على التراث العربي بالتمسك بالجلباب وما شابه من الأزياء العربية الأصيلة، فتكون الدعوة للتمسك بالهوية العربية، وهي دعوة لا بأس منها، بل هي جد مطلوبة لمواجهة المد الغربي المستشري في بلادنا العربية!!

إن الثياب من المسائل الشخصية التي للإنسان التنويع فيها، ونحن وإن كنا نحبذ ارتداء الملابس ذات الطابع العربي، كتمسك بهويتنا مقابل محاولات طمسها لمصلحة الحضارة الغربية، إلا أنه طالما أن الثياب ليست ثياب عري وليست حاملة لرمز شركي، فليس لأحد أن يلزم آخر بزي أو يمنعه منه، ومحاولة الإلزام هذه ستُنتقد مثل انتُقدت الدول –الموصومة بأنها متحضرة!– عندما منعت المسلمات من ارتداء النقاب!

وإن كان فعلهم هذا شبيه بما فعلته الدول الإسلامية عندما ألزمت غير المسلمين بارتداء زنار حول الوسط! ليتميز المسلم من غير المسلم! وهو فعل مرفوض! إلا أن هذا كان قبل ما يزيد عن الألف عام!! وكان له من الأسباب والدوافع التي يمكن اعتبارها كمبرر! أما الآن فلا مبرر لإعلان الحرب على بعض أصناف الثياب!

والحق أن مسألة الثياب قد لانت كثيراً عند بعض الأجيال الجديدة من السلفيين، فنجد أن بعضهم يلبس أحدث صرعات المودة، مع المحافظة على التقصير، (وربما في صحبة فتاة مُقنعة!) والسؤال هنا: هل أصبحوا يرون أن مسألة الثياب من العادات، أم أنهم لا يزالون يرون أن الجلباب أفضل من القميص والبنطال؟!!

الفصل الخامس: أحكام متنوعة

الخروج على الحاكم

رأى المصريون كلهم الموقف المتردد للجماعة السلفية من المشاركة في الثورة، والمائل إلى عدم الاشتراك فيها، والذي برره السلفيون بأنه خروج عن الحاكم، والخروج عن الحاكم حرام لا يجوز وهو من أصول أهل السنة!! بل ويدّعون أن المسألة من المجمع عليه، فما هي أدلتهم في القول بهذا الرأي؟!

يستدل السلفيون على ذلك بأدلة كثيرة كلها من السنة تقريباً، إلا آية واحدة من القرآن وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ... ٥٩﴾ [سورة النساء, ٥٩]، وهي لا تزيد عن الأمر بطاعة الله والرسول وأولي الأمر، وأقصى ما يُستخرج من الآية أنها تعطي شرعية للحكام على محكوميهم، حتى لا يجادل سفسطائي بأنه لا طاعة للحكومة على المواطنين وأن لكل إنسان الحرية فيما يفعل. أما أن تكون دليلاً على عدم جواز الخروج عليه فلا تعلق لها به.

فإذا انتقلنا إلى الأدلة التي يستدلون بها من السنة، وجدناهم يستدلون بروايات عديدة، أهمها ما رواه الإمام مسلم:"عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَمَنْ يُطِعْ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي. وحَدَّثَنِيهِ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ بِهَذَا الْإِسْنَادِ وَلَمْ يَذْكُرْ: وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي.[178]" اهـ

والرواية لا تزيد عما أصلت له الآية القرآنية، ويمكن القول أنها تدل على أن مخالفة الحكومة فيما تأمر به بلا مستند في الكتاب أو السنة تعد معصية، فمثلاً الذي يكسر

[178] مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الثالث، ص.1466.

إشارة المرور أو يمشي بشكلٍ مخالف في الطريق يُعد عاصياً.

كما يستدلون بما رواه مسلم كذلك: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ.[179]" و"عَنْ جَرِيرٍ قَالَ: بَايَعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ. فَلَقَّنَنِي: فِيمَا اسْتَطَعْتَ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ.[180]"

وهذه الروايات لا تزيد عن كون ولاء المواطن لبلده وأن يكون مطيعاً لحكومته، إلا أن هذه الطاعة ليست مطلقة، فلا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، كما روى الإمام أحمد في مسنده: "عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ[181]"

وهذه الروايات يمكن إسقاطها على الحكام حسني السيرة، فما الحال مع الحكام العصاة والكافرين؟! يرى السلفيون أنه يجوز أو يجب الخروج على الحاكم الكافر، ويستدلون على ذلك بما رواه مسلم في صحيحه: "عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقُلْنَا: حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللَّهُ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُ اللَّهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ: دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعْنَاهُ فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا. وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ قَالَ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ[182]"

وعلى الرغم من أن الرواية رويت بدون الجزء الأخير: "وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ قَالَ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ"، كما في رواية مسلم السابقة لهذه،

(179) المرجع السابق، ص.1467.

(180) المرجع السابق، الجزء الأول، ص.75.

(181) أحمد بن حنبل، المسند، الجزء الثاني، ص.17.

(182) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الثالث، ص.1469.

وعلى الرغم من أنها رويت بشكل آخر ليس فيها هذا الجزء الأخير، مثل ما رواه ابن ماجه في سننه: "عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالْأَثَرَةِ عَلَيْنَا وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُولَ الْحَقَّ حَيْثُمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ[183]"

وعلى الرغم من أن الفاكهي يروي في "أخبار مكة" أن النبي بايع الأنصار قبل ذهابه إلى المدينة على مجموعة نقاط، لم يكن من بينها مسألة منازعة الأمر أهله، فيقول: "فقال صلى الله عليه وسلم: «تبايعوني على السمع والطاعة على النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا يأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم، فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة»[184]

على الرغم من هذا كله سنعتبر أن الحديث الذي رواه مسلم صحيح وصدر عن الرسول بهذا الشكل، فالروايات لا تزيد عن النهي عن التدخل في اختصاصات الناس، فلكلٍ تخصصه ودوره الذي يقوم به، فللحاكم دوره ولأمير الجيش دوره، ولمن يوليه النبي بعد منه عند خروجه للقتال أو للحج دوره، وللقاضي دوره، وللمفتي دوره، ومن ثم فلا ينبغي أن ننازع الناس تخصصاتهم وننصب أنفسنا بدلاً منهم أو نرفض الرجوع إليهم إذا رأينا أنهم أخطئوا ومن ثم تنهار الدولة!! فظني أن القاضي أخطأ في الحكم لا يعطيني المبرر لألا أنفذه، وهكذا.

ولو حصرنا الرواية في الحاكم فإنها تكون دالةً على النهي عن التقاتل حول الحكم والسعي إليه، فإذا كان هناك حاكم قائم فلا يدفعكم الحسد أو الطمع إلى إزاحته للوصول إلى السلطة.

ويمكن القول أن عمدة أدلتهم هي تلك الروايات التي تأمر بالصبر على الحكام الظلمة

(183) أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن بن ماجة، الجزء الرابع، ص.124.

(184) محمد بن إسحاق الفاكهي، أخبار مكة، الجزء الرابع، ص.232.

وطاعتهم، مثل ما رواه مسلم: "عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ الْحَضْرَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَأَلَ سَلَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَةِ فَجَذَبَهُ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ وَقَالَ: اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ[185]"

ولست أدري صراحة لم أُعرض عنه النبي الكريم، ألأنه من "الأرأيتيين" الذين كانوا يسألون عن أمور لمّا تقع بعد، ومن ثم فليس مطلوباً منه أن يجيب عما يقع بعده! فلو كان الأمر كذلك فهذا يدفع للتساؤل حول صحة الأحاديث التي يُعلم فيها النبي صحابته أو أمته ماذا يفعلون في المستقبل عند وقوع كذا وكذا! وإن لم يكن كذلك فلماذا أعرض عنه النبي الحليم ولم يعلمه؟!

ويستدلون كذلك بما رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا بِشَرٍّ فَجَاءَ اللَّهُ بِخَيْرٍ فَنحنُ فِيهِ فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَال: نَعَمْ. قُلْتُ: هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: كَيْفَ؟ قَالَ: يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ. قَالَ قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ.[186]"

وكذلك بما رواه "عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: خِيَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ

[185] مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الثالث، ص.1474.

[186] المرجع السابق، ص.1475.

فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ[187]"

وكذلك ما رواه مسلم: "عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ خَرَجَ مِنْ السُّلْطَانِ شِبْرًا فَمَاتَ عَلَيْهِ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً[188]"، فيقولون أن هذه أدلة صريحة في أن المنهج الأمثل في التعامل مع الحكام الظلمة هو الصبر على ظلمهم، ولا مانع من أن يدعون عليه، أما الخروج بالسلاح وقتالهم وإنكار البيعة فهذا ما لا يجوز.

وقبل أن نناقش هذه الأدلة نتساءل: هل أقوال النبي هذه، التي لا تستند إلى القرآن، هي بصفته حاكم للمسلمين، أي أنها من السياسة، أم أنها بصفتها وحيٌ ملزم؟ (لست أدري صراحة متى كان الوحي ينزل على النبي عندما يجيب على سائل يسأله في أمرٍ ما فيرد عليه!!) وبغض الطرف عن هذا نقول: على الرغم من شكي في صدور هذه الروايات عن رسول الله، لأن محتواها يدعوا إلى الخنوع والرضا بالظلم، الذي جاء الإسلام لرفعه ومخالفة لهدي القرآن الذي لم يتقبل الاحتجاج بالظلم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾ [سورة النساء, ٩٧]، فلماذا لم يأمر النبي الكريم المظلوم بالهجرة إلى بلد أخرى؟! ناهيك عن أن أفعال الصحابة والتابعين تقول أن هذه الروايات لم يكن لها وجود في مفرداتهم! فنجد الصحابي يقوم يعترض على عمر رافضاً أن يكون له السمع والطاعة لأنه رآه مرتدياً قميصاً أطول من قمصانهم، فلمّا بيّن له عمر كيف حصل على هذه الزيادة قال له: الآن لك السمع والطاعة، فكيف يأمر النبي بالسمع والطاعة لظالم يجلد الظهر ويأخذ المال؟! على الرغم من هذا سنعتبر أن هذه الروايات صحيحة، فنقول: من الطبيعي أن الإنسان قد تقع عليه مظلمة من جانب "الدولة"، سواءً كانت تعسفية أو عن طريق الخطأ، فماذا يكون تصرفه في مثل هذا الموقف؟! لن يستطيع أن

[187] المرجع السابق، ص.1481.

[188] المرجع السابق، ص.1477.

يفعل شيئاً إلا أن يخرج على الناس بسيفه، ومن ثم يُقتل وبهذا تكون المفسدة قد زادت ولم تُرفع، لذا فالحل الأمثل أن يصبر، حتى يجعل الله له مخرجاً، ومن ثم يمكن توجيهها بأن خطاب للأفراد، الذين لن تكون عاقبتهم إلا القتل، وليس توجيهاً للأمة بأكملها.

والسؤال الفاصل بشأن مثل هذه الأحاديث: هل الخروج عن الحاكم ممنوع لذاته لأن للحاكم منزلة خاصة بصفته نائب عن الله كما كان الرسول، أم أنه من شعائر الإسلام غير المعللة مثل عدد ركعات الصلاة، أم لما فيه من المفاسد الكبيرة؟!

لا أعتقد أن أحداً يقول بنظرية النيابة عن الله إلا المسيحيين –والشيعة!– ولا بأنه من الشعائر، ومن ثم فهو إنسان "موظف" له دور يقوم به، وهو تسيير أمور الدولة والناس، فإن حاد وعمّ الفساد، أفلا يجب على المسلمين النهي عن المنكر لرفع هذا الغي؟! بداهة يجب عليهم ذلك، ومراتب النهي عن المنكر معروفة، كما رواه الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري: "... مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ[189]"

فإذا كان الإنكار باللسان غير كافٍ والحاكم مستمرٌ في غيه وضلاله، ألا يقوم المسلمون لنهيه عن غيه، إذا رأوا أن هذا القيام ستكون مفاسده أقل؟! إن هذا يُعد تقاعساً عن القيام بالحق، والنبي الكريم نفسه ذم سكوت الأمة على الظلم، فيروي الترمذي: "عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ[190]" اهـ

فهل الواجب على الأمة أن تأمر وتنهى الأفراد، أمّا الحاكم فليس لهم به علاقة؟!

[189] المرجع السابق، الجزء الأول، ص.69.

[190] محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، الجزء الرابع، ص.467.

بداهة يقع ذلك على الحاكم والأفراد سواء، وليس هذا القول ببدعٍ من القول، فابن حزم يقول في "الفصل في الملل": "وذهبت طوائف من أهل السنة وجميع المعتزلة وجميع الخوارج والزيدية إلى أن سل السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إذا لم يمكن دفع المنكر إلا بذلك. قالوا: فإذا كان أهل الحق في عصابة يمكنهم الدفع ولا ييئسون من الظفر ففرض عليهم ذلك وإن كانوا في عدد لا يرجون لقلتهم وضعفهم بظفر كانوا في سعة من ترك التغيير باليد. وهذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكل من معه من الصحابة وقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وطلحة والزبير وكل من كان معهم من الصحابة وقول معاوية وعمرو والنعمان بن بشير وغيرهم ممن معهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. وهو قول عبد الله بن الزبير ومحمد والحسن بن علي وبقية الصحابة من المهاجرين والأنصار والقائمين يوم الحرة رضي الله عن جميعهم أجمعين وقول كل من أقام على الفاسق الحجاج ومن والاه من الصحابة رضي الله عنهم جميعهم كأنس بن مالك وكل من كان ممن ذكرنا من أفاضل التابعين كعبد الرحمن ابن أبي ليلى وسعيد بن جبير وابن البحتري الطائي وعطاء السلمي الأزدي والحسن البصري ومالك بن دينار ومسلم بن بشار وأبي الحوراء والشعبي وعبد الله بن غالب وعقبة بن عبد الغافر وعقبة بن صهبان وماهان والمطرف بن المغيرة ابن شعبة وأبي المعد وحنظلة بن عبد الله وأبي سح الهنائي وطلق بن حبيب والمطرف بن عبد الله ابن السخير والنصر بن أنس وعطاء بن السائب وإبراهيم بن يزيد التيمي وأبي الحوسا وجبلة بن زحر وغيرهم ثم من بعد هؤلاء من تابعي التابعين ومن بعدهم كعبد الله بن عبد العزيز ابن عبد الله بن عمر وكعبد الله بن عمر ومحمد بن عجلان ومن خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن وهاشم بن بشر ومطر ومن أخرج مع إبراهيم بن عبد الله. وهو الذي تدل عليه أقوال الفقهاء كأبي حنيفة والحسن بن حيي وشريك ومالك والشافعي وداود وأصحابهم فإن كل من ذكرنا من قديم وحديث إما ناطق بذلك في فتواه وأما الفاعل لذلك بسل سيفه في إنكار ما رآه منكرا[191]"

[191] علي بن حزم الظاهري، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الرابع، ص. 132.

ولست أدري كيف يدعي السلفيون في قبالة كل هؤلاء الإجماع على تحريم الخروج على الحاكم! لقد استكبر ابن حزم هذه المقولة وفندها فقال: "فإنه أتى فيما ادعى فيه الإجماع أنهم أجمعوا على أن لا يخرج على أئمة الجور فاستعظمت ذلك ولعمري إنه عظيم أن يكون قد علم أن مخالف الإجماع كافر فيلقي هذا إلى الناس، وقد علم أن أفاضل الصحابة وبقية الناس يوم الحرة[192] خرجوا على يزيد بن معاوية، وأن ابن الزبير ومن اتبعه من خيار المسلمين خرجوا عليه أيضا رضي الله عن الخارجين عليه ولعن قتلتهم، (...) ولعمري لو كان اختلافا يخفى لعذرناه ولكنه أمر مشهور يعرفه أكثر العوام في الأسواق والمخدَّرات في خدورهن لاشتهاره، فلقد يحق على المرء أن يخطم كلامه[193]" اهـ

والعجب كل العجب أن إمام السلفيين أحمد بن حنبل كان يقول بهذا!! "وكان يقول لا طاعة لهم في معصية الله تعالى، وكان يقول من دعا منهم إلى بدعة فلا تجيبوه ولا كرامة وإن قدرتم على خلعه فافعلوا[194]" اهـ

فها هو إمامهم المبجل يدعو إلى خلع الحاكم المبتدع إذا أمكن ذلك، أم أن الخلع يكون للمبتدع ولا يكون للظالم، لأن البدعة أخطر من الظلم؟!! ولا يقتصر الأمر على الإمام بن حنبل فهناك من علماء الحنابلة من قال بقوله، مثل: ابن رزين وابن عقيل. فكيف ندعي بعد هذا الإجماع على عدم جواز الخروج على الحاكم؟! إن هذا الأمر من البديهيات التي لا تحتاج إلى جدال، فالمفسدة تُدفع بمفسدة أقل، فإن لم يمكن دفعها إلا بمفسدة مماثلةٍ أو أكبر لا يجوز ويجب الصبر عليها، وهذا ما نقول به ويقول به كل هؤلاء العلماء.

---

(192) هي ثورة قام بها أهل المدينة المنورة في عام 63 هـ اعتراضاً على ظلم يزيد بن معاوية، واستبيحت المدينة بعدها ثلاثة أيام!!

(193) علي بن حزم الظاهري، مراتب الإجماع، ص.199.

وليس المقصود ب: "المخدرات" المسكر، وإنما النساء المعزولة في غرفهن.

(194) الإمام عبد الواحد التميمي، اعتقاد الإمام أحمد، ص. 81–82.

الأمر بالمعروف

المقارن بين موقف السلفيين من الفرد (المواطن) وبين موقفهم من الحاكم يجد تبايناً كبيراً، فيجد أنهم يلينون ليناً شديداً في معاملة الحاكم ويصيرون أمامه كالحمامات الوديعات، فجعلوا له الطاعة المطلقة وإن ظلم ونهب أو ابتدع، فلا يُخرج عليه، وقد بيّنا فساد هذا القول، فإذا تركنا هذه النقطة وتحدثنا عن الأمر بالمعروف للحاكم باللسان كيف يكون؟!

الناظر في أدبيات السلفيين يجد أنهم يقولون أنه إذا حدث ونصح أحدٌ له فيجب أو ينبغي أن تكون هذه النصيحة في السر وليست أمام الرعية، حتى لا تسبب هذه النصيحة مشاكل واضطرابات في المجتمع!!

ويستدلون على هذا بالحديث الضعيف الذي رواه أحمد في مسنده: "حَدَّثَنِي شُرَيْحُ بْنُ عُبَيْدٍ الْحَضْرَمِيُّ وَغَيْرُهُ قَالَ: جَلَدَ عِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ صَاحِبَ دَارِيَا حِينَ فُتِحَتْ فَأَغْلَظَ لَهُ هِشَامُ بْنُ حَكِيمٍ الْقَوْلَ حَتَّى غَضِبَ عِيَاضٌ ثُمَّ مَكَثَ لَيَالِيَ فَأَتَاهُ هِشَامُ بْنُ حَكِيمٍ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ هِشَامٌ لِعِيَاضٍ: أَلَمْ تَسْمَعْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا أَشَدَّهُمْ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا لِلنَّاسِ؟ فَقَالَ عِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ: يَا هِشَامُ بْنَ حَكِيمٍ قَدْ سَمِعْنَا مَا سَمِعْتَ وَرَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ فَلَا يُبْدِ لَهُ عَلَانِيَةً وَلَكِنْ لِيَأْخُذْ بِيَدِهِ فَيَخْلُوَ بِهِ فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ. وَإِنَّكَ يَا هِشَامُ لَأَنْتَ الْجَرِيءُ إِذْ تَجْتَرِئُ عَلَى سُلْطَانِ اللَّهِ! فَهَلَّا خَشِيتَ أَنْ يَقْتُلَكَ السُّلْطَانُ فَتَكُونَ قَتِيلَ سُلْطَانِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟![195]"

ومن ثم فمن لم يقدر على أن ينصح للحاكم سراً فلا حرج عليه، لأنه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، لأن هذا الطريق هو ما جاء على لسان رسوله صلى الله عليه وعلى آله

[195] أحمد بن حنبل، المسند، الجزء الثالث، ص.403.

وسلم، ومن ثم فلا تدفعه قدرته على النصح سراً أن ينصح علناً! فلو رضي الله للعباد غيره لذكر ذلك في الكتاب أو في صحيح السنة!

وهكذا همشوا دور الأمة في رقابة الحاكم وفي محاسبتها، ومن ثم أصبح الدين والشعب خدماً للسلطان بدلاً من العكس! ولست أدري كيف نسوا ما رواه أحمد في مسنده: "عنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ: أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ.[196]"

وكذلك: "عن عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: إذا رأيتم أمتي تهاب الظالم أن تقول له أنك أنت ظالم فقد تودع منهم.[197]"

وما رواه مسلم في صحيحه: "عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ.[198]"، و: "عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: لَا مَا صَلَّوْا.[199]"

فجعل الرسول الدين هو النصيحة وهي واجبة لأئمة المسلمين وأن من ينكر هو السالم، وعدّ النبي عدم قول الأمة للحاكم أنه ظالم دليلاً على ضياع الخير من الأمة.

كما أن السلف أنفسهم أنكروا على الحكام أمام الناس، فنجد مسلم يروي: "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَخْرُجُ يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ فَيَبْدَأُ بِالصَّلَاةِ فَإِذَا صَلَّى صَلَاتَهُ وَسَلَّمَ قَامَ فَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ وَهُمْ جُلُوسٌ فِي مُصَلَّاهُمْ فَإِنْ كَانَ لَهُ حَاجَةٌ بِبَعْثٍ ذَكَرَهُ لِلنَّاسِ أَوْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ بِغَيْرِ ذَلِكَ أَمَرَهُمْ بِهَا

(196) المرجع السابق، الجزء الرابع، ص.314.

(197) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص.163.

(198) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الأول، ص.74.

(199) المرجع السابق، الجزء الثالث، ص.1480.

وَكَانَ يَقُولُ: تَصَدَّقُوا تَصَدَّقُوا تَصَدَّقُوا. وَكَانَ أَكْثَرَ مَنْ يَتَصَدَّقُ النِّسَاءُ ثُمَّ يَنْصَرِفُ. فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى كَانَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ فَخَرَجْتُ مُخَاصِرًا مَرْوَانَ حَتَّى أَتَيْنَا الْمُصَلَّى فَإِذَا كَثِيرُ بْنُ الصَّلْتِ قَدْ بَنَى مِنْبَرًا مِنْ طِينٍ وَلَبِنٍ فَإِذَا مَرْوَانُ يُنَازِعُنِي يَدَهُ كَأَنَّهُ يَجُرُّنِي نحوَ الْمِنْبَرِ وَأَنَا أَجُرُّهُ نحوَ الصَّلَاةِ فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْهُ قُلْتُ: أَيْنَ الِابْتِدَاءُ بِالصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: لَا يَا أَبَا سَعِيدٍ قَدْ تُرِكَ مَا تَعْلَمُ. قُلْتُ: كَلَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَأْتُونَ بِخَيْرٍ مِمَّا أَعْلَمُ، ثَلَاثَ مِرَارٍ ثُمَّ انْصَرَفَ.[200]"

ولم يكن لديهم مانعٌ من أن يُقوّموا الحاكم –أي يقيموا اعوجاجه–، ولم ير الحاكم أن هذا ليس لهم وإنما فرح بهذا، فنجد ابن أبي شيبة يروي في مصنفه: "عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُمَرَ وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى جِذْعٍ فِي دَارِهِ وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ فَدَنَوْت مِنْهُ، فَقُلْتُ: مَا الَّذِي أَهَمَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: هَكَذَا بِيَدِهِ وَأَشَارَ بِهَا، قَالَ: قُلْتُ: ما الَّذِي يُهِمُّك وَاللهِ لَوْ رَأَيْنَا مِنْك أَمْرًا نُنْكِرُهُ لَقَوَّمْنَاك، قَالَ: آللهِ الَّذِي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ، لَوْ رَأَيْتُمْ مِنِّي أَمْرًا تُنْكِرُونَهُ لَقَوَّمْتُمُوهُ؟ فَقُلْتُ: آللهِ الَّذِي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ، لَوْ رَأَيْنَا مِنْك أَمْرًا نُنْكِرُهُ لَقَوَّمْنَاك، قَالَ: فَفَرِحَ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِيكُمْ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ مَنِ الَّذِي إذَا رَأَى مِنِّي أَمْرًا يُنْكِرُهُ قَوَّمَنِي.[201]" اهـ

ولكن لأن السلفيين لا يزالون يعانون من "عقدة عثمان بن عفان"، فأوجبوا هذه الطريقة في التعامل مع الحكام حتى لا تتكرر الفتنة!! ويغضون الطرف عن أن نظام الحكم قد تغير وآلية مخاطبة الحكام لشعوبهم –والعكس– قد تغيرت، وأن وضع الحاكم نفسه قد تغير وأن البيعة نفسها ما عادت تؤخذ للأبد، وأن الصحابة كان لهم وضع خاص في التاريخ الإسلامي، بغض النظر عن هذا فالسلفيون لا يريدون الاقتناع بأنه نوع من الإنكار العلني على منكر وقع أو مطالبة بحقوق ممنوعة، وإنكار المنكر واجب باليد أو باللسان أو بالقلب، وهذا إنكارٌ باللسان، وليس ثمة ما يمنعه من النصوص الشرعية، بل هناك كثيرٌ يؤيده!

---

[200] المرجع السابق، الجزء الثاني، ص.605.

[201] أبو بكر عبد الله بن محمد، مصنف بن أبي شيبة، الجزء الثالث عشر، ص.278.

فإذا تركنا الموقف من الحاكم وانتقلنا إلى الموقف من الفرد، نجد الحال مختلفاً، فنجد أن هناك درجة من الاستئساد على الأفراد، فبعضهم يعطي لنفسه حق النهي عن المنكر بيده، -والذي قد لا يكون منكراً إلا عند السلفيين فقط- ولو لم يكن مفوضاً من السلطان، بينما أقصى ما لديه أن ينهى بلسانه، ومن ذلك ما فعله الداعية حازم شومان عندما اقتحم حفل الفنان هشام عباس ليمنعه من الغناء في المنصورة لأن الغناء حرام! فهل نعتبر هذا مسلكاً فردياً لن يتكرر أم أننا سنجد السلفيين يستقوون بحزبهم في السلطة ومن ثم يعيدون مسلك سلفهم من الحنابلة في فتنتهم التي استباحوا فيها المسلمين في القرن الرابع الهجري[202]، بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد، بدون تفويض من السلطان؟!

أم أنهم سيعملون على إنشاء بدعة مثل الموجودة في السعودية "هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، والتي جعلوا فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة، يأخذ العامل فيها مالاً مقابل عمله، بدلاً من أن تكون لوجه الله؟! والتي لم تكن موجودة على عهد النبي الكريم ولم يخصص النبي أفراداً ليأمروا الناس بالمعروف، والتي هي في عين الوقت ليست بالشرطة، فهناك "رجال الهيئة" بالإضافة إلى الشرطة. أولئك المتسلطون الذين يُجبرون الناس على الطاعة، فيغلقون المحال ويدفعون الناس دفعاً إلى الذهاب للصلاة، مع أن النبي الكريم لم يفعلها، ولست أدري كيف لا تكون بدعة عندهم، أم أنه طالما الأمر متعلق بالتضييق والتشديد على الناس فلا حرج؟!

والذين يتلصصون على الناس فينظرون ماذا يقولون ويفعلون، مع أن هذا انتهاك لحرية ولحرمة الإنسان! بل وينظرون في أعين النساء فإذا كانت عيون امرأة الظاهرة من خلف النقاب جميلة أمروها بتغطيتها! بل ويحدثون الرجال بشأن لحاهم وثيابهم! وينتفضون

---

[202] وتحديداً في عام (323 هـ) فكانوا يخرجون إلى الأسواق فيصادرون الكتب التي تخالف مذهبهم و يحرقونها، ويمزّقون القماش المزخرف والموشى بالذهب أو بأبيات الشعر الغزلي، ويعبثون بالأواني الملونة والتي تحمل رسومات لحيوانات أو طيور أو أشجار، و يكسرون دنان الخمر ويقتحمون الخمّارات شاهرين سيوفهم حاملين الهراوات والأسلحة المختلفة، كما كانوا يعمدون إلى الإضرار بالنساء اللواتي في مشيتهنّ غنج و أنوثة ظاهرة، و يعتدون على الشباب الميّال إلى الطرب والغناء، ووصل بهم الأمر إلى إغراء العميان بمخالفيهم في المذهب، فكان إذا مر شافعي أمامهم ضربوه بعصيهم حتى يكاد يموت.

الانتفاضة الكبرى لمحاربة البدع الخطيرة الطارئة على المجتمع السعودي النقي، المفسدة له مثل بدعة: "فوانيس رمضان"!!

لا أعتقد أن المجتمع المصري مجتمع خانع حتى يقبل بفكرة "هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، ولا أعتقد أن السلفيين سيحاولون إنكار المنكر باليد، لأنهم يحاولون أن يقدموا صورة مقبولة لهم عند عامة الشعب، ناهيك عن الإعلام الواقف لهم بالمرصاد، ولو حاول السلفيون أن يطبقوا هذه الفكرة فسيعني هذا أن ينقلب الناس عليهم وتندلع ثورة جديدة يكون شعارها: "اشنقوا آخر سلفي بنقاب آخر منتقبة". ولن يجدوا لهم نصيراً أو معيناً لا من شرطة ولا جيش ولا من أنصارهم السعوديين، إلا أن يحلقوا لحاهم!

اللحية

طالما تكلمنا عن السلفية فلزامٌ أن نتكلم عن اللحية، فللحية مكانة كبيرة عند السلفيين باعتبارها العلامة المميزة ل: السني المتبع، من ذلك الذي لا يُلقي بالاً لسنة النبي ويصر على التحليق عادة الغربيين والمخنثين!! فالسلفي مطولٌ مقصر، يعوض التقصير الذي فعله في ثوبه بالتطويل في لحيته!

ومسألة اللحية من المسائل التي كتب فيها السلفيون كتيبات بل وكتب كثيرة، مصرين على فرضيتها وحرمة حلقها. وليس هذا هو القول الوحيد في الفقه الإسلامي فثمة أقوال أخرى تقول أنها سنة مؤكدة وليست فرضاً، فمن الأفضل للمسلم أن يكون ملتحياً، وهناك رأي ثالث يقول أنها سنة عادة، أمر بها النبي الكريم باعتبارها عادة من عادات العرب، ولن نعرض لحكم اللحية بالتفصيل وإنما نقول إجمالاً: لم يرد في القرآن أي أمر أو نهي أو حث على اللحية، وإنما وردت في آية واحدة تقول أن سيدنا

هارون كان ملتحياً: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ... ﴿٩٤﴾﴾] سورة طه ,٩٤[، وما عدا ذلك فليس ثمة ذكر لها.

ويرى السلفيون أن قول الرسول وحده كافٍ للحكم بفرضيتها، لأمره به في أحاديث عديدة. وبغض النظر عن أن أكثر هذه الأحاديث لا يصح سنداً، كما قرر علامة المغرب محمد عمراني حنشي، وبغض النظر عن أنه ثمة شكٌ في صدور بعضها عن غير النبي، مثل ما رواه النسائي: "حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ طَلْقًا يَذْكُرُ عَشْرَةً مِنْ الْفِطْرَةِ السِّوَاكَ وَقَصَّ الشَّارِبِ وَتَقْلِيمَ الْأَظْفَارِ وَغَسْلَ الْبَرَاجِمِ وَحَلْقَ الْعَانَةِ وَالِاسْتِنْشَاقَ وَأَنَا شَكَكْتُ فِي الْمَضْمَضَةِ[203]"، فنجد أبا داود يروي نفس هذه الرواية عن طلق مرفوعة إلى النبي: "عَنْ طَلْقِ بْنِ حَبِيبٍ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَشْرٌ مِنْ الْفِطْرَةِ قَصُّ الشَّارِبِ وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ وَالسِّوَاكُ وَالِاسْتِنْشَاقُ بِالْمَاءِ وَقَصُّ الْأَظْفَارِ وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ وَنَتْفُ الْإِبِطِ وَحَلْقُ الْعَانَةِ وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ يَعْنِي الِاسْتِنْجَاءَ بِالْمَاءِ[204]"

(وترجيح صدورها عن: طلق وليس النبي، لأن متن الحديث نفسه غير سليم، فليس لهذه الأمور العشرة علاقة بالفطرة، وإلا لكان الناس جُبلوا عليها، ولو لم يوجههم غيرهم إلى فعل غيرها لفعلوها من تلقاء أنفسهم! وهذا ما يُكذبه الواقع وطبيعة البشر، ومن ثم فالأولى أنها من قول طلق ثم نُسبت إلى النبي) وبغض النظر عن مخالفة بعضها للتاريخ، مثل ما رواه مسلم: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: جُزُّوا الشَّوَارِبَ وَأَرْخُوا اللِّحَى، خالفوا المجوس[205]" اهـ

فالتاريخ يقول أن أهل العراق كانوا ملتحيين، وفي هذا يقول علامة المغرب عمراني حنشي: "حيث ثبت من خلال ما كشفت عنه الحفريات في المنطقة أن سكان العراق العربي والأعجمي القديم قاطبة، والأكاسرة الساسانيين من بعدهم كانوا يوفرون لحيهم

[203] أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي، الجزء الخامس، ص.405.

[204] سليمان بن الأشعث الأزدي، سنن أبي داود، الجزء الأول، ص.61.

[205] مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الأول، ص.222.

ولا يحلقونها، على ما تشهد بها التماثيل والجداريات (...) وكلهم من دون استثناء ملتحون. (...) بينما العادة كانت مختلفة عند المصريين حيث أثر عنهم الحلق، (...) لذا ننتظر أن نجد ممانعة لدى المصريين في توفير لحاهم، بحكم ما جبلوا عليه من عادة مخالفة لما جُبل عليه العراقيون: عرب وأعاجم، ومعهم عرب الجزيرة.[206]" اهـ

بغض النظر عن هذه الإشكاليات المتعلقة بثبوت وبمضمون الأحاديث سنقر بقبولها، ونقول أنه صدر أمرٌ بشكل ما عن الرسول مضمونه حلق/ حف/ جز الشوارب وتوفير اللحى، فنتساءل: هل كان العرب في حاجة إلى من يأمرهم بإطلاق اللحى؟ إن توفير اللحى كان هو الأمر المتعارف عليه بينهم ويعدونه من علامات الرجولة والفحولة، ويعدون غيابها عن وجه الرجل منقصة له، لذلك لما كان الصحابي الأنصاري قيس بن سعد بن عبادة أجرداً –لا تنبت له لحية– كان الأنصار يقولون: "لو استطعنا أن نشتري لقيس لحية بأموالنا لفعلنا"، فلو وُجدت اللحية لاكتملت ملامح الرجولة والسيادة فيه. ومن ثم فالعرب ليسوا بحاجة لمن يأمرهم بإطلاقها، ومن ثم يمكننا فهم الأحاديث الواردة في الباب على أنها متعلقة بالدرجة الأولى بتهذيب الشارب وليس بإطلاق اللحى، بدليل تقديم الحف في أكثر الروايات، ومن ثم فإنه ينبغي للإنسان ألا يترك شاربه حتى يلتئم مع لحيته فيغطي فمه، فيبدو أن العرب كانوا لا يهذبون شواربهم، ويُنزل هذا على من لديه لحية، لا أنه يُنشئ أمراً بوجوب توفير اللحية ثم الأخذ من الشارب! ولهذا ورد الأمر عند مسلم: "عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ أَحْفُوا الشَّوَارِبَ وَأَوْفُوا اللِّحَى[207]"، وحتى لو قلنا أن الأحاديث تحمل أمراً بإطلاق اللحية فهو من باب الحكم بصحة "العادة"، فلأن عادة العرب كانت إطلاق لحاهم، فالأحاديث تبين أن الإسلام لم يغير شيئاً في هذا الأمر ولم يأخذ موقفاً سلبياً منه، فليست كل عادات الجاهلية سلبية، فهذا الفعل مقبول وحسن ولا حرج أن تستمروا عليه بعد الإسلام.

---

[206] من ملف على موقعه الشخصي: www.alhiwar.org بعنوان: المراجعات الفقهية، الفقهاء وتعسفهم في استنباط الأحكام، فقه الشوارب واللحى.

[207] مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الجزء الأول، ص.222.

الخاتمة

بهذا القدر نظن –وبعض الظن ليس إثماً– أننا قدمنا للقارئ الكريم تصوراً جيداً عن منهج وأصول السلفية، عرّفنا فيه به، كما قدمنا له تعريفاً تاريخيا موجزاً بمؤسسيها ومنظريها ومؤصليها وبأعلامها المعاصرين، والمراحل التي مرت بها حتى وصلت إلينا بهذا الشكل، وبيّنا أنها فرقة كغيرها من الفرق الإسلامية لا تتميز عنها في شيء، بل إن لديها من العيوب ما ليس موجوداً لدى الفرق الأخرى.

كما قمنا بتناولنا غير التقليدي بنقد الأصول التي قام عليها المنهج، وبيّنا كيف أنها خالفت المعقول والمألوف والمعروف، بل وأخذت من العقل موقفاً لا يتفق مع الموقف القرآني بحال، وبيّنا أن الإشكالية السلفية لا تكمن في القراءة الظاهرية للنصوص، وإنما في القراءة الحائرة له الناتجة عن انتزاعه من سياقه، مما يجعلها ضرباً من ضروب التخمين! ناهيك عن كونها قراءة موجهّة بأفكار وقواعد غير قرآنية، تجعل السلفي يحط بالنص بعيداً عن مراد الله فيه! وقدّمنا على ذلك العديد من النماذج، وبيّنا كيف أن أدلتهم فيها أدلة بعيدة غير ذات تعلق مباشرٍ بالمسألة!

كما بيّنا أن المنهج السلفي ليس منهجاً اجتهادياً تجديدياً وإنما هو منهج "آبائي" متقوقع، قائم على تقليد الآباء والركون إليهم والانعزال عن الواقع، ومنهجٌ كهذا لا يتفق مع نهج القرآن، كما أنه لن يستطيع الصمود بحال مع تقلبات الزمان إلا إذا ازداد تقوقعا، أما مع احتكاكه بالواقع فسيضطر للتنازل عن "آبائيته"، والأخذ بالجديد، وهذا ما حدث فعلاً، فبدء السلفيون يغيرون اجتهاداتهم لتتناسب مع الواقع.

كما توقعنا أن السلفيين سيتأثرون أكثر مما يؤثرون، وسيغيرون بعضاً –ولا نقول كثيراً– من اجتهاداتهم في المرحلة القادمة. كما بيّنا أنه لا مبرر للخوف منهم، لأنهم لن يعملوا على الصدام المباشر مع المجتمع، وإنما سيعملون –في حال بقاءهم في السلطة– على التغيير المتدرج طويل المدى، والذي لن يشعر معه المواطن العادي –مع السياسة

الإعلامية الجديدة للدولة– بأي إشكالٍ في تقبله.

وسيظل هذا التغير محدودا لا يمس بهوية الدولة المصرية، فلن تتحول إلى سعودية أخرى، لأن السلفيين ليسوا ولن يكونوا أبداً اللاعب الوحيد أو الأبرز بفارق في الساحة السياسية المصرية. وعلى الرغم من نقدنا الحاد للسلفية والسلفيين فإننا نستبشر خيراً بخروجهم إلى الواقع، فهم وإن كانوا غير محنكين سياسياً وليسوا ذوي دراية واقعية، إلا أنهم يمثلون شريحة عريضة في المجتمع، شريحة يملؤها الحماس والإخلاص والرغبة في السعي والعمل، ومن ثم فعلينا أن نعمل على توجيههم الوجهة الصحيحة لخدمة الأمة بصمودنا في وجوههم، وتمسكنا بما نحن عليه من منهج وسطي، وسيضطرون هم لتغيير وجهتهم وفتاويهم!

علّ الله يهدي بنا ويهدينا، فما كان من توفيق وسدادٍ فمن الله الرحمن وما كان من خطأ أو زلل أو ضلال فمني ومن الشيطان.

كان الفراغ من هذا الكتاب بفضل الله وعونه في يوم السبت لستٍ خلون من شهر صفر في عام ثلاث وثلاثين وأربعمائة وألف بعد الخروجِ النبوي من مكة، الموافق آخر أيام السنة المباركة 2011 تبعاً للتقويم الجريجوري.

للتواصل مع الكاتب، يُرجى زيارة موقعه الشخصي:

www.amrallah.com

سرد بأهم المراجع

* القرآن الكريم

كتب التفاسير:

* ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز– السعودية، الطبعة الثالثة 1419 ه

* الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 2000.

* الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر: الكشاف، دار الكتاب العربي

بيروت1407 هـ.

* الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2000.

كتب السنة:

* الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس– بيروت، 1996.

* الأصبهاني، أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي– بيروت، الطبعة الرابعة 1405 هـ.

* البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى 1422 هـ.

* البيهقي، أحمد بن الحسين: سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز- مكة، 1994.

* البيهقي، أحمد بن الحسين: شعب الإيمان، تحقيق: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة الأولى 2003.

* الترمذي، محمد بن عيسى: الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن: سنن الدارمي، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولى 1407 هـ.

* السجستاني، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

* الصنعاني، أبو بكر عبد الرازق بن همام: مصنف عبد الرازق، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الثانية 1403 هـ.

* الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب: المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين- القاهرة 1415 هـ.

* الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب: المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم- الموصل، الطبعة الثانية 1983.

* الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب: مسند الشاميين، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الأولى 1984.

* العكبري، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد: الإبانة الكبرى، تحقيق: رضا معطي وآخرين، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى 1988.

* الفاكهي، محمد بن إسحاق: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: د. عبد

الملك عبد الله دهيش. دار خضر، بيروت 1414 هـ.

* المبارك، عبد الله: مسند عبد الله بن المبارك، تحقيق: صبحي البدري السامرائي، مكتبة المعارف– الرياض، الطبعة الأولى 1407 هـ.

* النسائي، أحمد بن شعيب: سنن النسائي الكبرى، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان

البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة الأولى 1991.

* النيسابوري، محمد بن عبد الله: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة الأولى 1990.

* النيسابوري، مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* أنس، مالك: الموطأ، برواية محمد بن الحسن، تحقيق: د. تقي الدين الندوي، دار القلم– دمشق، الطبعة الأولى 1991.

معاجم لغوية:

* بن فارس، أبو الحسين أحمد: مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، 1999.

* بن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف القاهرة.

مراجع عامة:

* ابن العثيمين، محمد بن صالح: مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان، دار الوطن– دار الثريا، 1413 هـ.

* أبو علي، حسين: الوهابية، جذورها التاريخية، مواقفها من المسلمين، (سلسلة:

الرحلة إلى الثقلين)، مركز الأبحاث العقائدية، إيران، الطبعة الأولى، 2000.

* الأصبهاني، أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي: الحجة في بيان المحجة، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي المدخلي، دار الراية، الرياض، 1999.

* التميمي، عبد الواحد بن عبد العزيز: اعتقاد الإمام المنبل أبي عبد الله أحمد بن حنبل، تحقيق: أبو المنذر النقاش أشرف صلاح علي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 2001.

* التويجري، عبد الله بن عبد العزيز: البدع الحولية، دار الفضيلة الرياض، الطبعة الأولى 2000.

* السراجي، كريم: الأسس الدينية للاتجاهات السلفية، دار السلام بيروت، الطبعة الأولى، 2010.

* الشاعر، عمرو: القرآنيون مصلحون أم هادمون؟ مكتبة النافذة، الطبعة الأولى 2009.

* الشاعر، عمرو: عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى 2008.

* الصفار، حسن: السلفيون والشيعة نحو علاقة أفضل، مؤسسة العارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية 2005.

* العتيبي، عبد العزيز بن ندى: من السلفيون ولماذا يخافون السلفية؟ دار الإبانة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2008.

* العربي، أبو عبد الباري عبد الحميد بن أحمد: وقفات منهجية في الذب عن السلفية، مجالس الهدى للإنتاج والتوزيع الجزائر، الطبعة الثالثة 2003.

* الغزالي، صالح: حكم ممارسة الفن في الشريعة الإسلامية (بحث مقدم لنيل درجة

الماجستير) بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، السعودية، 1414 هـ.

* القحطاني، محمد بن سعيد: الولاء والبراء في الإسلام، دار طيبة، مكة– الرياض، الطبعة السادسة، 1413هـ.

* بن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، الرياض، 1391هـ.

* بن حزم الظاهري، علي: مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والمعتقدات، دار الأفاق الجديدة بيروت، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة 1982.

* النجار، أحمد محمد: فصل المقال في وجوب إتباع السلف الكرام، الطبعة الأولى، 1431هـ.

* بن رشد الحفيد، أبو الوليد محمد بن أحمد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الرابعة 1975.

* عباسي، عيد: الدعوة السلفية وموقفها من الحركات الأخرى، دار الإيمان (إسكندرية)، 2002.

* عمارة، محمد: السلفية، (سلسلة: موسوعة الحضارة العربية الإسلامية) دار المعارف، سوسة، تونس.

مواقع على الشبكة المعلوماتية:

www.amrallah.com

http://www.fatawa-alalbany.com

مؤلفات عمرو الشاعر

* لماذا فسروا القرآن؟ القرآن بين التقييد والهجران

* عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام

* القرآنيون مصلحوم أم هادمون؟

* السوبرمان بين نيتشه والقرآن

* نشأة الإنسان بين القرآن والتوراة ونظرية دارون

* قراءة لسور الطعن

* السيدة عائشة والتاريخ المشوه

* قصص القرآن القرآني

* الجن .. الأرباب المختلَقة

* القرآن سورة واحدة جزء عمّ نموذجاً

* السلفية .. منهج إسلامي؟

* فقه الإنسان محاولة تأصيلية تأسيسة

* رواية خواطرٌ شواذ

* القنطرة I في قواعد اللغة الألمانية

* القنطرة II تكلم العامية الألمانية

الفهرست